
٢/٩٢

عبد الرحمن الرافعي

مؤرخ مصر الحديثة

بهاء الدين علوان



عبد الرحمن الرافعى
مؤرخ مصر الحديثة

عبد الرحمن الرافعى
مؤرخ مصر الحديثة

الطبعة الثانية
مزيدة

بهاء الدين محمد علوان

سيرة وحياة

عبد الرحمن عبد اللطيف الرافعى (١٨٨٩-١٩٦٦) - مؤرخ مصر الحديثة .. إحدى الشخصيات النادرة فى تاريخنا المعاصر .. المناضلة من أجل مبادئها واتجاهاتها الوطنية، التى تشربت أصولها من منابع أصيلة .. وفى مقدمتها تلمذة صاحبها على الزعيم الشاب مصطفى كامل، حيث شغف بمبادئه وجهاده من أجل مصر عشقاً .. وزادها رسوخاً بعد ذلك اقترابه من الزعيم محمد فريد.

وتحجب الأعمال الكثيرة فى تاريخ مصر الحديثة التى قدمها المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى للمكتبة العربية طوال نصف قرن تقريباً، حياة صاحبها العصامية التى كونت اسمه .. والتى تعد قصة متصلة الحلقات، تعكس بدقة أصالة الإنسان المصرى، ومقاومته لكل عوامل الإحباط التى تريد أن تلزمه فى مكانه. وهذه الحياة لا تقل أهمية عن دراسات صاحبها الكثيرة التى لم يقم بها أحد مثله.

أسرته:

ولد عبد الرحمن الرافعى فى بيئة دينية. فأبوه هو الشيخ عبد اللطيف الرافعى .. "هو ابن الشيخ مصطفى الرافعى بن الشيخ عبد القادر الرافعى. والأخير هو أول من لقب بلقب "الرافعى" فى طرابلس، ولقبهم الأول هو "البيسار" به تلقب والد الشيخ عبد القادر واسمه الشيخ عبد اللطيف البيسار بن الشيخ عمر البيسار. وينتهى نسبه إلى ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضى الله عنه".[1] جاء أجداده إلى مصر إبان الفتح الإسلامى. ونتيجة لهذه البيئة والنسب دخل الأب الأزهر الذى كان له فى ذلك الحين - أواسط القرن الثامن عشر - قمته المرموقة العالية فى الحياة المصرية بوصفه معقل الإسلام وحامى حمى الدين، مما أدى إلى هيمنة خريجيه على جميع المناصب الدينية من خطباء المساجد إلى أرقى المناصب بالقضاء الشرعى والإفتاء.

وعندما يتخرج الشيخ عبد اللطيف من الأزهر عام ١٨٧٧ يتولى عدة مناصب هامة فى القضاء، فيشغل وظيفة قاضى المحاكم الشرعية بمحافظة البحيرة سنة ١٨٨٩، فعضوا بمحكمة مصر الشرعية سنة ١٨٩٧، فمفتيا لمدينة الإسكندرية سنة ١٨٩٨، إلى أن أحيل للمعاش فى سنة ١٩٠٩، ويختار الأب الإسكندرية التى تعد من أهدأ البلاد مستقرا له، ولا يبرحها إلا مضطرا فى أواخر حياته عندما يلم به المرض فينتقل إلى القاهرة ويتوفى بها فى ٢٤ يناير ١٩١٨.[2]

ومن الطريف أن عبد الرحمن الرافعى فى مذكراته لم يبدأ كتابته عن أسرته بالحديث عن الأب كما تجرى العادة، بل قدم عليه أمه وتاريخ أسرتها وأشاد بها كثيراً على الرغم من أنها توفيت وهو فى سن الرابعة تقريباً، مما يمكن أن يلقى انطباعاً بقسوة الأب مثلاً (الذى تزوج مرتين بعد وفاة أمه وعاش معهما).

إن الأحداث التى تمر بالطفل مع قلتها وبساطتها هى التى تحدد مستقبل حياته، وتضعه بين أبيه وأمه فى المكان الذى تدفع إليه حقيقة علاقات والديه به. ولاشك أن مؤرخنا قد تأثر تأثراً كبيراً بأمه السيدة حميدة محمود رضوان المعايرجي، القاهرية المولد التى توفيت فى ٢١ يولية سنة ١٨٩٣. وكان كثير الحديث عنها والإشارة إليها، وظل يذكر أثرها فى وجدانه حتى وفاته. والسبب أنه أخذ عنها كما يقول الكثير من الصفات، من الإيمان بالله والثقة بالناس ومساعدتهم.[٣] وقد آل إليه من إرث أمه قدر ضئيل من الأفدنة التى ورثتها هى أيضاً عن أبيها، الذى كان يعمل كاتباً بدائرة الحلمية الملكية.

ولقد كان من أهم المؤثرات الاجتماعية فى نهاية القرن التاسع عشر على الوجدان المصرى، التمسك الشديد بالدين وتعاليمه .. يصوره أحمد أمين - الذى يكبر الرافعى بثلاث سنوات - فى أحد كتبه بقوله: "ويغمر البيت الشعور الدينى، فأبى يؤدى الصلوات لأوقاتها، ويكثر من قراءة القرآن صباحاً ومساء، ويصحو مع الفجر ليصلى ويبتهل،

ويكثر من قراءة التفسير والحديث. ويكثر من ذكر الموت ويقلل من قيمة الدنيا وزخرفها. ويحكى حكايات الصالحين وأعمالهم وعبادتهم، ويؤدى الزكاة يؤثر بها أقرباءه، ويحج وتحج أمى معه - ثم هو يربى أولاده تربية دينية، فيوقظهم فى الفجر ليصلوا ويراقبهم فى اوقات الصلوات الأخرى، ويسائلهم متى صلوا وأين صلوا. وأمى كانت تصلى الحين بعد الحين - وكلنا يحتفل برمضان ويصومه - وعلى الجملة فأنت إذا فتحت باب بيتنا شممت رائحة الدين ساطعة زكية". (٤)

وهكذا كان الشيخ عبد اللطيف الرافعى يعطى اهتماما كبيرا لتعليم صغاره، وتربيتهم تربية دينية. فعلمهم قراءة القرآن وأداء الصلاة فى موعدها خاصة فى المساجد التى يرتادها، بالإضافة إلى صيامهم فى سن مبكرة. وقد أثر هذا كله فى إرهاف أحاسيس الطفل الصغير، الذى لا يلبث أن يدخل كتاب الشيخ هلال بشارع درب الحصر بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة بجوار منزل جده لأمه حيث والداه .. وتعلم فيه القراءة والكتابة والحساب. وعندما انتقل مع أبيه إلى الزقازيق فى سن السادسة، دخل مدرستها الابتدائية الأميرية سنة ١٨٩٥ ثم مدرسة القربية الابتدائية بالقاهرة سنة ١٨٩٧. وعندما عمل والده مفتيا للإسكندرية سنة ١٨٩٨ دخل مدرسة رأس التين الابتدائية. ولم تكن الحارة بالنسبة إلى ابن الشيخ مكانا ملائما - لطفلين فى سن عبدالرحمن الرافعى وأخيه أمين - فنراه يلعب مع أخيه أمين

فـى دارهمـا بالإسـكندرية. "وأذكـر أن أحـد أقرانـى بالمدرسـة حيـن علـم بالنبـأ (النجـاح بالشـهادة الابتدائيـة) - وكنـت أجهلـه - سـارع إلـى الحضـور لمـنزل والـدى بالأنفوشـى ليبشـرنى بالنجـاح، فألفـانى فـى حديقـة المـنزل الصغـيرة يجرنـى أخـى أمين فـى قفـص مـن الجريـد، جعلنـا منـه شـبه عربـة صغـيرة نتنـاوب ركوبـها وجرهـا بحبـل".(*) ثـم يلتحـق الرافعـى بالقسـم الثـانوى مـن نفـس المدرسـة، واختـار اللغـة الفرنسـية أساسـاً لدراسـته، إلـى أن حصـل علـى شـهادة البكالوريـا (الثانويـة العامـة) فـى مـايو سـنة ١٩٠٤ .. وكـان ترتيبـه الثـالث مـن بيـن النـاجحين وعددهـم ١٣٦ طالبـاً.

ولكن عبد الرحمن لا يلبث أن تتلاشى فرحتـه بالنجـاح، وأبـوه يريد منه أن يلتحق بالأزهر كما فعل هو قبله. بينما كان هو قد أعد نفسه ليقدم أوراقه فى مدرسة الحقوق. وقد صدم إعلان الابن تمسكه بالحقوق الأب الشيخ، فقد كره لولـده ليس رفضه للتتلمـذ على التعاليم الشرعية فحسب، بل أن ينتمى إلى هـذه المهنـة - المحاماة - التى يكثر بين رجالها الدجل والاحتيال .. والذين كانوا فى ذلك الوقت يعدون سبة فى المجتمع المصرى. وكادت الأزمـة الشديدة أن تعصف بمستقبل عبد الرحمـن إزاء إصرار أبيـه على موقفه، لولا أنه استعان ببعض أقاربه فى الأمر. واقتنع الشيخ بعد لأى .. وكـانت الحجة الوجيهة، إذا كـان حقـاً يريـد لفلـذة كبـده التعليم الدينى، فلماذا أدخلـه أصلاً المـدارس المدنيـة؟! والتحـق عبد الرحمن الرافعى بكلية الحقوق أو مدرسـة الحقـوق الخديويـة بالقاهرة كما كانت تدعى أيامها.

وتشكل الدراسة العالية فى حياة الرافعى مرحلة شديدة الأهمية، إذ كانت بمثابة الخطوة الأولى فى حياته العامة وتفكيره الوطنى، بعد أن مس هذا التفكير مساً رقيقاً فى مدرسته الثانوية أحد مدرسيه الوطنيين.

وكان العامل الثانى الذى ألهب فتانا الهادئ هو كتابات مصطفى كامل الوطنية .. فهفت نفس الرافعى إلى كفاح صاحبها وآرائه، التى كان ينشرها بجريدة "اللواء". ويسجل الرافعى فى مذكراته التقاءه الأول بالزعيم الشاب .. "أما أول مرة قابلت فيها (مصطفى كامل) ففى فبراير سنة ١٩٠٦، أثناء إضراب طلبة الحقوق، فقد تاقت نفسى إلى رؤيته، وكان (اللواء) يناصر الطلبة فى مطالبهم الحقة، فذهبت مع لفيف من زملائى إلى دار اللواء بشارع الدواوين - نوبار باشا الآن - تجاه وزارة العدل وكان اسمها وزارة الحقانية، وقابلت الزعيم لأول مرة، وسمعت حديثه، وشعرت بتأثيره الروحى ينفذ إلى أعماق قلبى، وصار لى بمثابة أبى الروحى فى المبادىء. وأكثرت من التردد على دار اللواء لكى أقابله وأراه وأسمع صوته، فكان يفيض علينا من الأحاديث التى غرست فى نفسى مبادئ الوطنية".[٦]

والعامل الثالث الذى شارك فى تكوين شخصية عبدالرحمن الرافعى، هو دراسته للقوانين الفرنسية التى أثارت ما فيها من تعظيم للحرية وكرامة المواطن، والفارق الكبير بينها وبين ما يجد من دكتاتورية الاحتلال الإنجليزى. ولقد كانت فرنسا إذ ذاك هى قبلة المناضلين فى مصر

والعالم، ولما كانت الديمقراطية الفرنسية قد استهوته، فقد تأثر بها وهو يكتب مقالاته فى "اللواء" و"الشعب" و"العلم"، عن الديمقراطية والتعاون والجمعيات الوطنية .. مستوحياً تجارب الدول ذات العراقة الديمقراطية وعلى رأسها فرنسا. مما انعكس في كتبه الثلاثة الأولى "حقوق الشعب" و"نقابات التعاون الزراعية" و"الجمعيات الوطنية" التى أصدرها فى فجر اشتغاله بالصحافة والكتابة.

إخوته:

يعد عبد الرحمن الرافعى الثالث بين إخوته الأربعة الأشقاء، فأكبرهم أحمد الذى درس بالجامع الأزهر حيث اهتم بالشعر والأدب ومات إبان دراسته سنة ١٩٠٣، ثم أخوه أمين المحامى وأحد نوابغ الصحفيين فى بداية القرن العشرين الذى ولد سنة ١٨٨٦ وتوفى سنة ١٩٢٧، والأخ الأصغر إبراهيم أول خريجى مدرسة المهندسخانة سنة ١٩١٣ الذى توفى بالتيفوئيد سنة ١٩١٥ إبان عمله مهندساً بتفتيش رى الفيوم.

والغريب أن قارئ مذكرات مؤرخنا التى ظهرت سنة ١٩٥٢، لا يجد بها أية إشارة إلى إخوته غير الأشقاء، ويروى المستشار حلمى شاهين أنهم عديدون ويقيمون حالياً فى كفر الدوار .. وكان الرافعى دائم الاتصال بهم حتى وفاته.(٧)

أمين الرافعي:

تشـابكت أيـدى الشـقيقين أميـن وعبـد الرحمـن وتلازمـت أمورهمـا دومـا فـى مسار حياتـهما، حتـى أن مدرسـة الحقـوق جمعـت أيضـا بينـهما .. بـالرغم مـن أن عبـد الرحمـن الأخ الأصغر قـد تخـرج قبلـه فـى يونيـة سـنة ١٩٠٨ ولحـق بـه أميـن فـى صيـف العـام التـالى. وقـد كـانت مبـادئ مصطفـى كـامل سـبيلهما فـى الفكـر والاتجـاه الوطنـى، فـاتصلا بجريـدة "اللـواء" قبـل تخرجـهما حتـى ملكـت الصحافـة عقـل أميـن. ولأول مـرة يقـدم عبـد الرحمـن أخـاه فـى مقدمـة كتـاب صبرى أبوالمجـد عـن أميـن الرافعـى بقولـه: "إن أمينـا لـم يكـن أخـى فحسـب، بـل إن منزلتـه كمجـاهد فـى الحركـة القوميـة تعلـو فـى نفسـى علـى منزلتـه كـأخ أكبر لـى. ولـولا ذلـك لمـا شـعرت نحـوه بـهذا الحـب العميـق الـذى كـان يغمرنـى فـى حياتـه، واسـتمر علـى الأعـوام بعـد وفاتـه .. ولقـد كـان أميـن - رحمـه اللـه - مـن أعـلام صحافـة المبـدأ والعقيـدة .. حمـل رسـالة الوطنيـة فـى عصـر كـانت الظـروف والملابسـات تناهضـها وتخذلـها ولا تبشـر لـها بـأى نجـاح. خـاصم الاحتـلال وهـو فـى أوج جبروتـه وطغيانـه، وخـاصم القصـر حيـن كـان قويـا بتحالفـه مـع الاحتـلال. وخـاصم سياسـة الاستسـلام للاسـتعمار، حيـن كـانت هـذه السياسـة ثابتـة الدعـائم قويـة الأركـان، ينضـوى إليـها الأفـراد والجماعـات ويتـهافت عليـها الأنصـار والأعـوان .. جـاهد أميـن فـى هـذا الجـو الملـىء بالأشـواك والعقبـات،

فاستهدف لكثير من الأذى والعنف والخذلان، ولم يهن ولم يتراجع ولم ينحول عن مبدئه وعقيدته. واستمر ماضيا في سبيله حتى وافاه الأجل المحتوم في الواحد والأربعين من عمره". (٨)

ولما كان عبد الرحمن قد اتجه عقب تخرجه بثلاثة شهور للعمل بجريدة "اللواء" في أكتوبر سنة ١٩٠٨، فقد واجه أمين مشكلة عقب تخرجه سنة ١٩٠٩. كيف يحقق مراده في العمل بالصحافة التي يهواها وملكت عليه فؤاده .. والصحافة الوطنية في هذه الفترة لا مورد لها. وكيف يعمل الشقيقان معا في مجال لا مورد له. فاتجها سويا إلى والدهما الشيخ عبد اللطيف مفتي الإسكندرية، أو كما يروى صبري أبو المجد "فقد احتكم الأخوان الشقيقان إلى والدهما في هذا الخلاف الذي شجر بينهما لأول مرة. وقرر الوالد بعد فترة من الدراسة أن يعمل أحد الشقيقين في المحاماة ليساعد الآخر ماليا. وأن يعمل الآخر في الصحافة ويتقبل مساعدة أخيه. واستقر الرأي على أن تكون المحاماة من نصيب عبد الرحمن. وأن تكون الصحافة من نصيب أمين الذي لم يكن له مرتب في "اللواء" ولا في "الشعب"، حتى بعد أن صار رئيسا للتحرير! بل كان كل الذي يتقاضاه كمحرر اثني عشر جنيها كبدل انتقال". (٩)

والغريب أن عبد الرحمن الرافعي لم يشر إلى هذه الواقعة التي ألمت بمسار حياته، بل أشار في مذكراته إلى واقعة أخرى مفادها أن صديقه أحمد وجدي طلب منه في

أواخـر سـنة ١٩٠٩ أن يشـتركا سـويا فـى افتتـاح مكتـب للمحامـاة بالزقـازيق علـى أن تسـتمر صلتـهما بالكتابـة فـى الصحافـة فوافقـه على ذلـك ".. وقـد تـرددت فـى قبـول هـذه الفكـرة إذ كنـت منصرفـا عنـها، ومـازال يقنعنـى بـها حتـى قبلـت نصيحتـه بعـد أن أمعنـت النظـر فيـها ورأيتـها فـى جملتـها أصـوب مـن انقطـاعى للصحافـة، وأدركـت مـع الزمـن أنـه أسـدى لـى أعظـم نصيحـة". (١٠)

وقـد استمر عبـد الرحمـن فـى مسـاعدة أخيـه حتـى بعـد وفاتـه، وواصلـها فـى رعايـة أولاده بـالرغم مـن زواج أرملـة أميـن مـن أحـد الضبـاط. وتولـى رعايـة ابنـة أخيـه التـى كـانت تـدرس بمـدارس الزقـازيق الداخليـة .. يـروى صديقـه وتلميـذه محمـد إبراهيـم جمعـة مديـر السـكرتارية بمـدارس ليسـيه الحرية بباب اللـوق بالقـاهرة، أن عبـد الرحمـن اسـتمر فـى هـذا السـلوك حتـى سـنة ١٩٥٢ حيـث قـرر بيـع امتيـاز جريـدة "الأخبـار" التـى أنشـأها أميـن إلـى الأخويـن علـى ومصطفـى أميـن .. علـى أن تدفـع دار أخبـار اليـوم مكافـأة شـهرية لأبنـاء أميـن قدرهـا عشـرة جنيـهات مـدى الحيـاة". (١١)

زوجته:

وكـادت اهتمامـات عبـد الرحمـن الوطنيـة تنسـيه حياتـه الشـخصية وزواجـه، وبـالرغم مـن أنـه عـرف الحـب وكـان عذريـا إلا أنـه لـم ينتـه بـه النهايـة السـعيدة! "ولقـد أحببـت حبـا عاطفيـا روحانيـا، ولكنـى أدركـت مـع الأيـام أن الحـب أمـر متعـب لا لـزوم

لـه ولا فـائدة منـه .. فتخلصـت منــه! وكــان للحيــاء دخــل فــى نهايتـه، كمـا لـه أثـره فـى بدايتـه. وتعلمـت مـن هـذه التجربـة أن مـن الخـير للإنسـان أن ينشـد الحـب العـائلى - أى الحـب بيـن الزوجيـن - الحـب الـهادئ المعتـدل المتصـل، فإنــه مــن أركــان السعادة فـى هـذه الحيـاة".(١٢)

ووجـد صاحبنـا أن أنسـب فتـاة يمكـن أن يختارهـا للـزواج، لابـد أن تكـون مـن أحـب النـاس إليـه وهـم أخوالـه (ولعـل هـذا دليـل أخـر علـى حبـه العميـق لأمـه) الذيـن كـانوا هـم أيضـا يبادلونـه حبـا بحـب. وهكـذا يـتزوج فـى ١٢ مـارس سـنة ١٩٢٠ مـن ابنـة خالـه الأنسـة عائشـة محمـد المعـايرجى، فكـانت لـه نعـم الزوجـة ورفيقـة الحيـاة. ومـن الطريـف أن كـان للوطنيـة دخـل أيضـا فـى هـذا الاختيـار. يشـير الرافعـى إلـى اختيـار زوجتـه بقولـه: "وكـان حبـى لأمـى - وقـد توفيـت وأنـا صغـير السـن وعشـت بعدهـا يتيمـا مـن الأم (ومعـذرة للغوييـن عـن هـذا التعبـير) - قـد مـال بـى مبدئيـا إلـى أقـرب البيئـات إليـها. فلمـا شـبت ثـورة ١٩١٩، كنـت فـى زيـارتى لعـائلات خؤولتـى ألاحـظ علـى "عائشـة" تطـورا عجيبـا فـى نفسـيتها وتفكيرهـا واحساسـاتها. كـانت ثـائرة، واشـتركت فـى مظـاهرة السـيدات والأنسـات (١٦ مـارس سـنة ١٩١٩)، وكـانت تتدفـق فـى أحاديثـها عـن الحالـة السياسـية، وعـن تطـور الأمـة وأعجبنـى منـها ذكاؤهـا، وجاذبيتـها، وإخلاصـها، وروحـها الوطنيـة. فعقـدت النيـة علـى الـزواج بـها. ولـم أفاتحـها فـى الأمـر، لأن ذلـك لـم يكـن مألوفـا فـى هـذا العصـر، وخاصـة فـى البيئـات المحافظـة، ولأنـى كنـت واثقـا مـن رضاهـا بـأن تكـون زوجتـى".(١٣)

ويقول مؤرخنا أيضا في جانب اخر من مذكراته: "وعندما مرضت بالتيفوئيد سنة ١٩٢٣ ولزمت الفراش نحو شهرين، واشتد بي الخطر .. كان الأطباء الذين يعالجونني يقرءون على ملامح وجهها درجة حرارتي. قبل أن يقيسوها بميزانهم، ويقولون أن وجهها هو الترمومتر الصادق لحالتي الصحية"! (ص٣٨).

كانت نعم الزوجة .. ظل زوجها دائما يتحدث عنها بتقدير وإعجاب وحب .. "وهي تطالع كتبي بإمعان، وتقرأ كل ما أقول وأكتب. وتبدي لي أحيانا ملاحظاتٍ سديدة، وتستمع إلى كل أحاديثي بالراديو، وتعجب بها، ومرة أو مرتين قالت لي: "حديثك هذه المرة ضعيف"، فقلت مبتسما: "كيف ذلك والناس قالوا لي غير هذا؟". فقالت: "لعلهم يجاملونك، ولكن الحديث ضعيف"، وذكرت الأسباب. .. فاغتبطت كثيرا لملاحظاتها. وحمدت الله على أنها تراقبني إلى هذا الحد".

وقد اشتد مرض السيدة عائشة محمد المعايرجي، وقرر الأطباء إدخالها معهد السرطان بالقاهرة في ١١ يناير سن ١٩٧٦، وبمجرد علم رئيس الجمهورية بما نشره على أمين عن مرضها،[١٤] قرر علاجها على نفقة الدولة. ولكن لم يستمر مرضها طويلا وتوفيت في ١٥ يناير سنة ١٩٧٦. وتكفلت رئاسة الجمهورية بكافة مصاريف الجنازة والعزاء لمدة ثلاثة أيام تكريما لعبد الرحمن الرافعي في صورة زوجته.[١٥]

أولاده:

أنجب عبد الرحمن الرافعى أربع بنات سعاد، ثناء، إكرام، وجدان وولدا، وقد توفى الأخير فى سن الثانية عشرة. ومذكرات مؤرخنا المنشورة تخلو من الحديث عن ذريته. وليست هناك إلا إشارة واحدة فى كتاباته عمن أنجب. وهى خاصة بفلذة الكبد الذى مات فى ٩ مايو سنة ١٩٣٥. إذ يهدى الرافعى كتابه "الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى" - الطبعة الأولى ١٩٣٧ - "إلى رمز البنوة، وموضع حنان الأمومة والأبوة، وحيد والديه، ومعقد أملهما فى الحياة، من يرقد الآن تحت الثرى، بعيدا بعيدا عن أعيننا، نائيا نائيا بجسمه وشخصه، قريبا قريبا بروحه وذكراه، إلى ولدى المرحوم محمد أمين الرافعى، أهدى هذا الكتاب". (ص١١)

أما بناته الأربع، فقد تزوجت الأولى المرحوم المهندس محمود صالح الرافعى، وقدمت ابنها شهيدا فى فبراير ١٩٧٨ فى عملية الصاعقة المصرية بقبرص .. لإنقاذ المحتجزين المصريين بعد اغتيال يوسف السباعى برصاص الفلسطينيين، إبان رئاسته للمؤتمر الأسيوى الأفريقى. وتزوجت الثانية من إسماعيل بيبرس وتقيم بالمنصورة، وقدمت فى اليوم الأول لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ واحدا من شهدائنا هو ابنها الطيار جميل. وتزوجت الثالثة المستشار حلمى السباعى شاهين نائب رئيس قضايا الحكومة بالقاهرة السابق، والرابعة تزوجت المستشار فتحى السبكى نائب رئيس محكمة استئناف القاهرة.

الرابطة الرافعية:

كان عبد الرحمن الرافعي إنسانا صدوقا عزوفا عن الكذب، بعيدا عما يغضب الله .. عطوفا على كل عائلته وأسرته وإخوته الأشقاء وغير الأشقاء. يقدم المساعدات لمستحقيها دوما في السر، لا يعلمها أقرب الناس إليه، فيما خلف من مستندات بعد وفاته. ومما قدم إلى أقاربه من آل الرافعي أن كون لهم تجمعا في ٢٤ أبريل سنة ١٩٣٦ عرف باسم "الرابطة الرافعية"، يضم جمعهم وشملهم وتولى رئاستها. ومن أهم أهدافها مساعدة الأعضاء في كافة المجالات .. فكانوا يتجمعون دوريا في منزل كل عضو. وكان المؤرخ الكبير يدون ما يدور في هذه الجلسات من مناقشات وقرارات في سجل خاص. وكانت المشاكل والخلافات التي تعرض .. تحل طبقا للشريعة الإسلامية دون الحاجة للالتجاء للقضاء، إلا إذا تأزمت وعند ذلك يقوم بإعداد المذكرات القانونية الخاصة بها ويقدمها للقضاء. ومن السنن الحميدة التي اتخذتها الرابطة اجتماع الأعضاء في مكان واحد في الأعياد والمناسبات الإسلامية.

في المنصورة:

إلى أبعد مدى تضرب المنصورة جذورها في الوطنية والمقاومة والنضال .. ضد المستبد الخارجي والداخلي - ربما قبل أبريل سنة ١٢٤٩، عندما أسرت لويس التاسع ملك فرنسا وقد جاء على رأس حملة صليبية تريد أن تستعمر

مصر - سواء أكان حاكماً أجنبياً أم مصرياً. وبالطبع قبل الحملة الفرنسية على مصر ومجيء نابليون بونابرت عام ١٧٩٨. ولا غرابة أن تناضل أيضاً ضد حكم السلطان حسين أو فؤاد أو غيرهما. وهذا هو المناخ الذى وجده هذا الشاب القاهرى الوطنى الذى وفد على مدينة المنصورة سنة ١٩١٠، للترافع فى محاكمها عن قضايا موكليه الذين وكلوه فيها، بعد اتفاقهم معه بمكتبه بالزقازيق .. ويروق له الإقامة بها. ولكن المحامى عبد الرحمن الرافعى الذى يبلغ السابعة والعشرين من عمره لا يستقر بها نهائيا إلا بعد قرابة أربع سنوات.

ولقد بقى الرافعى فى المنصورة حتى سنة ١٩٣٢، كان فى أثنائها أحد المحاور الهامة للنشاط الوطنى والسياسى والاجتماعى والثقافى. فيقدم ثمن مبيعات كتابه الأول "حقوق الشعب"، مساهمة منه فى تطوير التعليم. يطالع القارئ فى جريدة "العلم" فى صفحتها السادسة الإعلان التالى: "يوجد كتاب حقوق الشعب لمؤلفه حضرة عبد الرحمن الرافعى المحامى فى المنصورة طرف الحسينى أفندى العسقلانى وقد خصص ما يجمع من ثمنه لمساعدة مشروع إصلاح التعليم وكل نسخة غير مختومة تعد مسروقة". (١٦)

وينضم الرافعى لعضوية "نادى خلان الوفاء بالمنصورة" المؤسس سنة ١٩٠٦، والذى كان يضم نخبة كبيرة من المثقفين. ويشارك فى أنشطته ويحاضر فى ندواته واجتماعاته ومناقشاته السياسية والثقافية، ويهدى إلى مكتبة النادى بعض كتبه.

ويكون الرافعي في المنصورة عندما يعود الزعيم محمد فريد من إحدى رحلاته إلى الخارج التي كان يقضيها في أوروبا داعياً للقضية المصرية، فيذهب المحامي الشاب إلى طنطا ليكون ضمن مستقبليه في ديسمبر سنة ١٩١٠ .. "فحياني أحسن تحية، وهنأته بجهاده المجيد، وابتهجت لرؤيته بعد طول غيابه، وسررت لما رأيته متمتعاً بموفور الصحة وكامل النشاط".[١٧]

ومنذ جهاد مصطفى كامل الوطني، قامت العلاقات الوثيقة بينه وبين السلطان العثماني بوصف الأخير خليفة للمسلمين الذين يجب أن يلتفوا حوله، خاصة في النضال ضد المستعمر الإنجليزي. وكان السلطان يطمع بذلك أن يثير القلاقل في مصر، كراهية في رجال الاحتلال لمصلحته هو، لعل سيادته المفقودة على مصر تعود إليه ثانية ويخضعها لسلطانه. ولهذا عملت الدولة العثمانية على أن تؤلف قلوب كبار المصريين ومن ضمنهم رجال الحزب الوطني بالإنعام عليهم بالرتب والنياشين. وهكذا أنعم السلطان العثماني سنة ١٩١٤ على الأخوين اللذين يؤمنان في ذلك الحين بضرورة قيام صلة عضوية بين الأستانة والقاهرة ويكتبان في ذلك، فمنح كل من عبد الرحمن الرافعي وأخيه سنة ١٩١٤ رتبة البكوية. ويبعث الرافعي برسالة من المنصورة بتاريخ ٤ مايو إلى زعيمه بالمنفى ينبئه بهذا الإنعام.[١٨] ومن الغريب أن الرافعي لم يشر إطلاقاً في مؤلفاته ومذكراته الى هذا الأمر .. فهل فعله عمداً أم

سهوا، أم هو يريد أن يتنصل من هذا الموقف القديم؟ يقدم المستشار حلمى شاهين تفسيرا لذلك بقوله: كثيرا ما حدثنى أستاذى الرافعى أن لا أحد فى مصر صاحب الفضل فى الإنعام عليه بالبكوية لأنها جاءت من استانبول لا من القاهرة!

وفى المنصورة يلتقى عبد الرحمن الرافعى بصديق الشباب والدراسة فى مدرسة الحقوق الخديوية .. ابن الدقهلية الدكتور محمد حسين هيكل بعد أن عاد من باريس فى النصف الثانى من سنة ١٩١٢، حاملا درجة الدكتوراه فى القانون. وكان هيكل قد فضل فى نهاية نفس العام أن يفتتح مكتبا للمحاماة بالمنصورة، فجمعتهما الأيام مرة أخرى فى زمالة جديدة. وفى صيف ١٩١٤ يتفق الصديقان على تمضية شهر فى لبنان خلال فترة عطلة المحاكم. يحكى الدكتور هيكل فى مذكراته سطورا من هذه الرحلة قائلا: "..
وأخذنا أهبتنا وتذاكر سفرنا على باخرة تقلنا من بورسعيد بعد الظهر يوم أول أغسطس سنة ١٩١٤، وذهبنا نستقل القطار الذى يغادر المنصورة الساعة التاسعة صباحا إلى ميناء سفرنا. وتناولنا الصحف ساعة ركوبنا القطار، فإذا بها تذيع النبأ الخطير أن ألمانيا أعلنت الحرب على فرنسا. وأخذنا أماكننا فى القطار، فقال الرافعى .. لا يدرى أحد ما يمكن أن تتطور إليه الحال بعد إعلان الحرب بين فرنسا وألمانيا. فقد تدخل تركيا الحرب، وقد تدخلها إنجلترا، ألا تفضل أن نقضى أيام راحتنا فى بورسعيد، حتى لا نفاجأ فى

لبنان بما قد يحول بيننا وبين العودة إلى بلادنا؟ فقلت مبتسما، دع الأمر لله! ولنذهب إلى حيث قررنا. وعلام نخاف ولم نخشى. إننا نستطيع عند الضرورة أن نعود إلى مصر على ظهر جمل. ولما كان عبد الرحمن مؤمنا حسن الإيمان، فقد رأى أن يدع الأمر لله، وأن نذهب إلى لبنان. ولعله قدر كذلك أن له أقارب بالشام تهفو نفسه إلى رؤيتهم". (١٩)

ويعود الرافعى من لبنان بعد أن قضى فى ربوعه قرابة الشهر، فيجد الأمور الداخلية للبلاد تعتصرها أحداث الحرب الأولى، فعلى أثر دخول الدولة العثمانية الحرب مع ألمانيا ضد الحلفاء فى ديسمبر سنة ١٩١٤، تجد سلطات الاحتلال أنها الفرصة المواتية لقطع الشعرة الواهية التى كانت تربط مصر بتركيا، فتعلن الحماية البريطانية على مصر. وتخلع الخديو عباس حلمى الثانى وتنصب بدلا منه السلطان حسين كامل. ولما كانت سلطات الاحتلال قد استطاعت من قبل أن تقضى على الآراء الحرة بالاضطهاد والتهديد، ولم تعد تخشى أن تفلت الأمور من يدها - كما حدث عندما تحرك الوطنيون ضدها من أجل تركيا وحليفتها ألمانيا - فما أن تخلصت هذه السلطات من خطر الحملة التركية على قناة السويس سنة ١٩١٥ التى كانت تهدف احتلال مصر. بدأت الروح الوطنية فى الانحسار، حتى اتجهت إلى اعتقال الوطنيين ومن بينهم الرافعى. وأفرج عنه فى يونية سنة ١٩١٦.

وتنتهى الحرب الأولى سنة ١٩١٨ بانتصار الحلفاء، ويلتقى الزعماء المصريون سعد زغلول باشا، عبد العزيز فهمى بك، على شعراوى باشا فى ١٩١٨/١١/١٨. بالمندوب السامى البريطانى بالقاهرة .. للمطالبة بتنفيذ وعود الجلاء، بعد أن ضحت البلاد فى خدمة قوات الحلفاء التى تمثلت فى استغلال كل اقتصاديات البلاد والعمالة المصرية والقوات على طول الجبهة المصرية. ويرفض المندوب السامى البريطانى المطلب الشعبى، فتتأجج الصدور المصرية بالغضب إلى درجة الغليان. وتزيد سلطات الاحتلال النار اشتعالا بالقبض على الزعماء المصريين .. وتقوم الثورة فى كل أرجاء البلاد، لا تفرق بين مدنها أو قراها. ويستخدم الإنجليز الرصاص فى تفريق المظاهرات وإرهاب الوطنيين، فيسقط القتلى. ومع ارتفاع نسبة الشهداء على مر الأيام، تتضاعف حركة تدمير المواصلات والاعتداء على جنود الاحتلال.

وفى هذا الجو المشتعل يشارك عبد الرحمن الرافعى بجهد كبير لا يقتصر على المنصورة وحدها بل يتجاوزها فى القاهرة أيضا. والنضال المباشر ضد المستعمر لم يكن وحده هو المقياس الوطنى عند الرافعى، فهناك أيضا العمل فى المجالات الاقتصادية والتعاونية والاجتماعية والفكرية. وأهم من هذا كله يسطر الرافعى وهو فى المنصورة صفحات فدائية مضيئة أثناء ثورة مارس سنة ١٩١٩، تقدمها وطنياته فى هذا الكتاب.

وفـى هـذا المجـال أيضـا يذكـر موقفـه مـن تعضيـد إنشـاء بنـك مصـر. لقـد كـان الـهدف مـن تأسـيس هـذا البنـك هـو أن يكـون أحـد الدعـائم الاقتصاديـة الهامـة فـى صـرح البـلاد لمجابهـة البنـوك الأجنبيـة المسـيطرة علـى الاقتصـاد الوطنـى، وكـان البنـك فـى بدايـة نشـأته فـى حاجـة ماسـة إلـى تعضيـد ومسـاهمة المواطنيـن فـى الاكتتـاب لأسـهمه. ورأى الرافعـى أن دعـوة البنـك ليسـت قـاصرة علـى رجالـه وحدهـم، بـل هـى عمـل الوطنيين فـى كـل مكـان فـى مصـر. ولذلـك فقـد بـادر هـو فـى نهايـة سـنة ١٩٢١ إلـى تأسـيس لجنـة لتوزيـع أسـهم البنـك فـى المنصـورة أسـماها (لجنـة الدقهليـة للاكتتـاب فـى أسـهم بنـك مصـر) ومـن أجلـها جـاب الرافعـى أرجـاء (المديريـة) المحافظـة سـعيا وراء التـأييد الشـعبى للفكـرة، ومـن الطريـف أنـه كـان يدفـع الأغنيـاء إلـى أن ينـافس بعضـهم بعضـا فـى الاكتتـاب علـى أكـبر قـدر مـن الأسـهم. وفـى ذات الوقـت كتـب المحـامى الشـاب عـدة مقـالات فـى جريـدة "الأخبـار"، تحـدث فيـها عـن ضـرورة إنجـاح دعـوة بنـك مصـر فالاكتتـاب بسـهم فيـه تعنـى .. رصاصـة موجهـة إلـى صدر الاحتـلال".[٢٠]

وفـى ١٥ نوفمـبر سـنة ١٩١٩ يبلغـه وفـاة محمـد فريـد فـى ألمانيـا، فيتـأثر الرافعـى لوفـاة معلمـه وإمامـه فـى الوطنيـة. ويرثيـه بحـرارة فـى جريـدة "مصـر" ".. ألا فـى ذمـة اللـه مـن تلقيـت عنـه مبـادئ الوطنيـة الأولـى، مـن كنـت أراه فـى السـراء والضـراء، فـى السـفر والحضـر، تحـت سـماء الوطـن أو فـى المنفـى، رافعـا لـواء الوطنيـة، حـاملا فـى يمينـه مصبـاح الأمـل،

يسير به فى كل واد وتحت كل سماء، ينظر به إلى الدنيا، فتصغر فى عينه المصائب، وتتضاءل المتاعب. فى ذمة الله من كان يغالب الدهر ويحتمل الشدائد والمصائب، وقلبه مملوء قوة ويقينا، فى ذمة الله من جعل حياته كتابا مقدسا تقرأ فيه الأمة آيات الجهاد فى سبيل الوطن".[٢١]

فى الحزب الوطنى:

أعلن مصطفى كامل عن تشكيل الحزب الوطنى فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، فى الوقت الذى كان فيه على قمة الزعامة الوطنية التى قادها منذ سنة ١٨٩٢. ويرجع الدكتور يونان لبيب تأخر تفكير الزعيم الشاب فى تكوين الحزب طول مدة زعامته، إلى رغبته فى استمرار الدفع الثورى ضد الاحتلال البريطانى فى البلاد. ولاقتناعه بأن الوجود الحزبى يمكن أن يفتت بشكل ما الوحدة الوطنية فى ذلك الوقت المتقدم بالذات.[٢٢]

وقد كانت وفاة الزعيم قبل أقل من عام من تشكيل الحزب، مدعاة لراحة سلطات الاحتلال.[٢٣] إلا أن خليفته محمد فريد لم يسمح لهم بذلك، وسار على الدرب. واهتم إلى جانب النشاط السياسى بالجانب الاقتصادى والاجتماعى والتعاونى، كما قاد حملة شديدة العنف للمطالبة بالدستور. وساح فى أوروبا من أجل مصر، وقد قابلته السلطة بالاضطهاد والسجن، حتى اضطر فى النهاية إلى الخروج من البلاد.

وقد شارك عبد الرحمن الرافعى مشاركة فعالة فى أعمال الحزب منذ إنشائه. كما انتخب عضوا باللجنة الإدارية فى ٢٠ يناير سنة ١٩١١، حتى أصبح من أبرز أعضائه إبان رئاسة محمد فريد. وشغل منصب سكرتير الحزب فى الفترة من ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٤٦. وبالرغم من أن الرافعى، لم يعد صاحب مسئولية فى الحزب، إلا أنه استمر حتى إلغاء الأحزاب، هو المهيمن الأول على أعمال الحزب الوطنى.

واغتراب فريد ورفاقه كان سبيلا لزيادة نشاط الحزب الوطنى خارج البلاد عنه فى داخلها، فكان هناك فريق من بينهم فريد يتعاون مع الخديو السابق عباس حلمى الثانى فى منفاه، واتجه فريق آخر إلى الداخل للعمل السرى، وكان عبد الرحمن الرافعى واحدا من أعضاء الفريق الثانى الكبار.

وعقب انتهاء الحرب الأولى، وتغيير الموازين الدولية باعتراف مؤتمر باريس بالاحتلال البريطانى لمصر، ارتفع رصيد شعبية سعد زغلول وحزب الوفد وضاعت شعبية ما عداه من الأحزاب. وعندما عادت بقية قيادات الحزب الوطنى من الخارج بعد وفاة فريد فى ١٥ سنة ١٩١٩، لم تهتم بالواقع السياسى بالبلاد .. وما أصابه من تغييرات جذرية. بل تعلقت بماضيها الذى لم يعد له وجود. وبدأت صراعها مع الجناح الثانى بالحزب الذى يضم مجموعة جديدة. وانتهى الأمر بإبعاد القيادات القديمة وانتخاب حافظ رمضان رئيسا للحزب فى ٩ مايو سنة ١٩٢٣، بعد أن خلا المنصب منذ هجرة فريد.[٢٤]

وابتدأت الرئاسة الجديدة بالتعاون مع حزب الوفد والسراى، وكانت النتيجة الطبيعية للتعاون المشترك أن اختير رئيس الحزب الوطنى وزيرا سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤٠. وتقوقع الحزب وأصبح من أحزاب الأقلية، ولم يعد له وجود فى الواقع فى حياة مصر السياسية. وأصبح نشاطه لا يعدو نشر وإذاعة البيانات وزيارة أضرحة زعمائه فى ذكراهم!

ويسعى فى الثلاثينيات بعض أعضائه لتجديد شبابه، فيفتح أبواب ناديه الذى كان يقع فى شارع القصر العينى بالقاهرة - إدارات مجلس الشعب حاليا - لتنظيم شبابى، يدربه تدريبات عسكرية. وأطلق على تشكيله اسم "شباب البزق"، نسبة لطائر بهذا الاسم من فصيلة الصقور، ويرتدى أصحاب التشكيل القمصان الزرقاء، ولا يستمر التشكيل طويلا حيث يقضى عليه حزب الوفد".(٢٥)

وفى أواخر الحرب العالمية الثانية ينضم للحزب الوطنى، مجموعة من الشبان كانوا من أعضاء حزب مصر الفتاة، واختلفوا مع قادته. مثل الدكتور نور الدين طراف، ومصطفى المنزلاوى المحامى، والدكتور محمد زهير جرانه المحامى وعلى رأسهم فتحى رضوان المحامى، ويعملون على بعث روح جديدة فى الحزب العريق، وعلى أن يكون له نشاطه فى الأقاليم ولا يقتصر على القاهرة. ويقول فتحى رضوان عن هذه الفترة: "كنا مستمرين فى السفر إلى الأقاليم وإقامة الحفلات وإحياء المناسبات الوطنية، والبحث عن مكان للنادى بالقاهرة، وطبع مطبوعاته وإنشاء لجانه.

وهكذا حتى اجتمع شمل الجميع فى نادى الحزب فى المنيل برئاسة حافظ رمضان. ولأول مرة منذ سنين طويلة، يجلس زعيم الحزب الوطنى وإلى جانبه عبد الرحمن الرافعى وعبدالعزيز الصوفانى ومحمد زكى على ومصطفى الشوربجي وإسماعيل العسيلى، وهؤلاء لم يجتمعوا ولم يضع أحدهم يده فى يد الآخر سنين طويلة دون سبب مفهوم. وهكذا بدأت الحركة تدب فى الحزب، وبدأنا نسبق الأحزاب الأخرى فى النشاط، فمثلا عندما زار القاهرة وفد الخريجين السودانى برئاسة إسماعيل الأزهرى - مارس وأبريل سنة ١٩٤٦ - كنا أسبق الهيئات التى استضافته والاحتفال به فى النادى، ثم قلدتنا الأحزاب الأخرى. وقد حدث أن جاء حزب الوفد بعد ذلك وطلب استضافة الوفد قبل احتفالنا به، فرفض الأزهرى أن يلبى أية دعوة إلا بعد أن يذهب إلينا. وقال أن هذا هو الترتيب الطبيعى والتاريخي. وهكذا تكرر اللقاء مع القادة العرب. ولما حضر للقاهرة فوزى القاوقجى قائد فرق الفدائيين المقاتلة بفلسطين، أسرعنا فى الاحتفال به ودعوة الصحفيين لسماعه وتقديمه إليهم عندما جاء للنادى. ثم أصدرت جريدة "اللواء الجديد" ورأست تحريرها منذ سنة ١٩٤٤ إلى أن توقفت سنة ١٩٤٦، وعاودت الصدور سنة ١٩٤٩ وكتب فيها رجال الحزب وخاصة عبد الرحمن الرافعى".[٢٦]

ولم يسلم الحزب الوطنى من آفة الصراعات والخلافات التى ظهرت فى الأحزاب الأخرى فى ذلك الوقت. وبالرغم من

قلة أعضائه فقد طغت الخلافات وتعددت، خاصة منذ اختيار حافظ رمضان رئيس الحزب فى وزارة محمد محمود سنة ١٩٣٧. وعن ذلك يقول الرافعى: "إن الخلافات بدأت بصورة ضيقة فى الاشتراك الأول ولكنها استحكمت بين الأعضاء فى الاشتراك الثانى وبفضل الوسطاء أمكن إعادة الوحدة إلى الصفوف فى نوفمبر سنة ١٩٤٦، وقد حدث خلاف جديد سنة ١٩٥٠".[٢٧]

ويشير صبرى أبو المجد إلى خلاف سنة ١٩٤٠ وموقع الرافعى منه قائلا: "وكان الأستاذ عبد الرحمن الرافعى قد نشر بوصفه سكرتيرا للحزب الوطنى، فى الصحف بيانا حول موقف الحزب من اشتراك رئيسه محمد حافظ رمضان باشا، وقد نشر البيان فى ٣ يوليو ١٩٤٠. وقد جاء فى هذا البيان: بادر الحزب الوطنى إلى تحديد موقفه من الأزمة السياسية التى لابست استقالة وزارة على ماهر باشا، فاجتمعت لجنته الإدارية بمكتب الأستاذ عبد المقصود متولى المحامى مساء يوم الاثنين ٢٤ يونية ١٩٤٠، وحضر اجتماعها سعادة الأستاذ حافظ رمضان باشا. وقررت عدم اشتراك الحزب الوطنى فى الوزارة الجديدة وتعهد سعادة حافظ رمضان باشا، أمام اللجنة أن ينزل على رأيها ويحترم قرارها. ولكن لم يمض على هذا العهد ثلاثة أيام، حتى خرج عليه الأستاذ حافظ رمضان باشا باشتراكه فى الوزارة. لذلك اجتمعت اللجنة الإدارية يوم السبت ٢٩ يونيو بمكتب الأستاذ عبد المقصود متولى للنظر فى الأمر، فرأت أن

اشتراك معالى حافظ باشا فى الوزارة فى الملابسات المتقدمة هو خروج على قرار اللجنة وعلى العهد الذى قطعه على نفسه وعلى مبادئ الحزب مما يستدعى اعتباره متخليا عن رئاسة الحزب وعن عضويته. فلهذه الأسباب قررت اللجنة الإدارية للحزب الوطنى اعتبار معالى محمد حافظ رمضان باشا متخليا عن رئاسة الحزب وعن عضويته.
ورد الأستاذ محمد حافظ رمضان باشا على البيان ببيان ..
ولم يقف الانشقاق الجديد فى الحزب الوطنى عند قيادات الحزب الوطنى، وإنما امتد إلى الكوادر فقد اجتمع مثلا رؤساء اللجان الفرعية للحزب الوطنى فى العباسية، والدرب الأحمر، والخليفة والسيدة، ومصر القديمة، والجيزة وإمبابة بدعوة من حضرة عباس أفندى الزير. وبعد أن وقف الحاضرون بالجلسة حدادا على المرحوم الدكتور عبدالحميد سعيد، أصدروا قرارات جاء فيها تهنئة معالى حافظ رمضان باشا بإسناد منصب الوزارة إليه وتجديد الثقة به، ومطالبته بأن يعمل على عدم جر البلاد إلى حرب لا مصلحة لها فيها، واعتبار القرار الذى أذاعه سكرتير الحزب الوطنى غير معبر عن آراء غالبية حضرات أعضاء اللجنة الإدارية والجمعية العمومية للحزب، إذ أن حضراتهم يؤيدون رئيس الحزب فى سياسته الرشيدة. وكذلك طالب المجتمعون حافظ رمضان باشا بدعوة اللجنة الإدارية للحزب إلى الاجتماع للنظر فى قرار سكرتير الحزب، وأن يعقد الجمعية العمومية لتنتخب أعضاء هذه اللجنة، وعقدت

اجتماعات أخرى لتأييد القرار الخاص باعتبار حافظ رمضان باشا متخليا عن رئاسة الحزب الوطنى، وتوالت البيانات من حافظ رمضان باشا، ومن عبد الرحمن الرافعى بك .."[٢٨]

وخلاف كبير آخر يقع سنة ١٩٥٠، وبالرغم من أن الرافعى شارك فيه أيضا مشاركة فعالة، إلا أنه لم يشر إليه فى مذكراته! ونعتمد على فتحى رضوان لاستكمال هذه الفجوة وهو يقول: "ما كدنا نبدأ فى العمل مع رئيس الحزب حافظ رمضان، حتى خرج من الشقوق جميع رجال الحزب الوطنى الذين هجروه وقطعوا صلتهم برئيسه سنين طويلة. وخيل إليهم أن الحزب سيتولى أمور البلد وأن الفرصة ستفلت من أيديهم فيما لو لم يسرعوا الوقوف بجانب حافظ رمضان. وقرروا الوقيعة بيننا، ولاشك أنها كانت مفاجأة مفجعة لنا فى هذا النفر الذى كنا نعده من الوطنيين، ويسرهم أن تنبعث الحركة والحياة فى الحزب. وكان يجب عليهم بحكم إخلاصهم ووطنيتهم، أن يدركوا أنهم عجزوا عن أن يواصلوا الجهاد لسبب أو لآخر، فإذا عمل على بعث الحزب عدد من أبنائهم فهم أول من يرحب ويباركون هذه الخطوة.

ويستطرد رضوان: ولم نحتمل كل هذه الأمور. وفى النهاية قررنا أن نعمل وحدنا وأطلقنا على أنفسنا (اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى). ونشرنا بيانا بالصحف فى ٢٨ يناير سنة ١٩٥٠ كشفنا فيه الأخطاء المستعصية بالحزب الوطنى، ووعدنا أن نتحمل العبء للبلوغ بالحزب إلى الكمال. وكان رد القدامى الخطير سريعا، هو طردنا! فنشر

صباح اليوم التالى بالصحف .. إن اللجنة الإدارية العليا للحزب اجتمعت وقررت فصل موقعى بيان الأمس وهم فتحى رضوان ونور الدين طراف ومصطفى المنزلاوى وزهير جرانه من عضوية الحزب الوطنى. والحقيقة أن الذى اجتمع وقرر ونشر هو وحده الرافعى!".

ويشير محمد جمعة إلى انشقاق شباب الحزب بقوله: "فتحى رضوان وزملاؤه، جماعة من الشباب الوطنى لم يعجبهم منطق الكبار فى أن يسيروا رويدا رويدا لصالح مصر، بل يريدون الدفعة القوية. والتمسوا هذا لدى بعض الكبار مثل حافظ رمضان وعبد العزيز الصوفانى، أما الذين استنكروا هذا الأمر فهم الرافعى وعبد المقصود متولى وفكرى أباظة والعقلاء بالحزب. لأنهم أرادوا أن يحتفظوا بصورته منذ مصطفى كامل. وقال الرافعى فى هذا المجال بمنطقه الهادئ ما يصحش يجىء أولادنا ويأخذوا اليافطة ويمشوا".

ويصدر قانون تنظيم الأحزاب السياسية فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢، ويقضى أن تغربل الأحزاب القديمة نفسها وتقدم إخطارات جديدة لإشهارها، وكذلك لمن يرغب فى تشكيل أحزاب جديدة. وقدمت الأحزاب إخطاراتها التى بلغت ستة عشر إخطارا، ومن بين هذه الإخطارات حزب جديد أطلق على نفسه "الحزب الوطنى الجديد" برئاسة فتحى رضوان وزير الإرشاد القومى فى ذلك الوقت.

وأثار إخطار رضوان ثائرة الرافعي ورفاقه، وأقام عبدالرحمن الرافعي دعوى قضائية لإلغاء الحزب الجديد. ويذكر الرافعي عن هذا الحادث .. "وفي نوفمبر سنة ١٩٥٢ طلب الحزب الوطني إلغاء الحزب المسمى بالحزب الوطني الجديد الذي ألفه فتحي رضوان. واختصم الحزب الوطني في هذه القضية سليمان حافظ وفتحي رضوان، وسميت هذه القضية (الإغارة على الحزب الوطني)، وقد ترافعت فيها مع المرحوم محمد زكي على أمام القضاء الإداري بجلسة ١٣ ديسمبر سنة ١٩٥٢، وقلت إن تأليف الحزب الوطني الجديد هو محاولة الاستيلاء على الحزب الوطني، لا على اسمه فقط. وقد أيدنا مفوض مجلس الدولة في وجهة نظرنا، وقال في مذكرته إن على المحكمة أن تمنع الغاصب من استعمال اللفظ البارز في الاسم، وقد تأجلت القضية من جلسة إلى جلسة إلى أن أجلت للحكم لجلسة ٢٦ يناير سنة ١٩٥٣، وانتهت الخصومة في القضية بجلسة ١٦ فبراير سنة ١٩٥٣، لصدور قانون حل الأحزاب السياسية في ١٧ يناير سنة ١٩٥٣".[٢٩]

أما الطرف الآخر الذي دافع عنه مصطفى المنزلاوي المحامي، وأحد رجال الحزب الوطني الجديد، فيقول: "في سنة ١٩٥٢ رأينا أن تحول اللجنة العليا لشباب الحزب الوطني التي سبق أن ألفناها سنة ١٩٥٠، من فتحي رضوان ونور الدين طراف وأحمد شوقي ومحمود الحناوي وأحمد مرزوق وبرهان سعيد ومحمد إبراهيم كامل - وزير

الخارجية سنة ١٩٧٨ - وأنا وغيرنا، إلى الحزب الوطني الجديد، وقدمنا أوراقنا على هذا الأساس. وعبد الرحمن الرافعي قدم أوراق الحزب الوطني على أساس أنه هو الحزب الوطني الأصلي.

وفوجئنا بعريضة مقدمة من عبد الرحمن الرافعي عضو اللجنة الإدارية بالحزب، وأشار في دعواه أن هذا الاسم لا يجوز للغير استخدامه أو الإضافة إليه .. لأن بقاءه يكون له أثر بلبلة في الأذهان. والناس ستتحير بين حزب وطني قديم وحزب وطني جديد، وأنه كان من الأولى أن يحدث كما يجري في حزب العمال في إنجلترا عندما اختلف أعضاؤه وظهر تيار جديد، فقالوا الجناح الأيسر وبقي كأحد أجنحته. ولكن حجة الرافعي في هذا الجانب غير سليمة، لأن الجناح الأيسر في حزب العمال لم يفصل من الحزب وإنما فصلنا، فكيف نقول الجناح الأيسر أو الجناح الجديد في الحزب الوطني. وأنا أذكر هذه المرافعة التي رددت فيها على المدعي حتى تعجب محمد زكي علي رحمه الله - زميل الرافعي في المرافعة - لأنه كان مفروضا أنني أترافع عن فتحي رضوان وزير الإرشاد القومي إبان حكومة الثورة حين قلت في مرافعتي: ألم يكفكم أن تقوم الحكومة بوضع القيود على الأحزاب فتطلبوا منها المزيد وتقولون للحكومة تدخلي وامنعي اسما معينا وحزبا معينا .. ألم يكفنا القيود الموضوعة في هذا القانون. إن الأحزاب يجب أن تكون حرة طليقة ولا تعارض بين حزبينا، نحن نمثل مرحلة من مراحل

نضال الحزب الوطنى وأنتم تمثلون مرحلة أخرى. وجهدكم غير منكور ويكفى ما قمت به يا عبد الرحمن بك من تأليف موسوعة كبيرة فى تاريخ الحركة القومية، حتى زميلى مصطفى الحناوى عندما كان يترافع لم ينس تقدير الرافعى قائلا: "من المصادفات أن أكبر مؤرخينا يحملان اسم عبدالرحمن، الأول الجبرتى فى القرن التاسع عشر والرافعى فى القرن العشرين. وكانت المرافعة تتسم بالأدب وتقدير كل طرف للآخر وبالموضوعية من الناحية القانونية".(٣٠)

عمله بالمحاماة:

ألغى الرافعى الاتجاه إلى الوظيفة الحكومية عقب تخرجه من مدرسة الحقوق الخديوية، مع أنه كان سيعمل فى وظيفة محترمة يرنو إليها الجميع فى وزارة (الحقانية) العدل، لأنه وجد فيها مضيعة للوقت والجهد، ولن تبلغه هدفه الذى اختطه لنفسه واتخذ من طريق الجهاد الوطنى سبيلا ومسارا لحياته.

وقد كانت كتاباته نفسها فى بداية عمله الصحفى، دعوة صريحة وواضحة للشباب للاتجاه إلى الأعمال الحرة بدلا من التكالب على الوظيفة الحكومية. واستمر طوال حياته يكره هذه الوظيفة، ويرفض أن يغدو موظفا فى الميرى رغم العروض الكبيرة كما حدث خاصة فى وزارة العدل .. فى نوفمبر ١٩٣٢ رفض التعيين مستشارا. (مذكراتى ط ١ ص ١٠٨)

ويقول الأستاذ مصطفى أمين عن مؤرخ مصر: "كان يتألم من حالة الانحلال في البلد لأنه رآها في مجدها .. ومن هذه الصور التي كانت تؤلمه تكالب الشباب على الوظائف الحكومية".(٣١)

أنشئت مدرسة الحقوق العليا بالقاهرة في عهد الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٨، وكان اسمها في البداية مدرسة الإدارة والألسن ثم انفصلت الألسن سنة ١٨٨٢، واستقلت مدرسة الإدارة حتى سنة ١٨٨٦، فصدر القرار الوزارى بتسميتها مدرسة الحقوق الخديوية. وفي سنة ١٩٢٥ أنشئت جامعة الملك فؤاد - القاهرة - فاندمجت بها وصارت كلية.

وكان المحامون المصريون في بداية القرن العشرين ثلاث جماعات، الأولى تخرجت من مدرسة الحقوق المصرية، والثانية درست الحقوق في الخارج، والثالثة تخرجت من الأزهر ولدى أصحابها القدرة على الخطابة والمجادلة القانونية.

وتخرج عبد الرحمن عبد اللطيف الرافعي من مدرسة الحقوق الخديوية في يونية سنة ١٩٠٨، وكان ترتيبه الثاني والعشرين على دفعته. وقيد اسمه بجدول المحامين ولم يبلغ سن العشرين، واشتغل محاميا تحت التمرين في مكتب محمد علي علويه (بك) المحامي بأسيوط. ولما كان الوقت صيفا والمحاكم في إجازة وصاحب المكتب في المصيف، فقد تولى تدريب الرافعي وكيل المكتب بوصفه محاميا مبتدئا. واستاء الرافعي، ولذلك لم يستقبل "تعليم" الوكيل

بحماس .. مما انعكس على مزاجه، فبدأ يستنكف من مهنة المحاماة ولم تعجبه! وفضل عليها التفرغ للعلم الوطني والجهاد السياسي الذى ملك عليه قلبه، فترك نفسه لما يأتي به القدر في المستقبل. ويجيء القاهرة ويعمل مع الزعيم محمد فريد في تحرير جريدة "اللواء"، ويستمر في عمله الصحفي قرابة عام. إلى أن دعاه صديقه أحمد وجدى المحامي، إلى مشاركته في فتح مكتب محاماة بالزقازيق مع استمرارهما في الكتابة في الصحف. وقبل وبدأ العمل معه منذ يناير سنة ١٩١٠، ولم يلبثا أن افتتحا مكتبا آخر في المنصورة قريبا من ملتقى المحاكم، وتولى عبد الرحمن إدارته بأحد منازل شارع جمال الدين الأفغاني (حاليا أرض فضاء). جعل الدور الأول منه مكتبا لاستقبال زبائنه، والثاني سكنا خاصا له. ويستقر في المنصورة ويطول به المقام تسع عشرة سنة تقريبا منذ أكتوبر سنة ١٩١٣ ثم ينتقل منها نهائيا إلى القاهرة في ديسمبر ١٩٣٢. ويفتتح مكتبه فيها بالمنزل رقم ٢١ شارع عدلي، في نفس الشقة التي كانت مكتب محام أيضا هو محمد زكي على الذى ترك المحاماة لتعيينه مستشارا بوزارة العدل. ومن الطريف أن هذا المكتب ذاته أنشأه في الأصل الزعيم محمد فريد عندما كان محاميا، ثم تركه لمحمد زكي علي! (واستمر مكتب الرافعي المحامي مفتوحا إلى أن أغلق في نوفمبر سنة ١٩٦٤ لمرض صاحبه، وعقب وفاة الرافعي في ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ بعامين أصبح مخزنا لمحلات ناصف للملابس بشارع شريف)!

والغريب فى أمر مؤرخنا أنه عندما أصدر سنة ١٩٥٢ كتابه "مذكراتى"، وعرض به شريط حياته .. تجنب الخوض فى جوانب عديدة من حياته، منها عمله كمحام قرابة واحد وأربعين عاما!

والفترة التى قضاها الرافعى محاميا فى المنصورة تعد من أخصب سنوات عمره، حيث بزغ نجمه وأصبح من خيرة المحامين بالمدينة. لم يرفض قضية لفقير، فكان يترافع فيها مجانا. مما جعله شخصية محبوبة فى الإقليم، وانعكس هذا الإعجاب فى التفاف الجماهير حوله ومساندته، حين أقبل على ترشيح نفسه فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٤ ونجاحه.

وفى لقاء مع على عبد الله قرمد من رجال التربية والتعليم فى المنصورة، يذكر من ذكرياته عن الرافعى وخدماته .. "حدث فى صيف ١٩١٢ أن شغل طلبة المعاهد الدينية والأزهرية فى قريتى أويش الحجر مركز المنصورة فراغهم بعقد الاجتماعات والندوات من أجل مناقشة الأحداث الجارية فى البلاد، فخشى عمدتها اليمانى الجمل - وله صلة قرابة بالراوى - من تصرفاتهم على وظيفته، فمنعهم من ممارسة نشاطهم. فكان رد الفعل أن هاجمه الطلبة باعتباره رجلا غير وطنى. وكان رده القبض عليهم عقب خروجهم من المسجد بعد صلاة العشاء، واتهمهم بسب الملك فى منشورات وجدها معهم! وقبض الخفراء على عشرين طالبا تم إيداعهم دوار العمدة ونقلوا فى

الصباح إلى المنصورة، حيث عرضوا على النيابة العامة التى أمرت بحبسهم احتياطيا وإحالة القضية للمحكمة، وخف الأهلون إلى أحد المحامين (ك. ى) الذى استغلهم وجعلهم يعملون فى أطيانه خلال فترة نظر القضية التى استمرت منظورة قرابة أربعين يوما!

وحدث أن بلغ الرافعى مصادفة بالواقعة، فاطلع على ملف القضية وحضر موعد نظرها، وانتظر حتى انتهى المحامى الموكل من مرافعته ومطالبته بالإفراج عن المتهمين، ثم انبرى يترافع فلم يطلب كسابقه إفراجا أو براءة بل قال إن القضية المنظورة ليست بقضية. وإن من الخطأ اعتبارها كذلك حيث لا مبرر قانونيا لإقامتها، وطلب قراءة البيان الذى كان مع الطلاب وكذلك أسماء الموقعين. وتبين لدهشة المحكمة أن حمد الباسل وعبد اللطيف المكباتى وآخرين هم الموقعون! وفى هذه اللحظة تساءل الرافعى كيف يكون محررو البيان أحرارا طلقاء، فى الوقت الذى يكون فيه قراؤه سجناء، وهنا أفرج القاضى عن الطلبة وحفظ الدعوى الجنائية ضدهم. وحاول الأهلون تقديم الأتعاب، ورفض الرافعى بعد أن قدم هو إليهم تهنئته بوصفهم طليعة الشعب.[٣٢]

ومن الطريف، أن الرافعى عضو الحزب الوطنى، المؤمن بأن مصر والسودان بلد واحد، كانت له وهو محام مشاركة لم تتم بالنسبة إلى السودان! فما هى؟

حدث أن ألغى الحاكم العام البريطانى فى السودان - وهى الوظيفة التى استحدثها الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى عقب القضاء على الثورة المهدية فى السودان سنة ١٩٠٨ وتولاها إنجليزى بموافقة خديو مصر-[٣٣] فى يونيو سنة ١٩٤٨ مجلس الحاكم العام واستبدله بالمجلس التنفيذى، وكذلك فعل بالنسبة إلى الجمعية التشريعية التى حلها وشكل عوضا عنها المجلس الاستشارى. فاجتاحت البلاد ثورة عارمة لمقاطعة الانتخابات، لأن القانون الصادر بهذا الشأن يرمى إلى تثبيت الفصل بين شطرى الوادى. وسقط ضحايا واعتقل الزعماء وقدموا للمحاكمة فى نوفمبر سنة ١٩٤٨. وهنا اتصل الوطنيون السودانيون بنقابة المحامين المصريين طلبا للعون. ويقول الرافعى: "ساهمت نقابة المحامين بمصر فى هذه الحركة على أثر برقية تلقتها فى نوفمبر سنة ١٩٤٨، من الأستاذ محمد نور الدين وكيل الوفد السودانى .. يطلب فيه انتداب بعض المحامين المصريين للسفر إلى السودان. للدفاع عن الأحرار الذين أحيلوا إلى المحاكمة، فقررت النقابة إيفاد بعثة مؤلفة من المحامين: مكرم عبيد، عبد الرحمن الرافعى، على أيوب، على بدوى، عبد الفتاح الشلقانى، أحمد حسين، على عبدالعظيم، صلاح عبد الحافظ، حنفى عبود. وأبرقت إلى الأستاذ نور الدين باستعدادهم العاجل للسفر إلى السودان".[٣٤]

كان من الطبيعي أن تضع السفارة البريطانية بالقاهرة العقبات أمام المحامين المصريين! وهكذا من خلال السكرتير القضائى بالسفارة، جاء الرفض بالتصريح لبعثة المحامين بدخول السودان، بحجة عدم معرفة المحامين المصريين بقوانين السودان. وابتدأ الصراع بين الطرفين. فالبعثة تصر على السفر، والسلطات الإنجليزية تصر على المنع. وتستقل البعثة الطائرة التى استأجرتها النقابة صباح ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٨ إلى السودان. ولكن يبلغ قائدها وهو فى السماء أن يهبط فى مطار وادى حلفا وليس مطار الخرطوم .. وقد كان. وأجبرت الطائرة فى اليوم التالى على العودة إلى القاهرة بركابها. وتهبط البعثة فى أسوان ويستقل المحامون المصريون القطار إلى العاصمة.

وتثور ثائرة الرأى العام فى مصر، وتعم المظاهرات خاصة فى المدن التى يمر به القطار العائد بالمحامين، وتستقبلهم الجموع الحاشدة فى محطة العاصمة يوم وصولهم، استقبالا مشهودا. وكان لهذا كله صدى فى السودان، وجرت المحاكمات فى جو استبدادى، وامتنع المحامون السودانيون عن الدفاع عن المتهمين، احتجاجا على تصرفات الإنجليز وعلى منع زملائهم المصريين من الحضور إلى السودان. وقضت المحاكم الإنجليزية بعقوبات شديدة على كثير من الأحرار السودانيين. وأضرب المحامون فى مصر يوم الأحد ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٨ احتجاجا على هذه السياسة الإنجليزية الغاشمة. ويعقب

الرافعي على هذه الأحداث بقوله: "أن علينا واجبا وطنيا تقتضيه منا مصلحة مصر والسودان على السواء، وهو أن نكافح كفاحا مستمرا لإحباط هذه التدابير وتحرير السودان من ربقة الاستعمار، فإذا أدينا واجبنا في ثبات وإخلاص ومثابرة وصلنا ولا ريب إلى غايتنا، إذ لا تستطيع القوة مهما بلغت أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل".(٣٥)

ونستكمل صورة الرافعي المحامي، باللقاء مع زملائه وأصدقائه المحامين. يقول مصطفى المنزلاوى المحامي بالقاهرة: "كان أستاذي الكبير عبد الرحمن الرافعي المحامي متواضعا رغم مركزه الكبير. كان هدفه أن يكسب القضية إيمانا بحق موكله، لأنه لا يقبل القضية إلا بعد اقتناع. وكان يدرسها دراسة كبيرة ويتخير الكلمات التي تبتعد عن اللفظ الحاد .. وكان يترافع بهدوء ووضوح. وأذكر أنني كنت إذا كتبت مذكرة أثناء التمرين بمكتبه، فقلت مثلا عن الخصم إنه يغالط أو يكذب، يصحح الأستاذ الرافعي اللفظ ويعدله إلى أن كلام الخصم غير مطابق للواقع أو للحقيقة!

وكان الرافعي منظما في عمله له مواعيد محددة لا يتعداها في المكتب. والموكلون يعرفون مواعيده بالضبط، فكان إذا انتهى من المحكمة في وقت مبكر يعود إلى مكتبه، ويخصص جزءا ضمن الوقت للاطلاع والكتابة في مؤلفاته التاريخية. وكان إذا حضر الموكل، ويستمع إليه الرافعي يدون بعض النقاط أثناء استماعه، فإذا ما استوفى الموضوع ووجد أن صاحبه على حق قبل الترافع.

وكان أستاذى محل تقدير رجال القضاء، فكان إذا ذهب إلى المحكمة من غير أن يطلب قضيته، فرئيس المحكمة يسأله ما رقم قضيتك يا عبد الرحمن بك حتى لا تتعطل، ويطلبها وينتهي من عمله في المحكمة. وكان محل تقدير زملائه أيضا من المحامين، وكما قلت كان عف اللسان ليس في المرافعة فقط، وإنما في حديثه مع زملائه لا تصدر منه أية كلمة خارجه.

ويستطرد المنزلاوى فى حديثه قائلا: لقد أمضيت عنده خمس سنوات من أكتوبر سنة ١٩٣٥ إلى أكتوبر سنة ١٩٤٠ أمام المحاكم الجزئية ثم المحاكم الابتدائية، فلما قيدت فى أواخر سنة ١٩٤٠ فى الاستئناف العالى رأيت أن أختار مكتبا بجواره فى نفس المنزل حتى تستمر الصلة بينى وبينه. وكنت أستعين بآرائه فى بعض القضايا التى أوكل فيها. وكان يعيننى أيضا ببعض من يعملون معه فى مكتبه وييسره ذلك. وظلت صلتى به قائمة عندما كنت عضوا باللجنة الإدارية للحزب الوطنى التى كان يرأسها حافظ رمضان، وكنت أقابله فى جلساتها وفى الاحتفالات التى يقيمها الحزب فى المناسبات الوطنية. وأذكر أن ممن كانوا يعملون معه فى ذلك الوقت أحمد زكى محمود وحسين كامل وكمال رضا وكثيرين، وقبلها تمرن عنده محمد على رشدى الذى أصبح وزيرا للعدل والدكتور محمد زهير جرانه الذى أصبح وزيرا للشئون الاجتماعية والمواصلات وغيرهما.

وكانت القضايا التي يتولاها الرافعي بنفسه يقوم بإعداد مذكراتها. أما القضايا التي توزع على المحامين تحت التمرين بمكتبه فكانوا هم يعدون لها المذكرات ثم تقدم إليه لمراجعتها وتعديل ما يرى تعديله فيها".[٣٦]

أما المستشار حلمي شاهين الذي عمل بمكتب الرافعي منذ سنة ١٩٤٠ عقب تخرجه - والذي أصبح بعد ذلك زوجا لابنته - فيقول: "كان الرافعي يرفض قبول القضايا التي يراها لا تتفق من ميوله واتجاهاته، والتي يمكن بكلمة واحدة أن يحكم فيها بالبراءة .. كبطلان تفتيش أو توقيع غير صحيح أو طلب إحالتها إلى خبير. وبالإضافة إلى أنه لم يكن مغاليا في أتعابه، حدث أن اتفق مع سيدة في قضية دعوى تعويض، عن وفاة ابنها المضيف بشركة الطيران البلجيكية بالقاهرة في حادث، عندما اصطدمت سيارته وهو في طريقه إلى عمله بمطار القاهرة ليلا بسيارة نقل محملة بأسياخ حديدية تابعة لإحدى شركات النقل لوقوفها في الطريق دون إضاءة. وقدمت له من الأتعاب خمسين جنيها على أن تسدد ثلثمائة جنيه بعد الحكم. وصدر الحكم بتعويضها بثلاثة آلاف جنيه، وعرض على السيدة أن تستأنف الحكم حيث استأنف الخصوم أيضا، وصدر حكم الاستئناف برفع التعويض إلى سبعة آلاف جنيه، فقمت معها بتنفيذ الحكم واتفقت معها إلى رفع الأتعاب إلى ألف جنيه واستقطعتها ودخلت على الرافعي بمكتبه أقدم له المبلغ، إلا أنه ثار في وجهي قائلا: إيه ده يا أستاذ اللي أنت بتعمله

ده، رجع الفلوس لها تاني .. إحنا ح نشترك في دية ابنها. فقدت ابنها وحيدها على خمس بنات تستكثر عليها سبعة آلاف جنيه، رجع لها الفلوس تاني .. إحنا مش ح ناخذ إلا الثلثمائة جنيه اللي اتفقنا عليها!

ويستطرد شاهين أن من وفاء الرافعي لأصحابه أنه كان يترك قضاياه بالقاهرة، وينتقل للمنصورة للدفاع عنهم بلا مقابل. ونفس المسئولية يقدمها مجانا لأعضاء الحزب الوطني! وقد أثرت يوما هذا الوضع فسألته لم لا تكف عن الاستمرار في هذه القضايا التي تتعب فيها بلا مقابل؟ فكان رد الرافعي بسيطا: إحنا مش بنزكي عن أنفسنا يا سيدي بدل ما ناخذ فلوس ونصرف الفلوس زكاة أدي إحنا بنطلع زكاة قضايا علشان مش قادرين نطلع زكاة فلوس! وكان الرافعي محاميا للأمير محمد علي توفيق ولي العهد في آخر أيام أسرة محمد علي، مقابل خمسين جنيها شهريا يترافع عن قضاياه من الإسكندرية حتى أسوان .. ولم يجد في قبوله لهذا الأمر أي مساس بوطنيته. ويوما أثرت موضوع ضآلة المبلغ مقابل ما يبذل من جهد فما كان من الرافعي إلا أن رد: إحنا مش شاتمين ومهاجمين أبوه الخديو توفيق أنت عايز الناس يفتكروا إن إحنا بنغير رأينا .. لا .. لا.

ويذكر شاهين عن هذا الجانب، أن صالح جودت روى له يوما أنه التقى بالأمير محمد علي توفيق .. وسأل صالح الأمير كيف يتعاون مع الرافعي في الوقت الذي هاجم فيه المؤرخ أسرة محمد علي؟ فكان جواب ولي العهد: لا دي

راجل دوغرى. رجل نزيه. أنا اللى بضحك عليه مش هو دا أنا بديله خمسين جنيه فى الشهر وأنا بشغله زى ما أنا عاوز!!"

ومن الطرائف التى يرويها عبد الرحمن الرافعى فى مذكراته، عن تشابه الأسماء وعمله بالمحاماة "وقد حدث فى سنة لا أذكرها أن قرأ صاحب قضية هامة فى الصحف نبأ تعيين "عبد الرحمن الرافعى بك" رئيسا لنيابة مصر، فانزعج لهذا الخبر. وكنت وكيله فى هذه القضية، وكانت فى آخر مراحلها، وظن أنه سيتعذر على أن أترافع فيها فى اليوم الموعود بعد تعيينى رئيسا للنيابة ... وراح يبدى دهشته ويقول: كيف يقبل الرافعى أن يكون رئيسا للنيابة وهو الذى اعتذر عن منصب الوزارة؟ وهرول إلى مكتبى يسأل عن الخبر ليطمئن على قضيته، فرآنى على مكتبى، واطمأن بعد أن فهم أن رئيس النيابة هو ابن عمى". (ص ١٣١)

لم يعرف عن عبد الرحمن الرافعى تخففه من المشاركة فى عالم المحاماة ونقابة المحامين، التى لم يتخلف فى معظم الأحيان عن حضور اجتماعاتها .. حتى عندما كان مكتبه فى الأقاليم. وفى عهد حكومة على ماهر - زميل كفاحه - دب خلاف بين أعضاء مجلس نقابة المحامين، فصدر قرار بحل المجلس فى ديسمبر سنة ١٩٣٩. وتم تعيين مجلس جديد يمثل كافة الأحزاب وكان الرافعى من أعضائه وكيلا له. ومر عام وأجريت الانتخابات الجديدة للنقابة، واتفق المحامون من مختلف الأحزاب السياسية مع الرافعى على ترشيحه وكيلا. واطمأن هو إلى أن جاء يوم الانتخاب، لكن المحامين الوفديين أسقطوه![٣٧]

تعرضت حكومة الثورة فى العام الخطير ١٩٥٤ إلى معارضة شديدة من المحامين، الذين كرهوا الديكتاتورية وتكتلوا فى النقابة. وقد حاول المسئولون تغيير ذلك بالحصول على تأييد مجلس إدارة النقابة ذات الأغلبية الوفدية، ولكن باءت المحاولة بالفشل. وتصاعدت الأزمة بين الطرفين واجتمعت الجمعية العمومية لنقابة المحامين بصفة غير عادية فى يوم الجمعة ٢٦ مارس ١٩٥٤، وقررت مطالبة حكومة الثورة بالعودة إلى ثكناتهم وترك السياسة للسياسيين. فكان رد الثورة إصدار القانون رقم ٧٠٩ بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٥٤ بحل مجلس نقابة المحامين وتشكيل مجلس مؤقت واختيار عبد الرحمن الرافعى نقيبا.[٣٨]

ويروى المستشار حلمى شاهين ذكرياته عن الاختيار، أن حماه تعمد أن يختار التشكيل الجديد لمجلس النقابة من النقباء والأعضاء السابقين بالنقابة ليمثل كافة التيارات.

وقد شارك عبد الرحمن الرافعى وهو نقيب للمحامين، فى اجتماعات المكتب الدائم للمحامين العرب ببيروت فى ديسمبر سنة ١٩٥٥، وفى مؤتمرهم بالقاهرة فى مارس سنة ١٩٥٦. وقد بلغ من اهتمام جمال عبد الناصر بما أداه الرافعى، أن حضر احتفالهم هذا .. وقام النقيب بتقديم المحامين العرب إليه. وفى العام التالى كان الرافعى ضمن المدعوين فى مؤتمر المحامين بدمشق.

وزيرا:

منذ أن أبعد عبد الرحمن عن الحياة السياسية سنة ١٩٢٦ لم يندمل الجرح الذى أصابه من حزب الوفد، فاستمر طوال حياته يثير ما يشفى غليل صدره نحو حزب الأغلبية .. وعندما أعلنت معاهدة سنة ١٩٣٦ التى وقعها الوفد مع الإنجليز، عكف على إبداء رأيه المعارض نحوها ونشره فورا. ومع أن الحزب الوطنى كان يشكل أقلية ضئيلة لا تكاد تشارك فى الحياة السياسية المصرية، إلا أن الرافعى ظل يكتب ضد المعاهدة ويتناولها فى كل مناسبة ويتعرض لها أيضا إبان عضويته بمجلس الشيوخ.

وحدث فى نوفمبر سنة ١٩٤٠ أن طلب حسين سرى من عبد الرحمن الرافعى الاشتراك فى الوزارة التى يقوم بتأليفها، فما كان من الأخير وطبقا للنظام المتبع بالحزب الوطنى، إلا أن عرض هذا الأمر على اللجنة الإدارية للحزب، والتى قررت عدم موافقتها على اشتراكه لأن الحرب الثانية قائمة والوزارة ستنفذ معاهدة سنة ١٩٣٦، واعتذر الرافعى.[٣٩]

وتمر تسع سنوات، لنفاجأ بتغيير موقف الرافعى من الاشتراك فى الوزارة! فيقبلها بعد أن كان يرفضها! والحال هو الحال! حدث ذلك عندما يعرض عليه للمرة الثانية، حسين سرى فى صيف سنة ١٩٤٩ الاشتراك فى الوزارة. وبدون الرجوع للجنة الإدارية للحزب الوطنى. يكتب مؤرخنا فى مذكراته عن الحوار الذى دار بين حسين سرى وبينه ..

"واستوضحته برنامج الوزارة فأفهمنى أنها وزارة قومية تعمل على توحيد الصفوف وائتلاف الأحزاب وإجراء انتخابات حرة. ألا توافق على ذلك؟ قلت: بل أغتبط به وأؤيده، ولكن ما هو موقف الوزارة تجاه معاهدة سنة ١٩٣٦؟ فقال: إنى أعتبرها غير قائمة لأن البلاد أعلنت ذلك، وأن وزارتى مع أنها وزارة انتقال فإنها متمسكة بالجلاء ووحدة وادى النيل، فقلت: على بركة الله أقبل".[٤٠]

وأصبح عبد الرحمن الرافعى وزيرا للتموين يوم ٢٦ يولية سنة ١٩٤٩! لقد فعل الرافعى ما كان يدين به غيره. والتاريخ يذكر له أنه تزعم يوما الجبهة المعارضة فى الحزب الوطنى ضد رئيسه حافظ رمضان عندما قبل الأخير الاشتراك فى الوزارة سنة ١٩٣٧، وكرر ذلك سنة ١٩٤٠ لأنه لا يتفق مع مبادئ الحزب الوطنى الأساسية لقبول الوزارة فى ظل وجود الاحتلال القابض على مقدرات الحياة المصرية. لأن الوزارات المشكلة جميعها لعبة بين أصابعه فكيف يقبل لنفسه ما رفضه لغيره؟

والحقيقة أن عناد عبد الرحمن الرافعى، هو المسئول عن ضربه عرض الحائط برأى اللجنة الإدارية للحزب .. القائمة اسما لا فعلا. كما أنه بلاشك كان فى أعماقه تواقا إلى التقدير من خلال الوزارة، مع علمه الأكيد أن حسين سرى لم يكن صادقا فيما ادعاه، من أن البلاد أعلنت عدم سريان المعاهدة أو من وقوفه ضد قوى الاحتلال.

ويفشـل الرافعـى فـى إقنـاع الآخريـن بموقفـه وتورطـه ومخالفتـه لمبـادئ الحـزب الـذى يعـد أحـد قادتـه. يقـول مؤرخنـا فـى مذكراتـه الشـخصية "إن زوجتـه نفسـها سـألته نفس السـؤال الـذى كـان يـردده الجميـع، ولا يزالـون يرددونـه وهـو: لمـاذا قبـل الـوزارة بعـد أن سـبق لـه رفضـها؟ فقـال: إن الظـروف تغـيرت لأن برنـامج الـوزارة الجديـدة لا يتعـارض مـع مبادئنـا، ومـع ذلـك فـإن الأمـر لا يـزال فـى دور المشـاورة فمـاذا تريـن؟ قـالت: إنـى أرى مـا تـراه، فلتقبـل علـى بركـة اللـه، فارتـاحت نفسـى لـهذا الجـواب". (ص ١٣٣)

وعندمـا يسـأله محمـد إبراهيـم جمعـة نفـس السـؤال، ولمـاذا إذن كـان ينكـر علـى حـافظ رمضـان دخـول الـوزارة أجابـه: "إن الظـرف الـذى دخـل فيـه حـافظ رمضـان الـوزارة يختلـف عـن الظـرف الـذى دخلـت فيـه، لأن الـوزارة السـابقة كـانت تبحـث أمـورا سياسـية مـع السـلطة العسـكرية الإنجليزيـة .. فـى الوقـت الـذى كـانت فيـه الـوزارة التـى دخلتـها إداريـة بحتـة، المقصـود منـها إصـلاح حـال كثـير مـن النواحـى ومنـها التمويـن الـذى توليتـه. لأن المـواد الغذائيـة كـانت تبـاع لإسـرائيل عـبر السـودان". [٤١]

ولا يمـر هـذا الحـدث بـهدوء، أو عنـد مجـرد عـدم الموافقـة. فيطـالب كبـار رجـال الحـزب مثـل محمـد محمـود جـلال ومحمـود العمـرى وغيرهمـا، الرافعـى بالاسـتقالة فـورا.

ولكنه لا يقبل. ويعقب هو على ذلك بقوله فى مذكراته: "ولم يقنعانى برأيهما، ولا أقنعتهما برأيى، أما نظريتى فهى أن الأمر مرجعه إلى برنامج الوزارة وسياستها. ورأيت فى نظريتهما تشددا لم أقره، وأنا بطبعى أميل إلى الاعتدال. وأراه أقرب إلى نشر الدعوة الوطنية واجتذاب الأنصار إليها. ومع اختلافى وإياهما فى الرأى فقد حفظت لهما خالص الود والتقدير". (ص١٣٣)

على أية حال، فإن من الأعمال التى قام بها وزير التموين عبد الرحمن الرافعى، اهتمامه بالمشاكل الشعبية. فعندما تعمدت شركة السكر إنقاص المقررات على المواطنين مع تأخير إرسال الكميات فى حينها، أصدر قرارا وزاريا رقم ١٤٤ بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٩ نشر فى نفس اليوم بالجريدة الرسمية، لتنظيم التوزيع ومعاقبة عضو مجلس إدارة الشركة، فانتظمت الأمور. وعندما حاولت شركات الغزل والنسيج رفع أسعار منتجاتها لشكواها من مزاحمة الأقمشة الأجنبية، منعها من تنفيذ طلبها، وقرر مجلس الوزراء زيادة التعريفة الجمركية على الأقمشة المستوردة. وقد اهتم الرافعى بالقيام بجولات تفتيشية على المحلات، كلما أتيح له ذلك فى القاهرة والإسكندرية.

ولم تستمر وزارة حسين سرى فى الحكم إلا ثلاثة شهور وبضعة أيام، واستقالت فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٩ بعد أن عصفت بها التيارات السياسية!

محاضرا:

ومن أنشطة الرافعى .. المحاضرة. ودعا كثيرا للمساهمة فى إلقائها. كما استفادت الإذاعة المصرية بأحاديثه وأغلبها فى المناسبات السياسية .. وبدأت فى فبراير سنة ١٩٤٠، فى ذكرى مرور اثنين وثلاثين عاما على وفاة مصطفى كامل، واستمر فى ذلك حتى سنة ١٩٥١.

ودعاه معهد العلوم السياسية بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٤، لتقديم مقرر دراسى فى التاريخ الحديث لطلابه. كما أشرف الرافعى على عدة رسائل جامعية.

أخلاقه:

ولتربية عبد الرحمن الدينية فضل وتأثير كبير فى تدينه، واعتماده دائما على الله، مما خفف عنه كثيرا الأحداث القاسية التى مرت به. وكان يحب أن يتمثل بيت الشاعر أبى تمام فى قوله:

على أنها الأيام قد صرن كلها

عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولاشك أن من هذه الأحداث عدم تخصيص الزعيم سعد زغلول سنة ١٩٢٦، دائرة مركز المنصورة لعبد الرحمن الرافعى كما فعل للآخرين من الحزب الوطنى، مما جعله لا يتقدم للترشيح لمجلس النواب. ويقول فى مذكراته: "أصبت فى حياتى بصدمات كثيرة لا أريد أن أشغل القارئ بها. على

أن أشد صدمة أصابتني وقعت لي سنة ١٩٢٦. كانت هذه السنة في مجموعها فوزا للأمة، وقد تحدثت عن تفاصيل هذا الفوز في الفصل الحادي عشر من كتابي (في أعقاب الثورة - جـ١ - تحت عنوان اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه وعودة الحياة الدستورية). أما بالنسبة لي شخصيا، فكانت السنة صدمة بل محنة كادت تؤدي بي، لولا أن أعانني الله عليها بالصبر والثبات" (ص٥٧).

وفي جانب آخر من مذكراته يقول الرافعي: "حرمت طيلة حياتي من معاونة الغير لي، لم أجد معاونة لي في أعمالي ومشروعاتي ومنهجي في الحياة، لا من المجتمع، ولا من الحكومات، ولا من الهيئات، ولا من الأفراد (إلا القليل منهم). كل كفاحي أو معظمه كان يسير بلا سند إلا من معونة الله، لم أنل من المجتمع ولا من الحكومات أي علامة تقدير لأعمالي، لا أقول هذا طعنا في المجتمع، بل تقريرا للواقع، وتحدثا بنعمة الله، نعمة الصبر. ويلزمني أن أعترف بأنني، إلى جانب حرماني من التقدير، واجهت عقبات وتنكرا وجحودا من هنا ومن هناك، وعلام كل هذا؟ لا أدري إذا كنت على حق يتنكر له الناس، أم على باطل يتولى الناس تقويمه. على كل حال إن اعتقادي أنني على حق وأنني كنت مغبونا في قومي. قد أكون مخطئا في اعتقادي، ولكنهم يقولون: لكل مجتهد نصيب، إن أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران". (ص٩٠)

وكان للرجل جلد كبير فى تحمل قضاء الله وقدره، يروى المستشار حلمى شاهين "عندما اختار الله وحيده لم يبك وإن كان حزنه عليه شديدا، وحدث بعد تقبله للعزاء أن اعتكف فى حجرته ودخلت عليه زوجته، وفوجئت به يستمع إلى الراديو .. فما كان منها إلا أن اتهمته فى عاطفته. ولم ينبس الأب المكلوم إلا أن يقول: إنها إرادة الله. وفى اليوم التالى ذهب إلى مكتبه يباشر عمله كالمعتاد".

وحادث آخر يعكس هذا الإيمان .. مرض عبد الرحمن الرافعى بالشلل، وعرضت عليه رئاسة الجمهورية العلاج بالخارج على نفقة الدولة. فرفض! لسببين يعكسان بعض عناصر تكوينه بقوة: الأول أن إرادة الله واحدة فلا فرق أن يكون العلاج بالداخل أو الخارج، والثانى أن اقتصاد مصر سنة ١٩٦٤ فى حاجة إلى النقد الأجنبى الذى سيصرف عليه!

كان شديد الحياء خجولا إلى أبعد الحدود، قال إسماعيل بيبرس عنه إنه كان يخجل إذا سمع كلمة نابية، فيحمر وجه هذا الرجل الكبير! ومصداقا لذلك أنه فى إبان عضويته بمجلس الشيوخ بجلسة ١٧ أبريل سنة ١٩٤٠، طالب بانخراط أبناء الأغنياء لا أبناء الطبقات الفقيرة وحدها فى التجنيد بالقوات المسلحة. وهاجمه الأعضاء، وعلقت جريدة البلاغ فى عددها الصادر فى اليوم التالى تحت عنوان (الأغنياء يحتجون) بالقول: "وما كاد الشيخ عبد الرحمن الرافعى يذكر الأغنياء ويغادر المنبر حتى تلقته صيحات

الشيوخ من كل جانب فى ضجيج وعجيج. فاحمر وجه الشيخ وقال وهو يخترق الصفوف إلى مكانه .. قولوا اللى تقولوه: لازم الأغنياء يتحملوا جه دورهم!".[٤٢]

وامتاز عبد الرحمن الرافعى بالإصرار فى آرائه وتفكيره ما دام يراها صحيحة، فلم يكن من السهولة إقناعه برأى يخالفه، وقد اعترف هو نفسه بذلك فى مذكراته .. ورأى فى المعاندة عيبا ولكنه لم يستطع التخلص منه. كما كان غير اجتماعى مع أنه محام مشهور ولصيق الصلة بالناس.[٤٣]

يكتب فتحى رضوان عن اتزان الرافعى قائلا: "كانت حياة مصطفى كامل كالسور القصار فى القرآن، آيات قصيرة سريعة موسيقية، وكانت حياة محمد فريد كالسور الطوال، تفصل وتشرح وترسى القواعد، وتؤصل الأصول، وكان عبدالرحمن الرافعى أقرب إلى هذا المزاج وأشبه به. فلم يكن أسلوبه فى الكتابة ولا منهجه فى الكلام أو المرافعة أو الخطابة، ولا سعيه فى الحياة متوهجا حماسيا، رنانا يخطف الأبصار بريقه، ويستوقف الآذان وقعه. فاتصلت أسبابه بأسباب محمد فريد واقترب منه كثيرا".[٤٤]

ومن السمات البارزة فى شخصيته أنه جبل على حسن الظن بالناس، دون الحذر منهم بالرغم من تعرضه مرات عديدة لشرهم، فلم يقو على تغيير طباعه. كما أنه كان مثاليا لا يؤمن بالواقع الحقيقى، حتى فى الناحية السياسية، وكانت النتيجة الطبيعية أن صدمه الواقع كثيرا.

وعرف الرافعى بالحفاظ على كرامته وكبريائه مهما كلفه ذلك، وكان الذين حوله يعرفون عنه هذا التعصب بالنسبة إلى كرامته. ومن الحكايات التى تروى فى هذا الصدد، ما يقوله حلمى شاهين: إن مصاريف علاج حماه من الشلل كانت باهظة التكاليف ومستمرة .. بعد أن رفض العلاج على نفقة الدولة، وفكرت الأسرة من غير علمه فى أن تحصل له على معاش استثنائى قدر بمائة جنيه شهريا. وبناء على طلب الأسرة لم ينشر القرار بالصحف! ولما كانت هناك إجراءات رسمية تحتاج إلى توقيعه على المستندات، وخشية أن يعرف عبد الرحمن الرافعى بالأمر وعيناه تطالعان البيانات فيرفض المعاش. أوهم أن الدولة قررت إعادة طبع مؤلفاته وستدفع مقابل ذلك عائدا شهريا قدره مائة جنيه، ويلزم الأمر توقيعاته على استمارات طواها عندما قدمها إليه. وبعد أن حمل الرافعى القلم سأل زوجته: هل قرأت البيانات؟ ولم يوقع إلا بعد أن أجابت بالإيجاب. وتوفى الرجل من غير أن يعلم أن الدولة قد منحته معاشا استثنائيا!

منهجه:

يقول عبد الرحمن الرافعى فى أحد كتبه وهو "فى أعقاب الثورة المصرية": "قصدت فى كل ما كتبت وجه الحق والصدق. والمؤرخ فى طبيعة رسالته يشبه أن يكون قاضيا، يفصل فى القضايا التاريخية التى يعرض لها. وعليه أن

يقتبس من القاضى روح العدل الذى يستلهمه فى قضائه، فكما أن واجب القاضى أن لا يجامل فى الحق أحدا، ولو كان أقرب الناس إليه، ولا يتحامل على أحد، ولو كان أبغضهم إلى نفسه. فعلى من يتصدى لكتابة التاريخ أن يتحرى الحق والإنصاف، ويتجنب المجاملة والمحاباة أو التحامل فيما هو بسبيله. هذا ما اتجه إليه قصدى، وانعقدت عليه نيتى. "وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى". [٤٥]

هذا القصد يحمل بعض منهج مؤرخنا الكبير، ولكن هل التزم عبد الرحمن الرافعى به؟ كلا .. غالبا! ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى تربيته السياسية منذ صباه فى أحضان الحزب الوطنى، وتلمذته المباشرة على الزعيم الأول والثانى للحزب، مصطفى كامل ومحمد فريد.

والتماس الرافعى نظرة الحزب الوطنى فى الحكم على الشخصيات والأشياء، طبع تاريخه بمسار خاص. ومن أشهر هذه المواقف إدانته لعرابى بالخيانة كما فعل الزعيم الشاب. يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة: ".. وبمناسبة الحديث عن سير العظماء المصريين نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نأخذ على مصطفى كامل أنه شوه كثيرا من سمعة عرابى، ونظر إليه على أنه خائن لبلاده، وعبرت مقالاته تحت عنوان "عرابى أمام التاريخ" عن هذا المعنى فى صراحة تامة". [٤٦]

وكذلك موقف الحزب الوطني والرافعي الرافض من الدعوة إلى السفور التى قام بها قاسم أمين، فقد كان رأى الحزب ألا تتسرع المرأة المصرية فى محاكاة المرأة الأوربية بترك الحجاب، ومن ثم هاجمه كثيرون فى جريدة "اللواء" هجوما شديدا.

واهتمام الرافعى البالغ بمعلميه الوطنيين - مصطفى كامل ومحمد فريد - جعله يرفعهما فى كتاباته إلى مصاف الآلهة، متجاهلا عيوبهما!

وقد اتسم منهج الرافعى أيضا: باختيار اللون الواحد، وهو الخير غالبا، كأن دعوة مؤرخنا المثالية تتحقق بذلك! وعدم التزام الحيدة فى كتاباته، فمجد أعمال الحزب الوطنى باستمرار حتى بعد أن أصبح حزب أقلية. ولم يكتف بذلك .. بل جعل هذا التمجيد على حساب الأحزاب الأخرى. وناصب العداء فى أغلب الأحيان حزب الأغلبية وهو حزب الوفد.

هذا الرأى هو ما قال به الدكتور عبد العظيم رمضان فى محاضرته عن "الرافعى والمنهج السياسى فى كتابة التاريخ" فى الندوة التى أقامها المجلس الأعلى للثقافة عن "عبدالرحمن الرافعى"، "أن عبد الرحمن الرافعى كان يؤرخ للأحداث التاريخية بمادة علمية مهمة تتمثل فى البيانات والتصريحات الرسمية والحزبية والنيابية وما ورد فى

الصحف من مواد أولية، ويتتبع ذلك بعناية، ولكن مجرد تقديم هذه المادة العلمية لا يكون تاريخاً، كما أن تفسيرها وفقاً لمنظور حزب معين هو الحزب الوطني، يحول تاريخ مصر من تاريخ الشعب المصرى إلى تاريخ الحزب الوطني وتاريخ نضاله".

اقتصر في معالجته التاريخية على الجانب السياسي وقليلاً على النواحي الاجتماعية والاقتصادية والفنية والتعليمية .. مما جعل كتابته تبدو مبتورة الملامح، خاصة في الأحداث التي عاصرها. واعتمد كثيراً على الصحف المصرية، وهي كما نعرف لم تكن حرة في أغلب حياتها في التعبير عما تريد. كما أن الأقلام الصحفية المرتزقة لقصر الدوبارة أو لقصر عابدين، كانت لها الغلبة في تسويد الصفحات!

وقد دون الرافعي الأحداث في كثير من الأحيان دون التعليق على أسبابها ومسبباتها .. وأغفل متعمداً تدوين الجمعيات السرية والبطولات الفدائية، خاصة التي شارك هو في الإسهام فيها.

كما اتسم منهجه بأسلوب النصح والإرشاد!

ويشيد صلاح عيسى بمنهج الرافعي وقدرته على التقاط نقطة البداية الحقيقية للتاريخ لمصر الحديثة، فيقول في "كتابات عبد الرحمن الرافعي .. المؤرخ والمبشر" (أخبار

الأدب ٧-١١-١٩٩٩) فـى بحثـه عـن اللحظـة التـى دخلـت فيـها مصـر عصـر القوميـة، "توقـف الرافعـى المـؤرخ والمبشـر المسكون بـالوطن، عنـد نقطـة أقـرب مـا تكـون إلـى الصحـة، فقد كـان المؤرخـون - الإفرنـج طبعـا - مـن قبلـه يعتـبرون الفتـح العثمـانى لمصـر سـنة ١٥١٧ هـو بدايـة التـاريخ المصـرى الحديـث مـع أن هـذا الفتـح لـم يغـير مـن وضـع مصـر، ومـع أن نظـام الحكـم الـذى كـانت تخضـع لـه، لـم يتغـير فـى جوهـره فجـاء الرافعـى ليصحـح هـذه البدايـة، انطلاقـا مـن نظـرة واضحـة لا لبـس فيـها، هـو أنـه يعتـبر مصـر، بلـداً قائمـاً بذاتـه، ويعتـبر الشـعب المصـرى قوميـة مسـتقلة بذاتـها، لذلـك أعتـبر نـهوض المصريـين لمقاومـة الغـزو الفرنسـى لبلادهـم بعـد أن هـرب الوالـى العثمـانى، وهـرب الممـاليك وهـم جيـش مـن المرتزقـة احتكـر لنفسـه علـى امتـداد خمسـة قـرون حمـل السـلاح وحكـم مصـر مقـابل الدفـاع عنـها - هـو بدايـة حركتـهم القوميـة، ومـن هنا بـدأ".

ومما يؤكـد أيضـا عـدم الـتزام مؤرخنـا بالحيـاد فـى كتاباتـه، مـا رواه مؤخـرا أنيـس منصـور فـى "كـانت لنـا أيـام .. فـى صـالون العقـاد"، وهـو يحكـى مجـىء عبـد الرحمـن الرافعـى لإحـدى نـدوات العقـاد وإسـهامه فـى الحـوار، وقولـه باسـتحالة حيـاد المـؤرخ .. "قـال الأسـتاذ عبـد الرحمـن الرافعـى: ولكـن هـذا مسـتحيل .. إن هـذا يشـبه أن نقـول للشـاعر لا تكـن عاطفيـا .. أو نقـول للرسـام لا تكـن حساسـا .. أو نقـول للمطـرب لا تـهتز أثنـاء الغنـاء .. إن المـؤرخ إذا قـال لنفسـه ..

يجب أن أنشد الصدق والعدل فى كل ما أكتب. فهذا رأى وهذا عهد .. وعلى ذلك فهو رجل أخلاق يريد أن يجعل من التاريخ درسا وموعظة وعبرة. وإلا فما هى فائدة كتابة التاريخ؟ .. لابد أن تكون هناك فائدة من الكتابة .. الفائدة هى الهدف. والمتعة هى الهدف الثانى. والمتعة التى يجدها القارىء هى التحية التى يقدمها للمؤرخ أما الصدق فى التسجيل فهو التحية التى يوجهها المؤرخ للقيم الأخلاقية والوطنية .. وأنا لا أستطيع إلا أن أكون وطنيا أخلاقيا .. وأنا حين أسجل تاريخ مصر، فأنا أكتب قصة حياة: أمى وأخوالى وأجدادى، ومستقبل أولادى .. ولابد أن أكون بارا بأمى، محبا لأخواتى، رحيما بأولادى .. ولا أستطيع أن أكون محايدا إذا رأيت دم أمى يسيل .. أو إذا رأيت من يتآمر عليها .. وقد تكون هذه هى النزاهة العلمية .. ولكن لا أستطيع أن أكون منزها عن الغضب والحب والخوف .. قد لا أفزع إذا رأيت أحداً يذبح خروفا .. ولكن كيف لا أفزع إذا رأيت أحدا يذبح طفلا أو شعبا .. إن هذه النزاهة العلمية هى، بلادة حسية، وبلاهة قومية .. فما دمت أنت محبا فأنت مغرض. ومادمت وطنيا فأنت مغرض. ولكن غرضك هنا شريف .. إن التاريخ يقول لنا إن العالم الفرنسى شامبوليون عندما اكتشف حجر رشيد كان يقبله .. ولو رآه أحد الناس دون أن يعرف من هو، وما الذى يركع ويسجد أمامه لظنه وثنياً يعبد صنماً .. إن حماسته العلمية قد جعلت منه عابداً لصنم .. عاشقاً لاكتشاف جديد ..

وأعتقد أن كل مؤرخ هو عاشق لشيء ما .. وأن هذا العشق الذى يوقظ وجدانه، ويشعل فكره، كثيراً ما جعله يفقد عقله أيضا". [٤٧]

وفاته:

أصيب عبد الرحمن الرافعى فى ١٤ فبراير سنة ١٩٦٤ بشلل نصفى فى الجانب الأيسر من جسمه، وتناوب على علاجه مجموعة من خير الأطباء. ويقول محمد إبراهيم جمعة إنه قام بزيارته مع مجموعة من الأصحاب، فوجدوه باشا ضاحكا حامدا ربه وقال لهم: لقد أحسست بهذا المرض عقب أكلة لذيذة، وما كنت أدرى أن بعض الطعام يضر كهذا. والحمد لله أنى مازلت أشعر بقوة الفكر والقدرة على الكتابة المريحة! ولكن الأطباء منعوه منها إلى أن يستطيع أن يقف على قدميه.

وكان الرافعى قد اعتاد هو ورفاقه من أعضاء الحزب الوطنى زيارة ضريح مصطفى كامل ومحمد فريد فى ذكرى وفاتهما. وعندما اكتشف فى أواخر سنة ١٩٣٩ تصدع ضريح الزعيم الشاب ساهم مع مجموعة من أصدقائه فى ترميمه. ولما انتخب عضوا بمجلس الشيوخ اقترح بجلسة ١٠ مايو سنة ١٩٤٤، تشييد مدفن جديد لمصطفى كامل .. الذى تم بالفعل إقامته فى أواخر سنة ١٩٤٩ فى ميدان صلاح الدين بالقلعة بالقاهرة ونقل إليه رفات صاحبه.

ولم ينس عبد الرحمن أستاذه الثانى فاقترح إبان عمله وزيرا للتموين بوزارة حسين سرى، نقل رفات محمد فريد من مقبرته القديمة إلى جوار مصطفى كامل .. فوافق مجلس الوزراء فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٩ على ذلك ونقل الرفات فى مشهد مهيب.

وكانت أمنية عبد الرحمن الرافعى أن يدفن بجوار أحبائه مصطفى كامل ومحمد فريد، فلما توفاه الله فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ اتصلت أسرته برئاسة الجمهورية لإبلاغ وصيته، فتقرر الاستجابة لرغبته. وشيعت جنازته إلى مثواه الأخير ظهر اليوم التالى. ودفن الرافعى إلى جوار الزعيمين، وأعدت حجرة بالمتحف تضم مخلفاته منها المكتب والكرسى اللذان كانا يجلس عليهما فى مكتب المحاماة، وبعض الكتب بالإضافة إلى عدة صور تمثله فى مختلف أطوار حياته.

تكريم الدولة:

كرمته الدولة فى حياته عندما رشحته لجنة التاريخ فى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وكان رئيسها. وقالت لجنة الاختيار فى حيثيات تقريرها: "إنه المؤرخ الأول للحركة القومية فى مصر، فقد عكف على دراسة التاريخ وجمع وثائقه أكثر من ٣٠ سنة .. أخرج خلالها موسوعته التاريخية التى تضم ١٦ جزءا. وكانت فى موضوعها أول مرجع لتاريخ الحركة القومية يمكن الرجوع إليه باللغة العربية. وللأستاذ الرافعى أسلوبه الخاص فى

كتابة التاريخ وله صفاته المميزة، فهو شديد العناية بالاستقصاء وجمع المادة التاريخية .. أمين فى العرض صادق صريح فى الحكم على أحداث التاريخ وشخصياته مهما كلفه ذلك. ولاشك أن الأسلوب الذى عالج به موضوعاته فى الوقت الذى ظهرت فيه مؤلفاته، قد انطوى على قدر من الشجاعة لا يتصف به إلا الجهابذة الصادقون من المفكرين. ومن صفاته المميزة له اعتزازه بقوميته، وغيرته على سمعتها وكرامتها، وتحمسه للمواقف التاريخية المجيدة التى وقفتها القومية العربية ضد المستعمرين وأعوانهم".[٤٨] فمنحته الدولة جائزتها التقديرية للعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦١.

كما كرمه الرئيس السادات أيضا، بمنحه فى ٢٩ مايو سنة ١٩٨٠ قلادة الجمهورية تقديرا لدوره وجهوده فى مجال المحاماة وكتابة تاريخ مصر.

المراجع

١- الدكتـور عبـد اللطيـف حمـزة: أدب المقالـة الصحفيـة فـي مصـر ج٧ ط١ ص٥٢.

٢- عبـد الرحمـن الرافعـى: مذكراتـى ط١ ص٦.

٣- المرجـع السـابق: ص٥.

٤- أحمـد أميـن: حيـاتي ط٣ ص٢٣.

٥- عبـد الرحمـن الرافعـى: مذكراتـى ص٧.

٦- المرجـع السـابق: ص١٠.

٧- حديث خـاص.

٨- صـبرى أبـو المجـد: أميـن الرافعـى ط١ ص٧، ٨، ط٢ ص ٤٩.

٩- المرجـع السـابق: ط١ ص٤٩.

١٠- عبـد الرحمـن الرافعـى: مذكراتـى ص١٧.

١١- حديث خـاص.

١٢- عبـد الرحمـن الرافعـى: مذكراتـى ص١٤٨.

١٣- المرجـع السـابق: ص٣٧.

١٤- الأخبـار عـدد ٢٠ أغسـطس ١٩٧٤.

١٥- حديث خـاص مع المستشـار حلمـى شـاهين.

١٦- العلـم عـدد ١٢ أبريـل ١٩١٢.

١٧- عبـد الرافعـى: محمـد فريـد ط٣ ص٢٥٨.

١٨- المصـور عـدد ١ نوفمـبر ١٩٦٩.

١٩- الدكتـور محمـد حسـين هيكـل: مذكـرات فـى السياسـة المصريـة ج١ ط١٩٧٧ ص٥٢.

٢٠- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ص٤١.
٢١- عبد الرحمن الرافعي: محمد فريد ص٤٤٩.
٢٢- الدكتور يونان لبيب رزق: الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ ط١ ص٢١.
٢٣- محمد زكي عبد القادر: محنة الدستور (١٩٢٣-١٩٥٢) ط٢ ص٣٨.
٢٤- الأهرام عدد ١٥ سبتمبر ١٩٧٨.
٢٥- حديث خاص مع محمد إبراهيم جمعة.
٢٦- حديث خاص.
٢٧- عبد الرحمن الرافعي: في أعقاب الثورة المصرية ج٢ ط١ ص٢١٤.
٢٨- المصور عدد ٨ أغسطس ١٩٨٠.
٢٩- عبد الرحمن الرافعي: ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ط١ ص٥٥.
٣٠- حديث خاص.
٣١- حديث خاص.
٣٢- حديث خاص.
٣٣- التيجاني عامر: السودان تحت الحكم الثنائي ج١ ط١ ص٧٩.
٣٤- عبد الرحمن الرافعي: في أعقاب الثورة المصرية ج٣ ط١ ص٢٤٦.
٣٥- المرجع السابق: ص٢٥٠.
٣٦- حديث خاص.

٣٧- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ص١١١.

٣٨- عبد الرحمن الرافعي: ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ص١٣٦.

٣٩- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ص١٠٩.

٤٠- المرجع السابق: ص١٣٢.

٤١- حديث خاص.

٤٢- عبد الرحمن الرافعي: أربعة عشر عاما في البرلمان ط١ ص١٥٢.

٤٣- الهلال عدد سبتمبر ١٩٥١.

٤٤- فتحي رضوان: مشهورون منسيون ط١ ص٨٠.

٤٥- عبد الرحمن الرافعي: في أعقاب الثورة المصرية ج١ ط١ ص٥.

٤٦- الدكتور عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية في مصر ج٥ ط١ ص١٦١.

٤٧- أكتوبر عدد ١٦ أكتوبر ١٩٨١.

٤٨- آخر ساعة عدد ٧ ديسمبر ١٩٦٦.

كتاباته الصحفية الأولى

(١)

كان من الضرورى لمواجهة الاحتلال البريطانى وألاعيبه الكثيرة، واصطفائه للأصدقاء والأعوان وأجهزة الإعلام، أن توجد صحف وطنية تقدم وجهة النظر الحقيقية والقومية للمواطن المصرى "الغلبان" الذى يتعرض قبل غيره لكل ضغوط الاستعمار .. والذى كانت قضية حتمية للتيار الوطنى أن يتصدى إعلاميا لهذه المؤامرة. ومن هنا ظهرت الحاجة إلى ضرورة إصدار صحف وطنية تقوم بهذه المهمة.

والحقيقة أن مصر باتت منذ أن استولى عليها الأتراك العثمانيون، ولاية عثمانية يدين أهلها بالولاء وترنو، أفئدتهم إلى الأستانة بوصفها مقر الخليفة العثمانى. وعندما احتلتها إنجلترا سنة ١٨٨٢ أصبحت سياسة الأخيرة قائمة على قطع السيطرة العثمانية. واستمرت بعض الصحف تقف إلى جانب السلطان ضد الإنجليز مثل "البرهان"

و"الأهرام" و"المحروسة". كما ساعدت الدولة العثمانية على إصدار صحف بمصر مثل "القاهرة اليومية" و"القاهرة الحرة" و"الفلاح" و"الصادق". بينما كانت جريدة "المؤيد" على العكس من ذلك، تدعو إلى أن تكون مصر للمصريين، والعمل على قطع العلاقة بالدولة العثمانية لما جرته على البلاد من خراب. وقد سعد الاحتلال بهذا الاتجاه الجديد، وعمد هو من جانبه على تشجيع الصحف الأرمنية في مصر. ومساعدة اليهود على إصدار صحفهم. وتأييد الصحف المصرية المؤيدة له "كالمقطم" و"النيل" لمناوأة الدولة العثمانية. وإزاء هذه التيارات المتصارعة في البلاد .. "أدركت الصحافة منذ دخول الإنجليز - على أقل تقدير - أن عليها واجبات وطنية لابد لها من القيام بها، فكان عليها أن تدافع عن المصريين في الميدان السياسي، وتتصدى لمقاومة المحتلين. وتهاجم سياسة التعليم التي وضعها الإنجليز، وأن تقوم بإصلاح ما أفسده الاحتلال من أخلاق المصريين وطباعهم. وكان عليها أيضا أن تدافع عن اللغة العربية على اعتبار أنها عنوان الشخصية المصرية التي يجب أن تنفصل عن الشخصية العثمانية والشخصية الأوربية".[1]

(٢)

ولم تعدم مصر من وهب حياته لإيقاظ أبنائها من سباتهم العميق وتقويض دعائم الاحتلال التى منيت به البلاد .. وسطع فى سمائها منذ سنة ١٨٩٤ نجم مصطفى كامل بعد حصوله على ليسانس الحقوق من جامعة تولوز الفرنسية، فأشعل الأفئدة المصرية بخطبه الوطنية. وأدلى بأحاديث فى مختلف الصحف الأجنبية، وكتب فى الصحف المصرية المهتمة بالقضية كالأهرام و"المؤيد".(٢)، وساح فى أوروبا وزار البلاد المحبة للحرية للدعوة لقضية بلاده.

ووجد مصطفى كامل أن السبيل لإشعال جذوة دعوته باستمرار حتى لا تخمد نارها هو إصدار جريدة يومية، وقد كانت هذه الفكرة هى التمهيد لإصدار مجلة شهرية وجريدة أسبوعية وجريدتين إحداهما بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية. "وقد رأى الفقيد أن لابد له من جريدة يومية يتصل بالرأى العام بواسطتها باستمرار، ويغذى بها عقول القراء ونفوسهم، ثم تكون علماً للحركة الوطنية التى بعثها واقتاد زمامها، وقد اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء)، فكان اختياراً موفقاً. إذ كان اللواء هو الراية التى التف حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته، وبعد وفاته. وكان ظهور اللواء من أبرز أعمال الفقيد وأكبرها أثرا فى الشعب وفى الحركة الوطنية .. وصدر العدد الأول منه يوم الثلاثاء

٢ ينـاير سـنة ١٩٠٠ (غـرة رمضـان سـنة ١٣١٧هـ). وأصـدر مجلـة أسـماها (مجلـة اللـواء). وهـى مجلـة شـهرية تشـتمل علـى أهـم المقـالات التـى تنشـر فـى جريـدة اللـواء اليوميـة، وصـدر العـدد الأول منـها فـى فـبراير سـنة ١٩٠٠. وفـى ١٩٠٥ أصـدر جريـدة أسـبوعية باسـم (العـالم الإسـلامى) كـان ينشـر فيـها المقـالات والأنبـاء التـى تـهم الأمـم والـدول الإسـلامية، وبخاصـة تعريـب مـا تكتبـه الصحـف والمجـلات الأوربيـة عـن العـالم الإسـلامى. ولمـا بـات مـن الضـرورى أن يطلـع الـرأى العـام الأوربـى والأوربيـون المقيمـون فـى مصـر علـى حقـائق الشـئون المصريـة وللدفـاع عـن حقوقـها، فقـد أصـدر مصطفـى كـامل أيضـا فـى مـارس سـنة ١٩٠٧ جريـدة "ليتنـدار أجبسـيان" باللغـة الفرنسـية وجريـدة "دى أجبشـيان سـتاندر" باللغـة الإنجليزيـة، وعقـب وفاتـه فـى ١٠ فـبراير سـنة ١٩٠٨ تولـى الزعيـم محمـد فريـد هـذه المـهام الصحفيـة جميعـا".(٣)

وقـد عـايش الطـالب عبـد الرحمـن الرافعـى إبـان دراسـته العليـا، مـا يحيـق ببـلاده مـن خطـوب. ويجتـذب طالبنـا اهتمـام صـاحب "اللـواء" بمناهضتـه الاحتـلال الإنجلـيزى والوقـوف ضـد جرائـم رجالـه ومستشـاريه وصنائعـه مـن المصرييـن. وتتفجـر مشـكلة بطلـها دانلـوب مستشـار التعليـم الإنجلـيزى لإصـداره قـرارا تنظيميـا للامتحانـات لمنـع طلبـة الحقـوق مـن العمـل بالسياسـة. ويضـرب الطلبـة فـى ينـاير سـنة ١٩٠٦، ويسـاندهم مصطفـى كـامل بقلمـه. ويفتـح داره وصـدره للطلبـة ويلقـاه الرافعـى يومـا مـع زملائـه، وينفعـل الرافعـى بـهذا الحـادث

ويكتب مقالته عن واقعة الإضراب، يقدمها له لينشرها فى جريدة "اللواء" ويعجب بها الأخير ومع ذلك يحجم عن نشرها، لا لعدم صلاحيتها كما يتبادر إلى الذهن، بل خشية أن يتعرض كاتبها للاضطهاد. يذكر الرافعي: "وكتبت مقالة عن هَذا الإضراب، ذهبت بها إلى مصطفى كامل يوم رجوعنا إلى الدراسة، وكانت لهجتها شديدة ضد الاحتلال، فقرأها الزعيم، وأثنى على، ولكن فهمت من حديثه أنه لا يرى نشرها، حرصا على مستقبلي، وكانت هذه المقالة (التى لم تنشر) بدء مراسلتي للصحف".[٤]

(٣)

ومن خلال لقاءات الرافعى المحدودة بمصطفى كامل فى دار اللواء لسماع خطبه ومناقشاته، اكتشف الزعيم الشاب فى الرافعى اهتماماته الوطنية المبكرة ووجد فيها "مريدا" .. يرجو له مستقبلا ناجحا فى المجال القومى. فشجعه على السير فى طريقه، وعرض عليه أن يوفده بعد تخرجه إلى باريس لدراسة الصحافة، ولكن المنية عجلت بوفاته قبل أن يتخرج الرافعى.[٥]

ولقد كان موت مصطفى كامل وحزن الرافعى عليه، هو الباعث الأول لأن يكتب مقالته الأولى المنشورة التى قدمها اللواء وعنوانها "تبدد الشعور الوطنى وتجمعه" .. مهرها بإمضاء حقوقى. أوضح فيها خواطره وآماله فى الجهاد،

ورغبته فى أن يستكمل النابغون من أهل العلم والفكر - وهو منهم كما انتوى - السير فى الطريق الذى بدأه معلمه الزعيم الشاب ".. جئت أخاطب كل مصرى يفكر ويشعر. من كان يشعر بمصائب بلاده ويتألم من وقعها ويريد لأمته استقلالها فليقرن الشعور بالعمل. وليأخذ فى زحزحة تلك المصائب واسترداد ذلك الاستقلال. فالعاطفة الوطنية إذا لم يصحبها العمل، أصبحت عرضة للخمود إذا خمد المحرك لها. والضامن الوحيد لها هو اتخاذها شكلاً عملياً به ترسخ وتؤثر وتزداد قوة وشدة. يجب علينا أن نعتقد أن العاطفة الوطنية ليست بمنيلة أمة الاستقلال ما لم تبلغ فى النفوس مكانة تلهم صاحبها إلى - الاستقلال - وإيثاره الموت على حياة فى استعباد. تلك الغاية التى يجب أن يجرى إليها الشعور. فإذا نحن اجتزنا خطوات كبرى فى شعورنا فمن المؤكد أننا لم نصل بعد إلى نتيجته، ما دمنا لا نزال راضين بأن نحيا والاحتلال فينا وذلك رغم تألمنا منه. هذه هى الغاية الشريفة التى يجب على من يتألمون لحال بلادهم أن يتكاتفوا على العمل لها، بتقوية الشعور حتى يصل إلى تلك الدرجة القصوى. هذا التكاتف يولد ظهور الجمعيات التى تعمل لتحقيق هذه الغاية. فالجمعيات أول مظهر عملى للشعور الوطنى الصحيح وأجل طريقة نخدمه بها ونحميه من العبث والتبدد ..".[٦]

وفى النصف الثانى من عام ١٩٠٨ يترك الرافعى أسيوط للقاهرة، ويلتقى بالزعيم محمد فريد الذى يدعوه إلى العمل

محررا فى جريدة "اللواء". فيسارع بالقبول سعيدا بأن يعيش فى البيئة التى يريد أن يتحرك فيها.

وابتدأ المحرر الجديد عمله بحماس شديد، وكان أول نشاطه عكوفه على الترجمة من الفرنسية التى يجيدها إلى العربية، وقام بترجمة مقالات إسماعيل شيمى بك وهو أحد الوطنيين ومن أصدقاء مصطفى كامل .. حيث ساهم مساهمة فعالة فى تكوين الحزب الوطنى، ويعد من خيرة المحامين المصريين الذين شاركوا بجهدهم فى الدفاع عن المظلومين. وقد تناولت الترجمة الحياة السياسية فى مصر فى العقد الأول من القرن العشرين. يقول مثلا عن تأليف وزارة بطرس باشا غالى فى نوفمبر ١٩٠٨ بعد استقالة وزارة مصطفى فهمى باشا الذى استمر فى الحكم ثلاثة عشر عاما، وكذلك مدينا سياسة الوفاق مع الإنجليز التى تؤكد ضياع حرية مصر .. "كنا نؤمل فى أن نحكم أنفسنا بأنفسنا، كنا نعمل لنثبت للعالم المتمدن كفاءتنا واستعدادنا، ولكن حكم علينا الآن بأننا لا نستحق نعمة الدستور، وهذا ما قاله الاحتلال على لسان السير جراى والسير جورست. كنا نرتكن على عطف أميرنا المحبوب فى حصولنا على الدستور، ولكننا ما أصبنا وخاب أملنا. فإن الاتفاق قد ساد فى هذه الأيام، نعم قد صرح الجانب العالى حاكم مصر والسودان الذى تعلقت به آمال سبعة عشر مليونا من النفوس سكان هذين القطرين صرح بأنه لا يحكم الآن إلا مع الاحتلال لا بدونه، وأنى لا أتكهن فى قولى هذا،

فسمو الخديو قد قاله فى خطبته الأخيرة، إن الأمير حر فى أن يشرك فى عرشه من يرضى عنه، وليس لأحد الحق فى إرجاعه عن رأيه. ولكن بما أن بيننا وبين ذلك العرش طريقا من إرادتنا لا يمكن اجتيازه، فليتكرم بمنحنا الحق فى أن نعتبر كل اتفاق يكون أساسه التصرف فى حريتنا ملغيا وباطلا. إن الاحتلال ينخدع كثيرا إذا ظن أن فى استطاعته أن يقتل فينا كل رجاء فى مستقبل حسن، فإن محبة الأمير مهما عظم شأنه لا تختلف ألبتة عن محبة أى فرد، وإرادة الفرد لا تتغلب على إرادة المجموع. تطالب الآن الأمة كلها بالاستقلال وسنقابل من الآن كل القوانين الصارمة التى لا يألون جهدا فى سنها بالهتاف: ليحيا الاستقلال وليحيا الوطن كله واحدا لا يتجزأ، ولنتحين ساعة استقلالنا عاجلا أو آجلا. فغايتنا شريفة، وحقوقنا لا تسقط ولا تباع، فإنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون. فإذا أردتم أن تخضعونا خضوعا لا قائمة لنا بعده، فاجعلوا مصر قبرا لأبنائها. لقد أصدر الاحتلال حكمه علينا، وأمن الخديو على ما فعل، ووزارة الوفاق قد تألفت، فلا مناص من ذلك التنفيذ. فلنجتمع صفا صفا، ولنشيع الحرية مارة فى نعشها"![٧]

وكانت كتابات إسماعيل شيمى بك المحامى آية فى البلاغة، فأجهد الرافعى نفسه فى إبرازها فى ترجمتها للعربية. وقد اغتبط محمد فريد بهذه الترجمة عندما كان يراجع معظمها، وأخذ يشجع صاحبها .. مما كان له بليغ الأثر فى نفس الرافعى، ودفعه إلى المزيد من الجهد.[٨]

(٤)

وكان يروق للصحفى الشاب أن يكتب عدة مقالات فى موضوع واحد .. فينشر فى الصفحات الأولى من "اللواء" فى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٠٨ سلسلة مقالات بلغت ستا، تحمل عنوان "آمالنا فى الدستور"[٩] وقعها بخلاف مقالته الأولى، باسمه "عبدالرحمن الرافعى ومتخرج من الحقوق" .. استهلها بقوله: "يتساءل الناس ماذا عسى يصير إليه أمر الدستور فى هذا العام، بعدما كثرت الأراجيف بأن ذوى الشأن متفقون على إهمال تلك المطالب التى ينشرها المصريون من صميم قلوبهم. يتساءلون هل صحيح ما يسمعون وإن كان صحيحا فماذا نحن فاعلون؟ إن الدستور حق طبيعى لكل أمة مهما تدنت أو ارتقت، لأن مثله مثل الحرية الشخصية للأفراد .. يتساوى فيها العالم والجاهل والقوى والضعيف. فإذا كانت قضيتنا قاصرة على تمييز المحق والمبطل لهان علينا الأمر ولسهل علينا نيل حقوقنا. لأن الفطرة تقضى بها والرسميات تقررها، ولكن القضية أكبر وأعقد من ذلك بكثير. القضايا السياسية لا أهمية فيها للحق والباطل، ولكن الحكم فيها معلق على مقدار تأثير كل عامل على غيره. فالذى يسير القضية هو قوة التأثير لا قوة الحق، إذا اشتبكت عدة عوامل فى قضية سياسية قام التنازع بينها فسطت العوامل القوية على الضعيفة وسارت القضية قاصدة وجهة العالم الأقوى مهما كان بعده أو قربه عن الحق. كذلك الحال فى المسألة المصرية".

ويحدثنا في مقالته الثانية عن سياسة الاحتلال إزاء المسألة المصرية وظهور مقاومة الأمة .. "إذا منيت الأمة بالاحتلال الأجنبي واستبد في شئونها أخذت ذاتيتها تفني في أشخاص المحتلين إلى أن تأنس الأمة من نفسها نفورا من الاحتلال يدفعها نحو تلمس الخلاص منه".

ويشير في مقالته الثالثة إلى أن هدف الاستعمار لا يتغير مهما تغيرت وسائله، والاحتلال لا يصادم ظاهريا الطبائع، "ورأس مال الاحتلال رضاؤنا عنه، إن الذى ينقصنا هو أن نغضب ممن يغتصب حقوقنا وأن نعرف كيف نغضب منه".

ويعالج الرافعي في المقالة الرابعة ضرورة غضب الجماهير على محتليها، مبينا الصلة بين الألم والاستقلال بحسبان الأول كما يعبر هو رأسمال الثاني! وتأثير الألم في النفوس، وحجم رأس مالنا من الألم، وفي أى دور نحن من أدواره، والمحرك له: "إذا نحن ألقينا بنظرنا إلى تدرج الأمم في سبيل الاستقلال، رأينا أن الأمة التي لا تتألم من المستبد تؤاتيه في مطالبه فتتخلق بأخلاق الذل والجبن والنفاق .. وهي الأخلاق التي يستلزمها الانصياع لحكمه. فإذا هي ابتدأت تتألم منه أخذت عاطفة الألم تحارب العيوب التي ألصقها الحكم الاستبدادي بالنفوس، وكلما ازداد الألم شدة انهزمت العيوب أمامه، إلى أن تتطهر القلوب من جراثيمها فيكسبها الألم قوة لا يسع المستبد مهما بلغ بطشه أن يصادرها، لأنها تيار طبيعي لابد أن يأخذ مجراه حتى يسكن من نفسه .. إن المصائب والآلام خير أستاذ للإنسان وخير سائق له في طريق الكمال".

ويواصل الرافعى الحديث فى مقالاته عما أصاب النفوس بعد الاحتلال من خور ونفاق ورياء، فما حركتها صيحات الدعاة والمرشدين لنقص إحساسها. وما اهتم الكتاب بعلاج هذه الحالة بل بات أمرهم كتابة ما لا يبطنون، ويراهم القوم من قمة الكتاب. ويعتمد كاتبنا على الشباب فى تغيير هذا الحال .. فلا تنهض بالأمم كما يقول إلا القوى الفتية صاحبة الأرواح الكبيرة، ويعنى بها الشخصيات النضالية الأصيلة. ويستعين بالإسلام ونبيه ورجاله فى تأكيد ذلك .. "فلو كان - محمد - عليه الصلاة والسلام ذا روح ضعيفة لما ظل محافظا لفضائله بين المفاسد التى علقت بالمجتمع فى ذلك العهد، ولما عرض نفسه لاضطهاد قومه وإيذائهم له .. بل لانهزمت روحه أمام العقبات التى اعترضت فى طريقه .. تغلبت روحه القوية على تلك العقبات وتسلطت على أرواح قومه بعد جهاد عنيف لا يزال التاريخ فى حيرة من تفسير حوادثه، وفاضت على تلك الأرواح بجزء من قوتها فكان مكان هذا الجزء كافيا لأن يجعل من قومه رجالا قلبوا بسلطاتهم وجه العالم فى فترة من الزمن".

ويختتم الرافعى موضوعه بدعوة الشباب إلى السير على هدى من سبقهم، بالاتحاد فى العمل من أجل رفعة الوطن بالرغم بما يحوطهم من مخاطر. مع الأخذ بسرية العمل وإخفاء ما يطويه المصرى من مشروعات، خوفا من أن يصل خبرها إلى العدو المحتل .. فيعمل على إفسادها قبل

أن ترى النور. وبذلك تفقد مصر باستمرار كل ما تأمل من إصلاح، وهو عيب لا يزال فينا من قديم لم نتخلص منه بعد .. "ما أشد حاجتنا إلى إحاطة مشاريعنا وهي في بدئها بالتكتم وما أحقنا أن نهتدى بقول نبينا عليه الصلاة والسلام "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان". ها نحن نرى أعداءنا يتبعون ذلك المبدأ الشريف فى محاربتهم لنا، وهم أشد منا ناسا وأكثر مالا وأعز نفرا. نرى الإنجليز فى بلادنا لا يقدمون على أمر يحاربوننا به، إلا بعد أن يعدوا له المعدات فى الخفاء ويتشاوروا فيه وفى الخطة التى يتبعونها فى تحقيقه. فلا نشعر إلا والمشروع قد ظهر فى عالم الوجود، وصرنا معرضين لآثاره من غير أن يكون لنا سابق تنبؤ به .. ونحن الضعفاء القليلو الحول والقوة لا نشرع فى أمر، إلا ونجاهر ونوقف الملأ على ما سنقوم به والخطة التى نسير عليها. وبذلك نعطى لأعدائنا سلاحا يحاربون به كل مشروع يرون فيه عرقلة لمساعيهم ونياتهم، لأنهم بإطلاعهم على نياتنا وعلى المعدات التى نعدها .. يسهل عليهم أن يعملوا على إحباط هذا المشروع قبل أن يتحقق ويعرفوا موقع الضعف فيه .. أو بالأقل يمكنهم أن يأخذوا لأنفسهم الحيطة من نتائجه".

(٥)

ونشر الرافعى ثلاث مقالات بعنوان "التاريخ يعيد نفسه .. الدولة العلية وأوروبا منذ ثلاثين عاما".[١٠] يستعرض فيها وضع تركيا السياسى والحربى ومحاربتها لروسيا وانتصار الأخيرة عليها، وتدخل الدول الأوربية فى الحرب التى انتهت بمعاهدة برلين، وتحدث عن الحرب البلقانية الدائرة بين تركيا والبلقان، حيث ساندت الأخيرة الدول الأوربية للتخلص من التبعية التركية، حتى قال المؤرخون كلمة صدقتها الحوادث وهى أن ميدان المسألة الشرقية فى الغرب لا فى الشرق. وينبرى عبد الرحمن الرافعى مدافعا عن الدولة العثمانية فى دعوتها لإنشاء الجامعة الإسلامية فى مقالته "الجامعة الإسلامية والبانسلمزم والفرق بينهما" بعد أن هاجم المسيو برتران فى مقالته (نخبة رجال الشرق) الجامعة الإسلامية أو ما يسميه كتاب أوروبا (بالبانسلمزم) ومنتظرا الفشل لهذه الدعوة، لتباعد الشعوب الإسلامية عن بعضها". "يفهم الأوربيون من البانسلمزم اتحاد المسلمين فى كافة أنحاء الأرض وتآمرهم على الإيقاع بالمسيحيين واستئصال شأفتهم والقضاء على دولتهم، ولهم الحق فى أن يحاربوا ذلك المبدأ الذى ليس من الإسلام فى شىء. ولكن الجامعة الإسلامية أشرف وأعلى من ذلك بكثير. إذ هى تلك الرابطة أو تلك الآلية التى تجمع قلوب المسلمين على

اختلاف أجناسهم ولغاتهم، وتبعث فيهم روح التعاضد والتعاون على النهوض بدولهم إلى مستوى الأمم الحية الرشيدة. فهى مبدأ شريف لا يصح أن يقابل من الذين يقولون إنهم يغارون على تقدم الإنسانية وتحريرها إلا بالبشر والارتياح، لأنه يرمى إلى إنهاض قسم كبير من العالم الإنسانى وهو مجموع الأمم الإسلامية. إن المسلمين يعملون على التعاون فى إصلاح ما فسد من شئونهم الاجتماعية والسياسية، ليستعيدوا فى الوجود منزلتهم السابقة" .(١١)

والحقيقة أن عبد الرحمن الرافعى لم يغفل يوما الكتابة عن الخليفة العثمانى القابع فى استنبول، حتى بدا محاميا يترافع عن موكله الذى يؤمن بقضيته .. فينشر مقالة من تورينو بإيطاليا فى سنة ١٩١١ عندما كان يصاحب محمد فريد فى إحدى جولاته، بعنوان "الأمم سيف وأخلاق" يتحدث فيها عن معرض تورينو، والأمم الأوربية والقوة الحربية، وإيطاليا وطرابلس الغرب، وأوروبا والإسلام. وواجبنا نحو الدولة العثمانية ونحو أنفسنا فى حالة مهاجمة إيطاليا لطرابلس الغرب إحدى ولايات الدولة العثمانية - التى وقعت فعلا بعد ذلك - ويدعو الرافعى العالم العربى كما سبق أن دعا مصطفى كامل المصريين عندما أدلى بحديث لجريدة برلينر تاجبلاط فى أبريل سنة ١٨٩٧ "إنه وإن كان المصرى لا يعرف إلا وطنا واحدا وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش دولة

الخلافة".[١٢] إلى التبرع للخليفة العثماني: ".. ماذا يجب علينا إزاء هذا الخطر المحدق وماذا يطلب منا لنجعل لنا وجودا محترما بين الأمم؟ أولا - نبذل ما نستطيع من أموالنا لمساعدة قوة الدولة العلية. ثانيا - أن نجتهد فى إنشاء أبنائنا نشأة حربية، هذا ما يجب علينا نحو الدولة ونحو أنفسنا. وما هو بالشيء المحال أو البعيد المنال بدلا من ضياع الآلاف فى أوروبا - فلنستفد من تلك الدروس التى تلقيها علينا الحوادث ولا نكن من الذين كتب الله عليهم أن يكونوا عبرة ومثلا للاخرين".[١٣]

ولقد لاقت دعوة الرافعى للتبرع هذه استجابة قوية من الشعب المصرى فى العاصمة والأقاليم على السواء، حتى لقد نشرت جريدة "العلم" فى عددها الصادر فى ١ نوفمبر ١٩١١ خبرا من عاصمة الدقهلية فى صفحتها الثانية بعنوان "أريحية السيدات بلجنة المنصورة" يقول: ذكرنا فى عدد أول أمس أنه قد تألفت لجنة من فضليات السيدات المنصوريات لإعانة الدولة العلية تلبية لدعوة السيدتين الفاضلتين حرم حضرة طاهرى بك وكريمة حضرة قريعى بك وقد وجدنا أن نأتى على ما قيل فى هذا الاجتماع من الخطب .. ونشرت نص خطبة الفاضلة سعدية الزيات كريمة حضرة مصطفى بك الزيات ونص خطبة كريمة الدكتور أحمد بك فهمى ونص خطبة الفاضلة فاطمة يوسف وغيرهن وسننشر فى عدد الغد أسماء حضرات المكتتبات وما اكتتبت به كل منهن".

ويبعث مرة أخرى من باريس بمقالة عن "التعصب المسيحى والدول الأوربية، أوروبا والدولة العلية والإسلام".[١٤] وأخرى بعد أسبوعين عن "الإسلام فى أفريقيا، ومسألة طرابلس الغرب والمسألة المراكشية".[١٥]" وقبل أن يغادر العاصمة الفرنسية يبعث بمقالة عن "الوطنية والإنسانية وكيف يفهمونها فى أوروبا" تحمل رؤية متقدمة لأنه يلتفت فيها إلى أن إيمان الغرب بالحرية قضية داخلية وليست خارجية، أى أنها للصالح الخاص بشعوبه وليس للصالح العام المتصل بالبشرية جمعاء وبذلك تصبح الحرية هى حرية القوى. "لقد امتزجت وطنية الإيطاليين بظلم الأمم واضطهادها وضحوا فى سبيلها بسعادة الألوف منهم، دخلت إيطاليا طرابلس مسوقة بدافع الرأى العام الإيطالى مدفوعة بوطنية الأمة الإيطالية وطنية أشربت استعباد الأمم لا لسبب سوى ما فطر فى قلوب أولئك الناس من الميل إلى الطمع وسفك الدماء".[١٦]

ولما كان من عادة رجال الحزب الوطنى عند رجوعهم لمصر من أوروبا أن يعرجوا على استنبول مقر الخلافة، فقد اختتم محمد فريد وعبد الرحمن الرافعى رحلتهما إلى أوروبا بزيارة الخليفة العثمانى. ومن هناك يبعث الرافعى بمقالة "يومان فى مجلس المبعوثين"[١٧] - لحضرة الأصولى الفاضل صاحب الإمضاء - تحدث فيها عن حالة الأفكار فى الأستانة والصدر الأعظم فى المجلس.

(٦)

كان من عادة المندوب السامى البريطانى فى مصر، أن يبعث كل عام لحكومته بتقرير عما قدمه من خدمات وأعمال من أجل رفاهية الشعب المصرى كما يدعى الاحتلال. وعندما نشر تقرير السير ألدن غورست عن الحالة فى مصر سنة ١٩٠٨، انبرى الرافعى للرد عليه فى سلسلة مقالات تحت عنوان "شئون تاريخية"(١٨) بلغت تسع عشرة مقالة بجريدة "اللواء" لم يمهرها بتوقيعه، مدينا هذا التقرير وسياسة الاستعمار البريطانى. يقول فى أولها: "ظهر تقرير ذلك العامل الصامت السير ألدن غورست سنة ١٩٠٨ فتلقفناه متوقعين أن يأتينا بشىء جديد مستطرف أو مستظرف، ولكننا تصفحناه فوجدناه لا ينحرف عن الخطة التى رسمها له سلفه اللورد كرومر وسار عليها فى أيام مقامه بهذه الديار، لا نريد هنا أن نتعرض لما امتلأ به هذا التقرير من الإحصاءات والجداول الرسمية بالنقض أو الاعتراض، فإن لكل منهما مقاما يوفى فيه حقه من ذلك، ولكننا يجب أن نصف للقراء مصر والمصريين طبقا لما يؤخذ من ذلك التقرير. كتب السير غورست تقريره وهو ينظر إلى المصريين بالمنظار الإنجليزى الذى كان يستعمله اللورد كرومر، فلم يأمن الإتيان فى حديثه عنهم بالمتناقضات العجيبة التى ينبغى أن تصان عن أمثالها عبارات رجال السياسة المحنكين".

وفى الأيام التالية يستمر عبد الرحمن الرافعى فى نشر سلسلة مقالاته، فيعرض لثورة الأفكار فى مصر بعد الانقلاب العثمانى، وموقف الحزب الوطنى من الإنجليز والخديو، والرأى فى قضية الطلبة والاشتغال بالسياسة. ثم يعرض لحوادث سنة ١٩٠٨ ووزارة مصطفى فهمي، ومسألة الأزهر وحمادة باشا، والصحافة والشباب، والصحافة والموظفون، والصحافة وهيبة الحكومة، والصحافة والتعصب الدينى، والصحافة والرأى العام فى نظر غورست، وجرائم الصحافة وعقوباتها بقانون المطبوعات سنة ١٨٨١، وأعمال مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية، ومناقشة الحالة المالية.

(٧)

وكان عبد الرحمن الرافعي يرى من مسئوليات الكاتب الصحفى كشف مفاسد الاحتلال، لذلك عندما طلب منه محمد فريد أن يقدم بحثا بالفرنسية فى هذا المعنى لإلقائه بمؤتمر بروكسل كى يسمع أوروبا صوت مصر الذى سيعقد فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٠ (كان الزعيم قد اعتزم عقده فى باريس أولا، ولكن الحكومة الفرنسية منعته فتم عقده فى بلجيكا فى موعده، حيث دعا إليه عدد كبير من رجال السياسة والاقتصاد فى أوروبا)، وفعل الرافعى. ولكنه لم يتمكن من السفر لتوليه رئاسة تحرير جريدة "العلم" بدلا من أخيه أمين الرافعى الذى سافر لحضور المؤتمر، وقد ألقى الخطبة بدلا منه فؤاد باشا حسيب بجلسة ٢٤ سبتمبر. وقد ترجم الرافعى خطبته

بعد ذلك إلى العربية ونشرت فى مقالتين تحت عنوان "مركز الصحافة فى مصر. والأدوار التى تعاقبت عليها فى عهد الاحتلال الإنجليزى"[١٩] تناول فيها الصحافة بعد الاحتلال، وسياسة اللورد كرومر إزاءها، وحادثة دنشواى والصحافة. وموقف السير غورست من الصحافة المصرية ومحاربته لها التى بدأت بالمحاكمات وبقانون المطبوعات عام ١٨٨١، والصحافة ومسألة قناة السويس. والقوانين الجديدة الخاصة بالصحافة، والاحتلال والصحافة الأوربية.

(٨)

وكان الرافعى كثير النصح للشباب فى التوجه إلى الله، وضرورة الاهتمام ببلده، والعمل بحيطة وسرية للخلاص من كابوس الاحتلال الجاثم على صدر الشعب. ولذلك فهو يواصل كتاباته الصحفية عن "الرأى العام ورقابته على الأفراد".[٢٠] داعيا رجال الغد إلى دراسة النظم الديمقراطية فى الدول الأوربية، ومجاراة شعوبها فى معاملتها الممتازة والحسنة لأبنائها وزعمائها المثاليين الصادقين الذين يقدمون كل جهدهم وعرقهم لرفعة وطنهم. مع أخذ الموقف المضاد ونبذ كل من يعمل ضد بلده، لا كما يعامل الشعب المصرى من يخدعه فيتساهل معه ولا يقسوا عليه ولا ينبذه. يقول مؤرخنا "يشاهد الإنسان أمرا جديدا يستوقف النظر، وهو أن رجال الطبقة الراقية الذين يطلق عليهم اسم كبراء الأمة فى مصر، قلما يهتمون فى سيرتهم وأعمالهم بحكم أمتهم عليهم .. فنراهم يقومون على المجاهرة بما يصادر رغائب الأمة ويعارض

مصلحتها. ومع ذلك لا يبالون أن يقول الناس عنهم إنهم أضرو بأمتهم أو انحازوا إلى صفوف الأعداء. ومن الغريب أن معظم هذا الفريق قد تلقوا العلوم على نفس الطريقة التى يتلقاها الأوربيون، وكثيرون منهم قد تلقوها فى نفس مدارس أوروبا. ولكننا نرى الأوربى يضحى فى خدمة أمته ويهب فى سبيل ذلك ماله وصحته. ونرى المصرى يستولى على مشاعره مبدأ المصلحة الشخصية. فلماذا هذا الفارق والاثنان قد نشأ نشأة واحدة؟ اللهم إن السبب بسيط وهو أن الأوربى يجد من أمته رقيبا حسيبا على أعماله، فإذا هو حاد عن الطرق الذى يتفق مع إرادة الأمة .. كان فى ذلك القضاء الأخير على حياته وحكمت عليه أمته بالانتظام فى سلك من ماتوا الميتة الأبدية".

ويستمر عبد الرحمن الرافعى فى تشجيعه للشباب ودفعه إلى النهوض بمصر وبنائها ورفعتها، ففى مقالته "النابغون فى مصر" يلفت النظر إلى تعمد الاحتلال البريطانى تعطيل طاقة المتعلمين المصريين والقضاء على أنشطتهم الهادفة إلى خدمة بلدهم، فيطالب كاتبنا هذا الشباب بمقاومة هذا المخطط الاستعمارى، كما فعل ويفعل وسيفعل غيرهم من الشباب الوطنى فى كل بلد تعرض للاحتلال .. "إن المرء إذا ضاقت به الحياة وأحس بالحاجة إلى الحصول على رزقه رأى فى نفسه قوة غريبة تدفعه إلى الإتيان بأعمال يعجز عنها فى العادة. ولم يعدم وسيلة يصل بها إلى إدراك حاجة تلك النظرية الطبيعية التى نشاهد كل يوم دليلا على صحتها، ليست خاصة بحياة الأفراد بل هى صحيحة أيضا فى حياة الأمم. فالأمة التى تريد استقلالها إرادة صحيحة - مثلما يريد

المرء أن يأكل ويشرب - تنبغ فيها القرائح ويظهر فيها الرجال والكبار المعروفون باسم أبطال الحرية". (٢١)

ثم ينير الرافعي لشبابنا طريقه الوطني "في آمال مصر في نشئها الجديد". بدعوته للاهتمام بمستقبل بلده عقب تخرجه من المدارس .. كما كان يكافح إبان دراسته. لا تشغله حياته الخاصة عن حياته العامة، والعمل على تحرير الوطن، لأن على المرء أن يكافح ويناضل ضد كل المعوقات. ويدعوهم لتتبع شباب مصطفى كامل للسير على طريقه من أجل مصر ".. ليذكر كل منهم أن رجلا كبيرا واحدا إذا ظهر في أمة، كان في استطاعته أن ينشئها نشأة جديدة ويرفع ذكرها في الخافقين، وأن كل إنسان يصل إلى منزلة كبار الرجال إذا طمح إلى تلك المنزلة وعزم عزما صادقا على الوصول إليها. فإذا تحقق أملنا وتجنب الجيل الحاضر عيوب الجيل الماضي كان لنا أن نترقب ذلك اليوم السعيد الذي نرى فيه أفرادا - مهما قل عددهم - يعيدون في مصر ما قام به أبطال الحرية في البلدان جميعها". (٢٢)

وفي مقالته "رجال الغد"(٢٣) يتحدث عن الشباب ومسئوليتهم المستقبلية، ولذا فعليهم الإعداد لها، وأولى وسائل هذا الإعداد هو التخلص من عيوبهم وضعفهم. وكان عبد الرحمن الرافعي يكره مفهوم المثل الشعبي الذي يقول "إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه". ويجد أن التكالب على الوظائف الحكومية هو بداية طريق الإفساد للشباب المصري، لأنه يجعلهم عبيد الوظيفة وعبيد الرؤساء الإنجليز أو الموالين لهم من المصريين. وهكذا يطالب

الأجيـال الجديـدة فـى مقالتـه "هـل ضـاقت سـبل الحيـاة فـى مصـر"[٢٤] بـالانخراط فـى الأعمـال الحـرة، فـهى ميـدان فسـيح يعتمـد علـى الكفـاءة والقـدرة والحريـة، تعطـى أصحابـها شـجاعة فـى مواجهـة المواقـف الخاصـة والعامـة، لأنـهم لا يعتمـدون علـى مـن فـى يـده المنـح والمنـع. ويجـرى كاتبنـا مقارنـة بيـن وظيفـة المحـامى فـى فرنسـا وزميلـه فـى مصـر، فالأعمـال الحـرة لا تتطلب أكـثر مـن الجـهد والعـرق لتعطـى أكلـها.

(٩)

عكـف الكـاتب عبـد الرحمـن الرافعـى فـى هـذه الآونـة علـى تنـاول الجـانب الاقتصـادى .. فبجـانب كتاباتـه السياسـية والوطنيـة أخـذ ينشـر بيـن أعـوام ١٩٠٨، ١٩١٣ سلسـلة جديـدة عـن الاقتصـاد منـها "حياتنـا الاقتصاديـة فـى خطـر"[٢٥] فـى ثـلاث مقـالات .. عـرض فيـها للاحتـلال السياسـي والاقتصـادى وتراجـع الأول وخطـورة الثـانى الـذى يمنـع اسـتقلال البـلاد، واتـهم الحكومـة بإهمـال الاقتصـاد الوطنـى وعـدم مسـاندتها لأبنـاء البـلاد فـى تطويـر الصناعـة الوطنيـة لتتخلـص مـن سـيادة وتسـلط الصناعـات الأجنبيـة. والدعـوة للأخـذ بمـا فعلتـه اليابـان بجـهدها الذاتـى، واسـتفادتها بـالتطور الأوربـى. وإهمـال الطبقـة المتعلمـة عندنـا مسـاعدة الفـلاح المصـرى وتعليمـه مـا شـهدوه فـى الخـارج مـن التعاونيـات والصناعـات الريفيـة، حتـى لا يسـتمر سـقوط الفـلاح بيـن براثـن المرابـى الأجنبـى. وكذلـك

العمل على توعية هذا المزارع حتى لا يسقط ضحية الشراب والخمور فى مجاراته للإقطاعيين. ثم يعالج الأنظمة الاقتصادية فى أوربا ويقارن بما يحدث فى مصر. ويكتب الرافعى أيضا "مسئولية الخاصة من الأمة"(٢٦) فى مقالتين مشيرا إلى المتعلمين وتقليدهم بلا تفكير لما تعرض المدنية الغربية، وتهالكهم على المنتجات الأجنبية مما أدى إلى بوار المحلية. وفى مقاله "الانقلابات الاقتصادية وكيف تمت فى أوروبا وفى مصر".(٢٧) تناول الوعى العمالى فى أوربا وتأسيسهم للجمعيات الكثيرة التى تدافع عن مصالحهم، على العكس فى مصر. ويقول الرافعى "نحن أيضا قد فتنتنا زخارف المدنية الغربية فأردنا أن نقتنيها بأى وسيلة كانت. فبذلنا فى سبيلها صناعتنا الأهلية وأقمنا على أنقاضها بناء الصناعة الأجنبية. فما أبعد الفرق بيننا وبين من نزعم أننا نقلدهم ونجاريهم فى مضمار التقدم والتضامن".

ويكتب الرافعى سلسلة مقالات اقتصادية أخرى بلغ عددها ستا تحت عنوان كبير هو "الميزان الاقتصادى فى مصر"(٢٨) ثم عناوين فرعية هى .. ماهية الميزان الاقتصادى، الميزان فى عهد محمد على، الميزان من عهد محمد على إلى الاحتلال، الأموال الأجنبية فى مصر قبل الاحتلال، تقلبات الميزان فى خمس وعشرين سنة، كيف يعتدل الميزان. ثم يكتب مقاله "الكماليات فى مصر، وخسائر مصر من الدخان".(٢٩) وأخرى عن "عوائق الصناعة الوطنية فى مصر"(٣٠) التى يقول فيها "قال أحد الكتاب الأوروبيين يصف حال بلادنا فى حرمانها من الصناعة واعتمادها

فى ثروتها على نوع واحد من الزراعة وهو القطن: إن مصر تمشى فى حياتها الاقتصادية كما يمشى الأعرج على قدم واحدة وهى فى مشيتها هذه لا ترتكز إلا على أصبع واحدة من أصابع تلك القدم. وهذا أبلغ ما يقال فى وصف الخطر الذى يهدد بلادنا من بقائها على تلك الحال. إن أمام الصناعة الوطنية عقبات وعوائق كبيرة بعضها آت من الحكومة وبعضها ناشئ من تقاعس الأمة وإهمالها".

المراجع

١- دكتور سامي عزيز: الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ط١ ص٢٣٣.

٢- دكتور عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية في مصر - مصطفى كامل ج٥ ط١ ص٨٤. ١١١.

٣- عبد الرحمن الرافعي: مصطفى كامل ط٤ ص١٤٥. ١٤٧.

٤- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ط١ ص١٢.

٥- المرجع السابق: ص١٠.

٦- اللواء عدد ٩ مارس ١٩٠٨.

٧- اللواء عدد ١٧ نوفمبر ١٩٠٨.

٨- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ط١ ص١٥.

٩- اللواء أعداد ٤-٦-١١-١٧-٢١ أكتوبر - ٢ نوفمبر ١٩٠٨.

١٠- اللواء أعداد ٢٤-٢٥ أكتوبر - ٤ نوفمبر ١٩٠٨.

١١ اللواء عدد ١٤ مارس ١٩٠٩.

١٢- عبد الرحمن الرافعي: مصطفى كامل ط٤ ص٣٦٥.

١٣- العلم عدد ٦ أكتوبر ١٩١١.

١٤- العلم عدد ١٣ أكتوبر ١٩١١.

١٥- العلم عدد ١٦ أكتوبر ١٩١١.

١٦- العلم عدد ٣٠ أكتوبر ١٩١١.

١٧- العلم عدد ١ أكتوبر ١٩١١.

١٨- اللواء أعداد ٨-٩-١٠-١١-١٢-١٣-١٥-١٧-١٨-١٩-٢٠-٢٢-٢٤-٢٥-٢٩-٣١ مايو ١-٢-٥ يونية ١٩٠٩.

١٩- العلم عدد ٢٥-٢٧ أكتوبر ١٩١٠.

٢٠- اللـواء عــدد ٢٥ نوفمــبر ١٩٠٨.

٢١- اللـواء عــدد ١٣ يونيــة ١٩٠٩.

٢٢- اللـواء عــدد ١٥ يونيــة ١٩٠٩.

٢٣- اللـواء عــدد ٢٠ يونيــة ١٩٠٩.

٢٤- اللـواء عــدد ٢٠ يوليــة ١٩٠٩.

٢٥- اللـواء أعــداد ١١-١٤-٢١ ينــاير ١٩٠٩.

٢٦- اللـواء أعــداد ٢٤-٢٨ فــبراير ١٩٠٩.

٢٧- اللـواء عــدد ٧ مــارس ١٩٠٩.

٢٨- الشــعب أعــداد ٢٣ ســبتمبر-١-٢-٥-١٠-١٤ أكتوبــر ١٩١٣.

٢٩- الشــعب عــدد ٢٤ أكتوبــر ١٩١٣.

٣٠- الشــعب عــدد ١٨ نوفمــبر ١٩١٣.

اهتماماته الفكرية الأولى

(١)

التفت عبد الرحمن الرافعى منذ وقت مبكر فى حياته إلى الربط بين العمل السياسى والقومى والعمل الاقتصادى. فعكف على إصدار مؤلفات ذات اتجاه تقدمى بالنسبة إلى زمنها، لتوعية المواطن المصرى ورفع مستواه السياسى والاجتماعى والاقتصادى. ليقف على ما يدور فى العالم من أنظمة مختلفة، خاصة فى البلاد التى تعرضت يوما للاحتلال، وناضلته بقوة حتى حصلت على استقلالها. كما كان هدف الرافعى من وضع هذه المؤلفات أيضا، هو تحريض المصريين على تحطيم أسطورة الخوف من الاستعمار العملاق لزلزلة بنيان الطغيان والاضطهاد والاستبداد.

فى "مذكراتى" الذى صدر فى عام ١٩٥٢، وأرخ فيه عبد الرحمن الرافعى لحياته يقول: "اتجهت نفسى منذ سنة ١٩١٠ إلى الجمع بين المحاماة والتأليف، فقضيت أوقات

فراغـى مـن المحامـاة سـنة ١٩١١ وأنـا بالزقـازيق فـى تـأليف أول كتـاب لـى وهـو، حقـوق الشـعب .. ولقـد أعجـب الزعيـم محمـد فريـد بـهذا الكتــاب وهنــأني عليـه قــائلا: فــى البــلاد صحافــة وطنيــة وينقصــها التــأليف الوطنــى، وقــد ســلكت هــذا الســبيل فاسـتمر فيـه وفقـك اللـه".[1]

فمـا هـى قصـة هـذا الكتـاب الـذى صـدرت طبعتـه الأولـى فـى مـارس سـنة ١٩١٢، والـذى يكـاد لا يعرفـه أحـد!؟

أول مـا يلفت النظر فيـه، هـو نضـج الرافعـى آنـذاك رغـم ربيعـه الثـانى والعشرين. ولعل اتزانه طـوال حياتـه، هـو الـذى دفعـه بعـد ذلك بسنين طويلة إلى أن يكون مؤرخ مصر الأول .. الذى صاحب الفضل فى انعكاس هذا النضج فى أول كتبه الذى كان منطلقه فيه رأى للزعيـم مصطفـى كـامل .. "إن مصـدر المصـائب التـى حـاقت بوادى النيل كان جهل أمتـه لحقوقها وواجباتـها وانحـلال أجزائـها بموت الشعور الوطنى فيها، إن الاستقلال وحده هو الـذى يحمـى البلاد والممالك من كل بلاء، ويدفع عنها اعتداء الغير ويرقى ملكة الأفـراد ويـهب الشـعوب الحريـة والحكومـة الدسـتورية والسـيادة الداخلية والخارجية".

الغـرض مــن إصــدار الكتــاب إذن هــو إنــارة الطريــق أمــام المواطنيــن لفــهم حقوقــهم وواجباتــهم، بعــد التمــزق الــذى أصـاب نفوس الشـعب المصـرى مـن سـيطرة الاحتـلال البريطـانى علـى مقـاليد الأمـور. واسـتعانته بآلاتـه مـن العمـلاء فـى تسـيير دفـة الحكـم الداخلـى لتنفيـذ مخططاتـه. كـان عبـد الرحمـن

الرافعى يهتم بتقديم تجارب الغير لشباب مصر، الذين فى مقدورهم تقويض دعائم الاحتلال وتحقيق الاستقلال، بالتعاون وبذل الجهد فى أوقات الفراغ فى الإجازة الصيفية، لتوضيح وشرح مبادئ الحقوق والواجبات لغالبية الشعب المصرى. وهم أصحاب الجلاليب الزرقاء، فى صورة محاورات سهلة الفهم والاستيعاب. فهذه الحقوق لم يسقطها الاستعمار من حسابه فحسب، بل أسقطتها كذلك من مقرراتها مدرسة الحقوق الخديوية فى مصر إبان هذه الفترة .. فلم تدرس لطلابها إلا القشور. فى الوقت الذى يدرسها التلاميذ الصغار فى المراحل الأولى من التعليم فى البلاد الأجنبية، ليشب النشء واعيا بحقوقه وواجباته.

لقد درس الرافعى كثيرا موضوعه قبل أن يمسك القلم ويبدأ كتابه، وهو يشير إلى ذلك فى مقدمته التى يقول فيها "لقد بلغت عناية القائمين بشئون التعليم فى البلاد الحرة بتدريس تلك المبادئ، وأن لا يكلفوا بوضع المؤلفات فيها إلا العلماء الأجلاء القادرين على تبسيط تلك المبادئ، وجعلها سهلة التناول لطلبة المدارس مع احتوائها على أرقى النظريات الدستورية التى وصل إلى تقريرها العلم الحديث .. أما أنا فلست من أولئك العلماء ولا أعد نفسى فى كفاءتهم فى وضع هذه المؤلفات. ولكنى نسجت على منوالهم، واقتبست من أبحاثهم ووضعت هذا الكتاب على لسان فئة من طلبة المدارس، يتباحثون فى مجتمع من سكان القرى فى حقوق الشعب والنظريات الدستورية ونظام

الحكومات الصالحة. وكيف تصل الأمم إلى استرداد حقوقها، وكيف تضمن تمتعها بها. كل ذلك ليجد الطالب فى الكتاب مجموعة تلك الحقوق والنظريات، ويعرف كيف تنبت فى طبقات الأمة وماذا يعوزنا من العمل لنحصل عليها" (ص.و).

ونتوقف قليلا عند مقدمة الكتاب، لما تحمله من أفكار هامة تشغل بال المواطن المصرى والمصلح الاجتماعى فى ذلك الحين، وتعكس ناحية من اتجاه الرافعى الفكرى .. وتمثلت فى ثلاثة جوانب، الأول ضرورة استخدام القوة لأية أمة تريد أن تعيش عزيزة المكانة: "حيت الأمة بالقوة وماتت لحرمانها من القوة، وتغلبت بعضها على بعض بالقوة". ويجعل الرافعى من هذه الإشارة مفتاحا إلى تفجير القوى فى الإنسان، واستخدامها فى مقاومته لكل ما تثقل عليه من ضغوط. إن الأخذ بالقوة يلزمه تعلم الفروسية والسباحة والرماية، فالرسول عليه السلام حث المسلمين لهاتين الفضيلتين لأن فيهما ترويضا للعقل وتنشيطا للجسم وتغذية للعضلات، والتعود على اقتحام المخاطر. فتربية النشء المصرى لم تغرس فى قلبه الشجاعة والإقدام، بل أورثته الخوف، بعكس الشاب فى أوروبا الذى تعود منذ نعومة أظفاره على اقتحام الأخطار والمخاطر. والسبيل إلى تحقيق ذلك إنشاء جمعيات الصيد والقانون المصرى لم يمنع تأسيسها أسوة بجمعيات الأجانب.

ويرى الرافعى أن على المثقفين مسئولية توعية الجماهير .. "جئت أخاطب إخوانى الشبان ورجال الغد الذين أعد نفسى واحدا منهم وأعتقد أن عليهم واجبا كبيرا هم

مدينون به نحو الله ونحو الأمة وهو العمل لتحرير بلادنا" .. (ص.د) وأخيرا يدعو لضرورة الاستعانة بالتنظيم فى حياتنا حيث إنه أساس كل إبداع خلاق.

وتخيل الرافعى مجموعة من الشباب اختلفت طرائقهم فى تمضية الإجازة الصيفية، فأغلبهم أمضوها فى إحدى قرى محافظة الدقهلية. بينما سافر أحدهم إلى أوروبا ويكتب إلى أصدقائه بانطباعاته. ويقيم هذا الشباب فى القرية ندوات يناقشون فيها عدة قضايا تثير الحوار بينهم وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين المستمعين من أهل القرية، وبينهم وبين ما يحدث فى الخارج مما يبعث به صاحبهم إليهم وخاصة من فرنسا، حيث النماذج كثيرة لممارسة الحرية والديمقراطية. ومن القضايا التى تعرض جوانب دستورية مع المقارنة بين ما يحدث فى مصر وما يتبع فى البلاد الدستورية الحقيقية، تشكيل الحكومة من الحزب الحاصل على الأغلبية وبذلك يكون الحكم فى يد الأمة لأن الحكام هم وكلاؤها .. يسيرون على هدى القوانين الموضوعة، والأمة تراقبهم. فرضى الأمة عن الحكومة وسياستها من ضروريات بقائها. أما الحكومات الاستبدادية فهى تعتمد على قوتها وحدها أو على قوة تستمدها من احتلال أجنبى لبلادها. وسكوت الشعب عنها يزيدها ضراوة وشراسة، فإن اجتمعت الإرادة والقوة فى يد الشعب أزالت الاستبداد. ويستشهد فى المناقشة بما سارت عليه الحكومات الإسلامية التى اعتمدت على تعاليم الله ورسوله، فوضعت مبدأ حكم الشعب

والأخذ بالشورى، والمساواة بين الجميع. فطاعة الأمة للحكومة قائم على اتباع الأخيرة القواعد والشرائع، واهتمامها بالشعب ليس فضلا بل ضرورة واجبة، يرجع ذلك لحرص الأمة نفسها على مبدأ الشورى، لأن استبداد ملوك المسلمين يرجع لانعدام روح الشورى فى القلوب. وحق الانتخاب العام يعد الدعامة المتينة التى تقوم عليها حكومة الشعب. وتوزيع سلطة الدولة بين مجلسين تشريعيين من الأهمية بمكان، لتعاونهما فى وضع القوانين والتشريعات: "فالحكومة المصرية تصدر القوانين وتمحوها وتعدلها دون أن تحترم إرادة الشعب" .. وتستمر الندوات تناقش دور مجلس النواب والشيوخ فى مراقبة الحكومة ومسئوليتها أمامهما، وحقهما فى عدم الثقة بالحكومة، أو بأحد الوزراء ومسئولية رئيس الدولة والتضامن فى المسئولية الوزارية، وطرق إكراه الحكومة على طاعة الأمة وحل المجلسين ودورهما فى مراقبة الوزارة وإسقاطها، وضرورة إقرار ميزانية الدولة بعد مناقشة كل بنودها. ويذكر فى هذا الجانب بما حدث فى مصر إبان حكم شريف باشا أيام الخديو توفيق، وكذلك حين استطاع مجلس شورى القوانين أيام الاحتلال مع ضعفه، إحراج الحكومة بطلبه الاعتماد على الدستور ورعاية حقوق الأمة. وتشتمل الندوات الأخيرة على شرح الحقوق الشخصية، والحقوق السياسية، ودرجة الارتباط والعلاقة بينهما. وحظ مصر البسيط من كلا النوعين، فشتان بين نصيب الأمم الدستورية، ونصيب مصر

منها في ظل الاحتلال .. "إن القانون النظامي قد خول لنا حقيقة حق التظلم. ولكن ليت شعرى إلى من نتظلم؟ نتظلم إلى من نتظلم منهم فكيف ننتظر منهم أن ينصفونا؟ أما في البلاد الدستورية فحق التظلم له نتيجة فعلية فهو وسيلة من وسائل مراقبة المجلس للحكومة" (ص١٦٢). ففي ظل الاحتلال نجد العقارات الخاصة مصانة بقوة القانون، بينما الأراضي الزراعية ليست كذلك، لما للدائن الأجنبي من حقوق، والملك العام تصرفت فيه الحكومات العميلة دون أن يكون لشعب مصر صاحب الأرض الحقيقي رأى، فبيعت البواخر الخديوية والأحواض بثمن بخس، ولم تحترم الحكومة حرية التجارة والصناعة المصرية لما فيها من منافسة لمصالح الاستعمار. والحرية الشخصية مبتورة لأنها تحت رحمة الحكومة فتقبضها وتبسطها طبقا لما تراه موافقا لمصلحتها. وما يدعي سلطان الاحتلال من تمتع المواطن المصرى بالحرية فسراب، لأنه ليس من الحرية في شيء. أما حرية الاجتماع والصحافة فقد قيدتا وتم اعتقالهما.

لقد أثارت ندوات الرافعي هذه العديد من الموضوعات، فدعت لدراسة الاقتصاد الزراعي، وإنشاء النقابات التعاونية الزراعية للحفاظ على الأملاك الزراعية، ومقاومة ظلم الحكومات وعصيانها، فالقيام في وجهها من أقدس واجبات الشعب بأسره. ورأت أن يكون حق الانتخاب عاما وضرورة تأصيله في وجدان الجماهير استعدادا لبناء المجلس النيابي الحقيقي. كما التفت إلى أهمية الاهتمام بالقيد في جداول

الانتخاب مع دعوة الأكفاء لترشيح أنفسهم خدمة لمصر. والحفاظ على الدستور ضمانا لحرية الأمة. وفى غيابه يستحيل أن يأمن الناس على حريتهم أو يتمتعوا بها. لأن ما أصاب حرية الاجتماع وحرية الصحافة من الاضطهاد والمصادرة، لأقوى برهان على أن الحرية بلا دستور عرض زائل! وطالب الهيئات النيابية باستمرار إحراجها للحكومة لنيل الدستور.

ومع أن موضوع الكتاب اجتماعي، وصاحبه ليس أديبا إلا أن أسلوب المعالجة كان فنيا يستهوى القارئ مطالعته. ولاشك أن عمل صاحبه بالصحافة أفاده فى عملية الإقناع. فعبد الرحمن الرافعى لم يعتمد على مجرد الاجتماعات الدورية فى القرية لشرح المبادئ الدستورية للشعب، بل أخذ يرتب اللقاءات بحبكة فنية تبعد الرتابة. كما تمثل كذلك فى الرسائل الواردة من أوروبا بما تحمل من لقطات عن الحياة الأجنبية المغايرة، كما تستفيد مجموعة الأصدقاء أحيانا من الوقت بين ندوة وأخرى فى عطلة سريعة يقضيها البعض فى الإسكندرية فى السباحة، والبعض فى قرية مجاورة لممارسة الفروسية والقنص!

ويستكمل الرافعى عنصر التشويق، بتصوير الأحداث التى وقعت فى فترة غياب الأصدقاء، من تجسيد معارضة عمدة القرية لمجموعة الطلاب. فيوحى لأحد أتباعه المنافقين بعقد ندوات مضادة تشجع على الاستكانة والالتفاف حول الحكومة غير الوطنية، فيقاطعها الجمهور من أصحاب الجلاليب الزرقاء إلى أن يعود الأصدقاء!

كما كان لانتقال القضايا من داخل الحدود إلى خارجها من خلال الشاب المصرى الذى يزور فرنسا، أثر فى تعميق ما يدعو إليه الرافعى، ولاشك أن هذا الاتجاه هو أثر لثقافة المؤلف الفرنسية. ولقد وفق الرافعى فى دعوته إلى الاقتراب من القرية، ومعايشة أهلها والاعتراف بحقوقهم. والحقيقة أن تجربته كانت طريفة وإن استوحاها كما هو واضح من عبدالرحمن الكواكبى وكتابه "أم القرى" ولقيت فى ذلك الوقت المبكر - سنة ١٩١٢ - إعجابا كبيرا وقبولا طيبا. فنجد مثلا فى العدد الصادر من جريدة "العلم" بتاريخ ٢٨ يونية ١٩١٢ بإمضاء طالب فلاح، ردا على بعض الشباب الذين كانوا يسخرون من دعوة الرافعى وإضاعة الإجازات الصيفية فى خدمة القرية، بأنها نوع من الإزعاج وتنغيص العيش. فيكتب صاحب هذا القلم محببا صدور كتاب "حضرة الأصولى عبد الرحمن أفندى الرافعى".

(٢)

كان من مبادئ الحزب الوطنى الأساسية الربط بين السياسة والاقتصاد، ليكتمل الجهد الوطنى وتخليص البلاد من براثن الاحتلال الذى بدأ اقتصاديا. وهو يخطط فى أواخر القرن التاسع عشر للقضاء على اقتصادها وبيع مصانعها التى أنشأها محمد على لتكون نواة الصناعة المصرية بأبخس الأسعار. فانعدمت المشاريع وساءت حال المزارع

المصـرى، والمرابـى الأجنبـى يسـتلب الأرض مـن الفـلاح بعـد رهنـها بـأبخس الأسـعار، حتـى ارتفعـت الأصـوات بمجلـس شـورى القوانيـن سـنة ١٨٩٤ داعيـة للحـد مـن بيـع الأرض للأجـانب حيـث بلغـت قيمـة الأراضـى المرهونـة للبنـوك العقاريـة الأجنبيـة وللأجـانب مبلغـا يزيـد علـى عشرين مليـون جنيـه.

وفـى سـنة ١٩١٤ أصـدر الرافعـى كتابـه "نقابـات التعـاون الزراعيـة. نظامـها وتاريخـها وثمراتـها فـى مصـر وأوربـا" إسـهاما فـى معركـة تضـع المصلحـة غـير الوطنيـة فيـها ثقلـها. يقـول فـى مقدمـة مؤلفـه بتواضـع عـرف عنـه .. "هـذا وإنـى لسـت مدعيـا فـى هـذا الكتـاب أننـى ألممـت بكافـة المسـائل التعاونيـة فـإن كتابـا واحـدا يقصـر دون ذلـك، وإنمـا قصـدت أن يكـون محتويـا علـى أول مـا يجـب علـى المتعـاونين معرفتـه فـى مسـائل التعـاون. فـإن رأى القـارئ منـى تقصـيرا فليحملـه علـى هـذا المحمـل لا سيما وأن مجـال الكتابـة والتـأليف فـى التعـاون لا يـزال فسـيحا لمـن شـاء مـن الكتـاب والمفكريـن".

وقـدم هـذا الكتـاب مـن كتـب الرافعـى إلـى القـراء أحمـد لطفـى المحامى ومستشار النقابة العامة للتعاون الزراعـى والمنزلى بمصـر .. "جاء الكتاب من أندر الكتب التى وضعت فى التعاون الزراعى إذ قليلاً ما رأينا تأليفاً فى التعاون شملت كل هذه المعلومات وجمعت فى بضع مئات من الصفحات أهم المسائل التعاونية. فهو جدير بأن يكـون مؤلفـاً عامـاً ينتشـر فـى مصـر وفـى الخـارج لينتفـع بـه كافـة المتعاونين من غير هذه البلاد وليقرأه بـالذات جميع الذين تهمـهم الحالة والحركة الاقتصادية بمصر". (ص ك)

ويبدأ المؤلف عرضه بالخطوات الأولى للحركة التعاونية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر، وغرضها الأساسى الوقوف ضد مستغلى العمال الزراعيين والصناعيين. فأنشئت الجمعيات التعاونية لحمايتهم، إلا أن نظام التعاون لم ينجح فى البداية فى نطاق الصناعة كما حدث فى المجال الزراعى وذلك لتعدد أنواع جمعياته. ثم ازدهرت الجمعيات الزراعية فى منتصف القرن التاسع عشر .. واشتهر منها تاريخيا فى ألمانيا جمعيات شولس وليس ورايفيزن، وانتشرت الأولى فى المدن الصناعية والثانية بين الزراع والبيئات الزراعية. وقد ساعدت الحكومة الألمانية جمعيات التعاون عامة والزراعية خاصة. وبعد ألمانيا ظهرت الحركة التعاونية فى إيطاليا فى مجال الصناعة أولا ثم فى الزراعة، واشتمل التعاون على البنوك والصناديق الزراعية الكاثوليكية وجمعيات التعاون الإنتاجى وجمعيات شراء حاجيات الزراعة بالجملة، والتأمين على الماشية والحرائق والإصابات والطوارئ وحماية المزروعات من البرد. أما فى النمسا فقد بدأ التعاون ببطء سنة ١٨٥٠ ثم زاد نشاطه بفضل أحد دعاة التعاون وهو هرمان زيلر. حيث وحد جمعيات التعاون فى نقابة واحدة عرفت بنقابة اتحاد جمعيات التوفير والتسليف. وقد شملت الدولة التعاون برعايتها واهتمامها. فأصدرت قرار سنة ١٩٠٢ بجعل التعاون الزراعى إجباريا. وتتابعت الحركة فى فرنسا والمجر والدانمرك التى وجدت فى الأخيرة أزهى مراحلها، وعد التعاون فيها من أعظم وأرقى النماذج فى

العالم، حتى أصبحت محط أنظار العالم. وإلى التعاون يرجع الفضل الكبير فى رقى الدانمرك وشهرتها التجارية، لأن التعاون فى البلد الزراعى يعد من الضروريات. بدأ الاهتمام به بين صغار المزارعين بعيدا عن الاستعانة بالدولة، معتمدين على أنفسهم تماما. ونافست سويسرا الدانمرك فى هذا المجال، حتى عدت فى مقدمة البلاد التعاونية التى قدم فيها النظام التعاونى مزيدا من الرفاهية والخير للمزارع السويسرى، حتى أصبح أسعد مزارع بأوروبا مع عدم خصوبة أرضه. وتصل الحركة التعاونية إلى إنجلترا سنة ١٩١٤، ثم إلى إيرلندا وازدهرت الحركة فى ظل نظام بلنكت. كما عرفت روسيا القيصرية النظام التعاونى، وكذلك بولندا.

وينتقل عبد الرحمن الرافعى من الخارج إلى الداخل، فيدرس الحركة التعاونية فى مصر. ويناقش عيوب النظام الزراعى بشطريه؛ نظام التسليف الحكومى وشراء الحاجيات الزراعية وبيع الحاصلات للأجانب. وما جره هذا النظام على البلاد من خسائر لم تتحرك الحكومة لملافاتها .. بينما تحرك الوطنيون لمجابهة ما أصيب به الاقتصاد المصرى، وبدأت بشائر التعاون الزراعى فى مصر بفضل عمر لطفى سنة ١٩٠٨، ثم خلفه أخوه أحمد لطفى. وينتقد المؤلف عيوب القانون الذى أصدرته الحكومة سنة ١٩١٣ والمسمى بقانون الخمسة أفدنة، وكذلك مساوئ التشريع الجديد للتعاون الصادر سنة ١٩١٤ الذى ضيق الخناق على الحركة التعاونية!

وإحدى القضايا الجديرة بالنظر فى هدا الكتاب، احتفال عبد الرحمن الرافعى الكبير بالبلاد التى تتشابه ظروفها وظروف مصر من احتلال وانهيار، كايرلندا وبولندا وفنلندا فى السنوات الأولى من القرن العشرين. وكأن الكاتب يعطى درسه بطريق غير مباشر للمتخاذلين أو المتشائمين من المصريين.

وقد عدد الرافعى مساوئ التدخل الرسمى فى النشاط التعاونى. واختلف معه أحمد لطفى ورد على تخوفه فى مقدمة الرافعى بأن التعاون فى بدايته يحتاج إلى مساندة الحكومة! ولكن نعرف بعد ذلك أن الرافعى غير رأيه فى هذا الصدد، فوافق على مشاركة الحكومة فى ميدان التعاون. ويروى الدكتور إبراهيم رشاد فى كتابه "مذكرات مجاهد تعاونى" أن عبد الرحمن الرافعى فى عام ١٩٢٠، أيده فى ضرورة مساهمة الحكومة فى المجال التعاونى عندما كتب أبو التعاون الدكتور رشاد تقريره عن إنشاء إدارة التعاون بوزارة الزراعة التى كلف بإنشائها وإدارتها بعد عودته من إيرلندا وكمبردج، وقدم نسخة من هذا التقرير للرافعى .. كتب الأخير: "فقد انتهيت الآن من قراءة مذكرتكم فى تنظيم حركة التعاون، فأعجبت بها إعجابا كبيرا، لأنها فى الحقيقة جمعت بين المبادئ والنظريات الفنية الصحيحة، والطريقة العلمية النافعة. وإنى أهنئك بهذه الخدمة الكبرى التى قمت بها للتعاون بوضع هذه المذكرة. وإنى موافق على اقتراحكم فى الخطة التى رسمتها".[٢]

(٣)

وانتظر القارئ ثماني سنوات ليصدر عبد الرحمن الرافعي كتابه الثالث "الجمعيات الوطنية" عام ١٩٢٢. عندما أعلن الرئيس الأمريكي ويلسن في يناير سنة ١٩١٨ عند دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب الأولى، مبادئه الأربعة عشر .. ونادى بحرية الشعوب جميعها في تقرير مصيرها، كانت غبطة الرافعي لا تقدر لعاملين: الأول اتفاق كاتبنا مع ويلسن في نظرته للسلام، والثاني اطمئنانه إلى أن إقرار مبدأ تقرير المصير، هو الذي سيضع النهاية لاحتلال الإنجليز لمصر. ولكن هذه المبادئ العظيمة لم تلبث أن تبخرت في الهواء، وتهرب منها صاحبها نفسه. كما أن المجتمع الدولي المتمثل في عصبة الأمم، رفض أن تعرض قضية مصر على مؤتمر السلام المنعقد بباريس، بل وأيد الاحتلال الإنجليزي لمصر في معاهدة فرساي بتاريخ ٧ مايو سنة ١٩١٩!

وكان صدمة للملايين ومنهم الرافعي الذي تأكد أنه لا يزال أمام استقلال بلاده الكثير من النضال في الكثير من الميادين. فعكف في عام ١٩٢٠ على نشر سلسلة مقالات بجريدة "الأخبار" تحت عنوان "جهاد الأمم في سبيل حريتها". وشارك في تعميق الصدمة "حادث" عام يبدو بعيدا، ولكنه بالنسبة للرافعي كان شديد الوطأة عليه. وهو استقبال الشعب المصري لسعد زغلول استقبال الأبطال عند

عودتـه مـن أوروبـا بعـد نفيـه إلـى مالطـة، ثـم الإفـراج عنـه وذهابه إلـى بـاريس لمؤتمـر السـلام الـذى رفـض إدراج القضيـة فـى جـدول أعمالـه. "وفـى أوائـل عـام ١٩٢١ عـاد سـعد إلـى مصـر، فقـامت البـلاد نسـاؤها وشـيوخها وشـبابها تسـتقبل زعيمـها البطـل رافـع علـم اسـتقلالها، وكـان ذلـك اليـوم المشـهود يـوم دخـل سـعد القـاهرة فـى موكـب لـم يحلـم بـه قيصـر، ويـوم ازدحمـت شـرفات المنـازل والفنـادق بـالمتفرجين وبلـغ إيجـار المقعـد فيـها عشـرين جنيـها".[٣] آلمـه هـذا الحـادث، أمـا باعثـه الحقيقـى فـهو تـأكيد قيـادة سـعد للجمـاهير فـى مصـر الـذى يجعـل زعمـاء الحـزب الوطنـى فـى الظـل .. أمـا البـاعث الآخـر الـذى أقنـع نفسـه بـه فـهو خـداع الساسـة للشـعوب! علـى أيـة حـال ففى ينـاير سـنة ١٩٢٢ جمـع عبـد الرحمـن الرافعـى مقالاتـه التـى نشـرها فـى صحيفـة "الأخبـار" التـى كـان يـرأس تحريرهـا أخـوه أميـن الرافعـى، واسـتعان بـها فـى إصـدار كتابـه "الجمعيـات الوطنيـة. صفحـة مـن تـاريخ النـهضات القوميـة".[٤] والقـارئ الـذى يطـالع هـذا الكتـاب اليـوم بعـد مـرور أكـثر مـن نصف قـرن يشـعر جيـدا بمـا كـان يعتمـل فـى كيـان الرافعـى وهـو يكتـب كلماتـه متغنيـا بحـب مصـر ورغبتـه فـى تقديـم عصـارة ونتـاج فكـره الحـر لمواطنيـه ليسـاهم معـهم فـى تحريـر وطنـه مـن الغـاصب المحتـل .. "هـذه هـى الجمعيـات التـى عنيـت ببحثـها وعزمـت أن أقـدم للقـراء صـورة صغـيرة مـن تاريخـها ونظامـها وأعمالـها وجهـودها وآثارهـا فـى النـهضات القوميـة والتقلبـات التـى تعـاقبت عليـها والحـوادث التـى اتصلـت بـها. اخـترت الكـلام عـن

أهـم هـذه الجمعيـات وأكبرهـا أثـرا فـى تـاريخ الشـعوب وهـى نمـوذج لمـا تبذلـه الأمـم مـن الجـهود فـى سـبيل تحريرهـا مـن رق العبوديـة ومقاومـة الأخطـار التـى تتـهدد كيانـها، وتدعيـم حياتـها المسـتقلة علـى أرقـى القواعـد السياسـية والاجتماعيـة" (ص أ).

ويقـدم فـى الكتـاب، الثـورة الفرنسـية، ومراحلـها التـى حفظـت للمواطـن الفرنسـى حريتـه، ثـم اسـتقلال الولايـات المتحـدة سـنة ١٧٧٤، والجمعيـات الوطنيـة الألمانيـة التـى تكونـت عقـب هزيمتـها فـى الحـرب الأولـى وأحـالت الهزيمـة والانكسـار إلـى صمـود وثبـات وتقـدم. "هـذه الأمـة المجيـدة التـى كـانت عظيمـة فـى عزهـا ظـهرت أيضـا عظيمـة فـى هزيمتـها ومصابـها" (ص١٩٩). ويتـابع الكتـاب الأحـداث التـى ألمـت ببولنـدا وهـى تحـت سـيطرة المحتليـن، وجـهود أبنائـها فـى اسـتغلال كـل فرصـة مواتيـة لمناهضـة الاسـتعمار مـع كـل مـا تعرضـوا لـه مـن اضطـهاد وإبـادة، فينشـئون الجمعيـات السـرية والأحـزاب السياسـية للحفـاظ علـى وحدتـهم فـى الداخـل والخـارج .. نعـم فقـد اسـتطاع البولنديـون المـهاجرون إلـى أمريكـا أن يرفعـوا صـوت بلدهـم فـى العـالم الجديـد لتصـل إلـى كـل أنحـاء المعمـورة .. "فـإن قلـب الإنسـانية كـان ينبـض إشـفاقا علـى تلـك الأمـة العظيمـة التـى برهنـت للعـالم علـى أن السياسـة إذا أفلحـت فـى القضـاء علـى الممـالك والـدول. فإنـها لا تسـتطيع أن تنـال مـن الأمـم. وأن المعـاهدات والمؤتمـرات إذا اسـتطاعت أن تمحـو الحـدود الجغرافيـة للممـالك وتبدلـها وغيرهـا. فإنـها لا تسـتطيع أن تمحـو الحـدود المعنويـة للشـعوب

الحرة اليقظة. أجل كانت بولونيا المثل الأعلى لثبات الامم فى جهادها الوطنى إذ برهنت على تلك الحقيقة الأزلية وهى أن الحكومات تمر وتزول والأمم تبقى وتدوم". (ص٢٧١)

وتكون آخر لمسات الجمعيات الوطنية متصلة بالحركة الوطنية فى الأناضول والجمعية الوطنية فى أنقرة، ومقارنته بينها وبين الحركات التحريرية الأخرى .. "ولكن يجب أن لا ننسى أن موقف الأمة التركية أصعب بكثير من موقف فرنسا فى عصر الثورة الفرنسية ذلك أن فرنسا كانت ترد عادية أعدائها وهى مستجمعة لقواها وفى يدها عاصمتها وحكومتها وجيشها وأسطولها. أما الأمة التركية فقد نهضت وهى محرومة عاصمتها وأسلحتها وجيوشها وحصونها. قامت والعدو محتل أهم مواقعها الحربية قابض بيده على عاصمة ملكها ومفاتيح بلادها ومستول على حكومتها. وكانت فرنسا تحارب دولا أضعفها الاستبداد وفساد الحكم. أما الأمة التركية فقد قامت فى وجه دول راقية منظمة قوية خرجت فائزة رابحة من الحرب العامة. فالفرق بين الموقفين كبير .. وهناك أيضا شبه كبير بين الحركة التركية وحرب استقلال أمريكا فى القرن الثامن عشر. والجمعية الوطنية فى أنقرة تشبه فى كثير من الوجوه المؤتمر الأمريكى الذى أعلن الاستقلال وتولى تنظيم الجهاد الوطنى .. أما تركيا فقد نهضت منفردة وحاربت وحدها أعداءها الكثيرين. ومن أجل ذلك نالت احترام العالم المتمدين والشرق والغرب". (٣٧٥)

ويشير فتحى رضوان إلى أهمية هذه الكتب الثلاثة لعبدالرحمن الرافعى التى باتت مجهولة للعامة والخاصة بقوله "ولسنا نحب أن نجارى هذا الاتجاه العام، الذى قصر دور عبد الرحمن الرافعى على التأريخ لبلاده، ونرى أن من حق تاريخه وتاريخ مصر الحديثة علينا أن نتحدث عن كتبه الأولى التى لو اتصل صدور مثلها، وراجت الأفكار التى انطوت عليها بين صفوف الشباب وسهل عليهم أن يحصلوا على زاد منها ويتأملوا فيها، ويفيدوا منها، لانحسرت موجة الأمية السياسية التى سادت بلادنا منذ كمل الإجهاض الوطنى فى أعقاب ثورة ١٩١٩، هذا الإجهاض الذى جعل غذاء الشباب المصرى الثقافى، ومعينه الفكرى مجلات تكتب بالعامية السوقية وتملأ صفحاتها وأنهارها بأخبار الزعماء الخاصة، وبالفكاهات الجافية والتعليقات المبتذلة، إلى آخر سمات هذا الجدب الروحى الذى لا نزال نعانى من آثاره حتى اليوم".(٥)

المراجع

١- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ط١ ص٢١.
٢- دكتور إبراهيم رشاد: مذكرات مجاهد تعاوني ط١ ص١٢٨.
٣- محمد التابعي: ألوان من القصص ط١ ص١١٧.
٤- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ط١ ص٤١.
٥- فتحي رضوان: مشهورين منسيون ط١ ص٨٩.

اهتماماته الوطنية

بالرغم من سيطرة الاحتلال البريطاني على مصر في نهاية القرن التاسع عشر وقضائه على المقاومة الوطنية التي انتهت بهزيمة عرابي ورفاقه، ومحاكمتهم ونفيهم خارج البلاد، وما تسرب إلى النفوس من يأس من انبلاج نور الحرية،[1] إلا أن كثيرين دفعتهم الوطنية إلى مهاجمة الاستعمار .. في الصحافة والاجتماعات والندوات وتطعيم النشء في المدارس بمقاومة الدخلاء وبث روح النضال في نفوسهم لأنهم أمل المستقبل بعد أن نكب الأباء في يومهم.

وواحد من هذه النماذج، كان أستاذا للتلميذ عبد الرحمن الرافعي في مدرسة رأس التين الثانوية (١٩٠١-١٩٠٤) وهو عثمان لبيب (بك) مدرس الرياضة، الذي كان يبث في نفوس تلاميذه القيم الوطنية مبينا لهم آثام وجرائم الاحتلال .. "كان يقول لنا خلال أحاديثه "افهموا يأولاد كويس"، فكنت أستشعر معاني هذه الأحاديث، وآنس لها وأعجب بها، وأحببت من أجلها هذا الأستاذ، وكنت ألاحظ أنه حين يبدأ بالحديث في السياسة يقفل بنفسه باب الفصل لكي لا يسمع

حديثه ناظر المدرسة عند مروره بين الفصول، فكان إقفال الباب إشارة إلى بدء دروسه الوطنية، وقد أفدت منها كثيرا".[٢] وأصبحت أحاديثه المنبع الأول الذى يستقى منه تلميذنا الصغير حروف الأبجدية الوطنية. وفى سن الخامسة عشرة يبدأ يتحسس طريقه فى مطالعة للصحف ولكنه لم يكتشف دور الزعيم الشاب مصطفى كامل إلا عندما انتقل من المدرسة الثانوية بالإسكندرية إلى مدرسة الحقوق الخديوية بالقاهرة سنة ١٩٠٤، فجذبته صحيفة "اللواء" بعد "المؤيد" و"الأهرام". واستفاد منها دروسا فى الوطنية، ساعده فى ذلك الجو الحماسى الوطنى فى الحقوق، حيث كانت هذه المدرسة العليا مرفأ اليقظة الوطنية فى البلاد، حيث أذكى شعلتها الزعيم بآرائه وأفكاره. وحين أنشأ الوطنيون بدءا بطلبة الحقوق وبمشاركة طلبة المدارس العليا سنة ١٩٠٥ "نادى المدارس العليا" وضم الطلبة والخريجين وأنشأ به مكتبة جامعة، أخذ الرافعى يشارك فى نشاط النادى، الذى أصبح مركزا للإشعاع الفكرى والوطنى.[٣]

ويحدث لقاء الرافعى بمصطفى كامل متأخرا قليلا، فشغف به إعجابا وتقديرا، يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته عن زميله عبد الرحمن الرافعى الطالب بالحقوق فى هذه الفترة "والرافعى متحمس منذ كان طالبا بمدرسة الحقوق، لمبادئ الحزب الوطنى، متطرف فى نصرتها، شديد الإيمان بخلافة آل عثمان".[٤]

وتقع حادثة دنشواى فى ١٣ يونية سنة ١٩٠٦ وتتبنى الصحافة الوطنية الدفاع عن ضحاياها. ويشذ ممثل النيابة المصرى إبراهيم الهلباوى فيتشدد فى معاملة المتهمين الأبرياء وينعتهم بأقسى النعوت. مطالبا فى النهاية بإعدامهم. وقد بلغت قسوة تنفيذ الأحكام منتهى الضراوة، حيث تم نصب المشنقة فى ساحة القرية. ونفذت الأحكام بها شنقا وجلدا أمام أسر المحكوم عليهم. واهتز الوجدان المصرى لهذه القسوة الاجرامية، وتأثر عبد الرحمن الرافعى بالحادثة تأثرا كبيرا .. "كنت عام وقوعها طالبا بالسنة الثانية من مدرسة الحقوق. وكنت أطالع نبأها فى (اللواء)، فأدهش لمخالفة منهج التحقيق والمحاكمة فيها لما كنا نتلقاه من أصول المحاكمات الجنائية التى تقضى بها القوانين. وتساءلت ما فائدة ما نتلقاه من الدروس والقواعد القانونية إذا كانت لا تطبق على الناس كافة. ولما تلوت وصف تنفيذ الحكم فى (اللواء) بقلم الأستاذ أحمد حلمى أحد محرريه، اقشعر بدنى من هول ما قرأت. وأدركت مبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال. وتحققت أن لا كرامة لأمة ولا لأى فرد من أبنائها بغير الاستقلال، وحفزتنى هذه الحادثة إلى أن أخصص حياتى للجهاد فى سبيل الاستقلال".(٥) وكانت هذه البداية الحقيقة التى دفعته أكثر إلى الاهتمام بالقضايا العامة واستقلال الوطن التام مع وحدة مصر والسودان.

واستمرت حملة الصحافة الوطنية على ممثل الاحتلال اللورد كرومر، وأكثرت الصحافة الأجنبية أيضا من الحديث عن فظاعة الحادث مما أدى فى النهاية إلى استقالة كرومر المندوب السامي البريطاني فى أبريل سنة ١٩٠٧، والذى أنهى خدمته فى مصر بامتهان الكرامة المصرية فى كلمته التى ألقاها يوم الاحتفال بوداعه ممتدحا الخديو توفيق والمتعاونين معه. وعندما يعلن الزعيم الشاب مصطفى كامل عن تكوين الحزب الوطنى فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ يكون الرافعى من أوائل المنضمين إليه، وبعد حوالى أربعة أشهر بموت مصطفى كامل تهتز مصر لوفاته.

ورغم أن عبد الرحمن الرافعى كان يعرف بخطورة مرض الزعيم التى تزداد يوما بعد يوم وأن لا أمل يرجى من الشفاء، إلا أنه روع بوفاته المبكرة "واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال، وأخذ المرض يشتد ويلح عليه حتى أعيى الطب والأطباء، إلى أن حم القضاء، وأسلم الفقيد الروح فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦)، فانتشر نعيه بسرعة البرق فى العاصمة والأقاليم، وطيرت الأسلاك البرقية خبره إلى الخارج، وملأ النبأ الفاجع جنبات وادى النيل، ويالها من لحظة رهيبة حين فوجئنا بالنعى ونحن فى مدرسة الحقوق. فقابلناه بالذهول والوجوم، وفاضت دموعنا حزنا وأسى على الفقيد الذى كان لنا إماما وطنيا، وأبا روحيا، وما كاد يذيع

نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر، فكان له فى كل نفس مناحة، وفى كل قلب مأتم". [٦]

صدم الرافعى بموت مصطفى كامل صدمة أذهلته وكاد أن ينهار، لولا أنه التمس العزاء من قرارين أخذهما على نفسه وهو فى قمة ألمه. الأول أن يهب ذاته لخدمة بلاده على خطى مصطفى كامل، والثانى أن يتوفر على دراسة شخصية هذا الزعيم الشاب وتقديمها إلى الأجيال الجديدة. ولاشك أن عبد الرحمن الرافعى بر بوعده فى قسميه. تفرغ لكتابة التاريخ المصرى الحديث بما لم يقم به أحد قبله، واستمر يكتب عن زعيمه وعن مبادئه المقالات الطوال، ليصدر فى سنة ١٩٣٩ مجلداً ضخماً فى ٥٢٥ صفحة من الحجم الكبير عن "مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية" - فى سلسلة تاريخ مصر القومى - "فهذه الشخصية الكبيرة التى حملت عبء الجهاد، ودعت الأمة إلى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال، فى وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة لكى تستطيع أن تشق لدعوتها طريقاً وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم". [٧]

ولم يختلف الوضع بالنسبة لدور الرافعى داخل الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل، فقد كان وثيق الصلة أيضاً بخليفته محمد فريد، الذى نشر له لأول مرة بجريدة "اللواء" وهو طالب، وعمل معه فيها عقب تخرجه. "إنى إذا كنت أعد نفسى تلميذاً لمصطفى كامل، فإنى كذلك

تلميذ لمحمد فريد، بل إن صلتي بفريد، كانت أطول مدى من صلتي بمصطفى، فإني لم أدرك مصطفى إلا في أوقات محدودة، حين كنت أستمع إلى بعض خطبه، أو أقابله في (اللواء) منذ سنة ١٩٠٦، مرات معدودة، أما فريد فقد اتصلت به عن كثب، وعملت معه وتحت لوائه سنين عديدة. لقد كنت سنة ١٩٠٨ طالباً بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق، حين تولى زعامة الحركة الوطنية، وكنت أتردد عليه كثيراً في (اللواء)، وتلقيت عنه مبادئ الوطنية، كما تلقيتها من قبل عن مصطفى، فصادفت في نفسي موضع العقيدة والإيمان، واتخذته بعد مصطفى أستاذاً وإماماً لي في الوطنية، وبدأت أكتب في اللواء على عهده، وأنا طالب بمدرسة الحقوق". (٨)

ولما أنشأ الحزب الوطني مدارس الشعب الليلية بالقاهرة في أواخر سنة ١٩٠٨ - في أقسام الخليفة وبولاق وشبرا والعباسية تحوى كل مدرسة نحو مائة وعشرين تلميذاً - لتعليم العمال والفقراء القراءة والكتابة والدين والصحة وتربية الأطفال والحساب وتاريخ مصر وجغرافيتها والتاريخ الإسلامي والآداب والأخلاق والقوانين الخاصة بالمعاملات اليومية، شارك الرافعي متطوعاً في التدريس مع زملائه الشبان الوطنيين وكبار رجال الحزب الوطني مثل محمد فريد نفسه وأحمد بك لطفي.

وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى، استغلت إنجلترا دخول الدولة العثمانية بجانب ألمانيا ضد الحلفاء، وأعلنت

الحماية على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤، وعزلت الخديو عباس حلمى الثانى الذى كان يصطاف فى الآستانة وخلفه السلطان حسين كامل. ونشطت الحكومة فى اعتقال الوطنيين وخاصة رجال الحزب الوطنى بعد أن فتشت بيوتهم واستولت على أوراقهم. واعتقل عبد الرحمن الرافعى فى المنصورة فى أغسطس سنة ١٩١٥ مع مجموعة من الوطنيين.(٩) وكان قد تم اعتقال أخيه أمين الرافعى قبله فى سجن الاستئناف بالقاهرة(١٠) الذى أودع فيه أيضا فى البداية قبل أن ينتقل منه إلى معتقل الجماميز ثم ليمان طره. وعن أسباب الاعتقال التى أغفلها الرافعى فى مذكراته، يقول الدكتور محمد حسين هيكل بعد أن فشلت القوات التركية التى وصلت قناة السويس فى فبراير سنة ١٩١٥ فى تحقيق أغراضها وشتتها الإنجليز: "فت تقهقر القوات التركية فى اعضاد أنصار الأتراك وأنصار الألمان وأنصار الخديو. وبدأت السلطات العسكرية البريطانية بعد قليل حركة (تطهير) إن شئت أن تسميها، فنفت عددا غير قليل من المصريين المشتبه فى ميولهم إلى الخديو أو ضد إنجلترا إلى مالطة، ونفت شوقى بك شاعر الخديو إلى الأندلس، واعتقلت كثيرين من بينهم صديقى عبد الرحمن الرافعى".(١١)

ويضيف الدكتور عبد العظيم رمضان إلى ما وراء الجيش العثمانى المهزوم "وقد أخذ عباس حلمى يستعد للعودة إلى مصر على رأس جيش عثمانى. ويرافقه محمد فريد. ولكن هذا الجيش العثمانى هزم أمام قناة السويس، واضطر إلى

الانسحاب، وضاعت تماماً فرصة العودة إلى مصر من يد الخديو عباس حلمى". [١٢]

ولم يطل تنقل الرافعى فى السجون والمعتقلات فأفرج عنه وعن أخيه بعد عشرة أشهر دون محاكمة، وذهبا سوياً لشكر رئيس الوزراء حسين رشدى باشا الذى سعى للإفراج عنهما، فدعاهما لزيارة السلطان حسين كامل الذى التقى بهما فى الإسكندرية.

وقبل أن تنتهى الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر سنة ١٩١٨، كان الدكتور ويلسن رئيس الولايات المتحدة قد أعلن فى ٨ يناير سنة ١٩١٨ مبادئه الأربعة عشر للسلام وأهمها حق تقرير المصير. ويسعد عبد الرحمن الرافعى بذلك ويظن مع الكثيرين أن الإنجليز سيحققون وعودهم فى الجلاء عن البلاد. ولم يكن الرافعى وحده الذى صدق بل صدق كثيرون معه فى مصر والعالم كله خاصة الشعوب التى ترزح تحت نير الاحتلال. يقول أحمد شفيق باشا: "لبثت مصر تنتظر تطبيق هذه المبادئ العادلة عليها مع المنتظرين وهى آمنة مطمئنة. على أتم يقين من أنها أولى الأمم بهذا المستقبل الزاهر الباهر. كيف لا؟ وهى التى قدمت من المساعدات والخدمات إلى الحلفاء ما اعترف به قوادهم ولم ينكره ساستهم وملوكهم". [١٣]

ويسجل الدكتور محمد حسين هيكل حواراً دار بينه وبين الرافعى فى ذلك الوقت: "مساء اليوم الذى نشرت فيه

صحف مصر شروط الدكتور ولسن قابلني صديقي عبدالرحمن الرافعي مغتبطا متهللا، وقال: انتهينا يا سيدي! لنا حق تقرير المصير، وعلى ذلك سيخرج الإنجليز من مصر ويتم الجلاء. وأجبته وهل تصدق يا صديقي أقوال الساسة؟! ألست تتحدث، أنت وزملاؤك رجال الحزب الوطني، عن وعود إنجلترا الرسمية بالجلاء وعودا لم يتحقق منها إلى اليوم قليل ولا كثير؟ فما بالك ترى اليوم أن شروط الدكتور ولسن يجب أن تتحقق؟ أولا يقتضينا الحذر أن ننظر إليها كأنها بعض وعود إنجلترا بالجلاء؟ وكان رد عبد الرحمن الرافعي أن قال في حماسة: كلا!! فالولايات المتحدة هي التي انتصرت في الحرب، وهي ليست دولة استعمارية. وهي تريد صادقة ألا تقوم حرب ثانية. وهي لذلك ستفرض حق تقرير المصير وتفرض الجلاء. وعبثا حاولت أن أقنعه بأن يخفف من غلوائه ومن حماسته. وعبثا حاولت أن أؤكد له أن الساسة البريطانيين بما عرف عنهم من دهاء سيجدون لهذه الشروط الأربعة عشر شتى التأويلات والتفسيرات. وقد كانت آخر كلمة له: لقد أصبحت لنا قضية يمكن أن نترافع فيها، ونجد الحجة القاطعة. وكان آخر رد لي على كلمته هذه أن قلت: إنك حين تترافع في قضية أمام قاض تجد الصيغة التنفيذية التي تلزم البوليس والجند ورجال الضبطية القضائية أن ينفذوا الحكم. ولست أصدق أن الولايات المتحدة تحارب إنجلترا لتحملها على الجلاء عن مصر". (١٤)

ويلتقى سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى بالمندوب السامى البريطانى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ للمطالبة بالاستقلال وتحقيق وعود الجلاء .. إلا أن اللقاء انتهى بالمراوغة.(١٥) ويكتشف الزعماء أن لا فائدة من انتظار تنفيذ الوعود، وأن لا سبيل لمصر إلا بعرض قضيتها على مؤتمر الصلح المزمع عقده فى باريس. ويتكاتف الشعب حول زعمائه، وتؤيد الحكومة سعداً، ولكن الاحتلال ينكر على زغلول ورفاقه المطالبة بحق مصر لأنهم غير منتخبين أو ممثلين للجماهير. فانهالت آلاف التوقيعات تأكيداً لاختيار سعد زغلول متحدثاً وحيداً باسمها. وكان عبدالرحمن الرافعى يتردد كثيراً على القاهرة فى هذه الفترة إذ كان يقيم بالمنصورة. وقد شارك أيضاً فى اختيار ممثلى الحزب الوطنى ضمن الوفد المزمع تشكيله لحضور مؤتمر السلام فى باريس. ويقع الاختلاف بين الحزب الوطنى وسعد حول الأشخاص ويختار سعد زغلول عضوين فقط من المتعاطفين مع الحزب الوطنى هما مصطفى النحاس والدكتور حافظ عفيفى.

ويرفض الإنجليز سفر سعد زغلول ورفاقه إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح ويقبضون عليهم وينفوهم إلى مالطة فى ١٩ مارس سنة ١٩١٩. الأمر الذى يرفع درجة الغليان الشعبى، وفى نفس اليوم تقوم الثورة. ويقابلها الإنجليز بإطلاق الرصاص، ويسقط الشهداء. يقول الرافعى بعد ذلك عن الثورة فى كتابه الذى صدر عام ١٩٤٦ "ومن الحق أن

نعد ذكاء الأمة المصرية وسبقها الأمم الشرقية فى مضمار التقدم والنهوض، من أسباب ثورة سنة ١٩١٩ وكانت مصر أيضا أسبق الأمم الشرقية قاطبة إلى رفع لواء النهضة الجديدة وخوض غمار الجهاد عقب انتهاء الحرب الأولى مباشرة. فإنه لم يكد يعود السيف إلى غمده حتى رفعت مصر صوتها عاليا، فهزت الإنسانية بثورة سنة ١٩١٩ التى لفتت إلى أرض الكنانة أنظار الشعوب فى الشرق والغرب".[١٦]

ويلعب الرافعى دورا بارزا فى المنصورة - وهى بلد ثائر على الدوام - فى تلك الأيام العصيبة، ويحدث أن يسافر يوما إلى القاهرة، وفى نفس اليوم تهب المنصورة جميعها متظاهرة، ويسقط من أبنائها تسعة عشر شهيدا. ويقرر قائد القوة الإنجليزية بها - كانت عاصمة الدقهلية أحد معاقل جيش الاحتلال البريطانى - إنذار أهلها بأنه فى حالة تكرار التظاهر، فسيعاقب مدبريها وهم محمود نصير والدكتور محمود سامى وعبد الوهاب البرعى وعبد الرحمن الرافعى بإطلاق الرصاص عليهم فى ميدان عام! ولما بلغ خبر الإنذار الرافعى فى القاهرة وكان يستعد للعودة إلى المنصورة عن طريق النيل بعد قطع المواصلات ومنع السلطات الإنجليزية المرور بها إلا بتصريح، لم يعبأ وأصر على العودة وكانت وسيلته فى السفر مركب شراعى قطعت المسافة فى ثلاثة أيام![١٧]

وتتتابع الأحداث فالثورة التى غمرت البلاد من أقصاها إلى أقصاها أخذت تكبد قوات الاحتلال خسائر فادحة،

وتعمق أكثر الكراهية ضد الإنجليز. وهكذا فبعد أقل من شهر يضطر المستعمر إلى الإفراج عن الزعماء والسماح لهم بالسفر إلى باريس. والأسلوب الذى اتخذه الإنجليز للإسراع فى إعلان هذا النبأ، يبين إلى أى مدى ركب الذعر الاحتلال البريطانى من امتداد الثورة، فقد عمد الإنجليز إلى توزيع المنشورات التى تحمل خبر الإفراج، عن طريق الطائرات تقوم بتوزيعه وإسقاطه فى القاهرة والأقاليم على السواء وعلى القرى فى أعماق الريف! كما قال أحمد شفيق: "وطارت الطيارات ليلا إلى الجهات وألقت عليها البلاغ".(١٨) ويسافر الزعماء إلى فرنسا ويلحق بهم وفد من مصر. ولكن مؤتمر الصلح لا يسمح لهم بعرض القضية المصرية، بل ويحدد إقامة الوفد المصرى! ثم تعلن قرارات المؤتمر الموافقة على الحماية الإنجليزية على البلاد! وتعود الاضطرابات مرة أخرى. وتوفد الحكومة الإنجليزية لجنة ملنر لتقصى الحقائق ويقاطعها الشعب بأجمعه، ولم تظفر اللجنة إلا بلقاءات الرسميين. وقد أبدع بيرم التونسى فى تصوير سعى ملنر الفاشل وهو يكتب:(١٩)

دخل السفير ملنر على مصر شارى

قالت بنى الأحرار حدانا البضايع

لم يلتق ملنر خلاف المعادى

أمير بنى الأحرار فى مصر بايع

بيحسب المصرى - أمير الديالم -

يصبح بحد السيف والرمح طايع

فرشـــــت فـرش الليـف ذوات العـــرايب

في السـجن والطراريـح حريـد للتبايــــع

واتغربـت أشـرافنا عـن ديارهـــــــم

بـهم يضيـق الملـك والملـك شايـــــع

واتيتمـت أطفـال ومـن كـان عاقــــــر

أخـذ النصيـب والحـزن فـي مصـر شايــــع

دار الزمـان وأن دار علـى دى التخــــاين

خفـض مـو ازينـها وعلـى الرفايـــــــع

يـا آكليـن الحـق رحتـم فـي نايبـــــــه

والحـق ده ينعـاد ولـو كـان ضايــــــع

هـذا الغليـان الشـعبي العـارم يبلـغ حجمـه الكبـير فـي نفـس عبـد الرحمـن الرافعـي فلـم يسـتطع أن يحتفـظ بهدوئـه المعـروف وإيثـاره للعمـل المسـالم، فـإذا بـه يتحـول مـرة واحـدة إلى العنـف وأعمـال العنـف. يقـول علـى أميـن: "اختـار سـعد زغلـول عبدالرحمـن الرافعـي عضـوا فـي الجـهاز السـرى لثـورة ١٩١٩ مـع أحمـد مـاهر والنقراشـي وحسـن كـامل الشيشـيني وغـيرهم مـن أسـاتذة الجامعـات الذيـن اختـارهم سـعد لتدريـب فـرق الفدائييـن التـى تـهاجم أفـراد القـوات الإنجليزيـة بالمسدسـات والقنـابل. وعـاش عبـد الرحمـن الرافعـي تحـت الأرض فـي الثـورة سـنوات طـوالا، وعـرف أسـرار الثـورة ولكنـه دفنـها فـي صـدره حتـى بعـد أن خـاصم سـعد زغلـول".(٢٠)

ومـع أن الرافعـي لـم يشـر فـي مؤلفاتـه إلـى هـذا الـدور ولـم يعـترف فـي مذكراتـه بـهذا التحـول، إلا أن البـاحث المدقـق

يستطيع أن يلمح فى أحد كتبه التى أصدرها بعد الثورة. سنة ١٩٢٣ تلميحا وإن كان بأسلوب غير مباشر فى الحقيقة - "وأما الشرق فقد هزت الحركة المصرية أعصابه وكانت لشعوبه مثالا يحتذى فى اعتماد الأمم على نفسها واستعانتها بقوتها وعدم تعويلها على الوعود الكاذبة التى كان الحلفاء يعلنونها وينادون بها قبل أن تضع الحرب العامة أوزارها. فليس ثمة شك فى أن الشرق كان مسترسلا للامال والأحلام مصدقا للوعود والمبادئ المزيفة التى أعلنها أقطاب الحلفاء ولاسيما ويلسون الذى خدع الأمم بمبادئه الأربعة عشر المشهورة. فكانت الحركة المصرية وما انطوت عليه من الإقدام والمبادرة بالجهاد دليلا على بعد نظر الأمة المصرية واعتقادها فى وعود الحلفاء ومبادئ ويلسن أنها كلام وأوهام وأنها أكاذيب لا يقصد منها إلا تخدير أعصاب الأمم".[٢١]

وعند هذا التغيير الجذرى تفاجأ بشىء مثير هو إغفال الرافعى لهذا التحول فى كيانه ومواقفه .. فلم يشر إليه أو يسجله مفسرا أو منكرا. إلى الدرجة التى أبدته على العكس فى بعض ما كتب ضد أعمال العنف فى ثورة ١٩١٩، مما عرضه لاتهام أكثر من واحد من الدارسين بإهمال الدور البطولى لعمليات الاغتيال ضد الإنجليز. يقول المستشار حلمى شاهين: لقد حاولت كثيرا أن أكتشف الدور العنيف لأستاذى فى هذا المجال، ولكننى لم أظفر إلا بجواب شديد الإيجاز .. يرفض صاحبه الإسهاب ونحن يومذاك

بالإسكندرية وأنا أسأله مداورا: هل شاركك أخوك أمين الرافعى فى الاغتيالات؟ فرد بسرعة: لا .. "كان ملهوش دعوة بالحكاية دى". ويتابع المستشار: فربطت توا بين قوله وبين إعجابه وإشادته الدائمين بزميلى الجهاز السرى والاغتيالات محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر. وتأكيدا لما يرويه المستشار شاهين يقول الرافعى عن مقتل أحمد ماهر والقاتل محمود العيسوى كان يعمل محاميا بمكتب عبد الرحمن الرافعى نفسه بالقاهرة - ولم يشر مؤرخنا فى كتاباته عن عمل القاتل بمكتبه - "أطلق عليه محام شاب متهوس يدعى محمود العيسوى الرصاص فأصابه إصابات قاتلة أودت بحياته. كان لهذا الاعتداء المنكر وقع أليم فى النفوس، ولقد علل القاتل فعلته الشنعاء بأن أحمد ماهر تسبب فى إعلان مصر الحرب على ألمانيا. ولعمرى إن ماهر لم يرتكب بذلك إثما، بل كان عمله هو السبيل إلى قبول مصر عضوا فى مؤتمر سان فرنسيسكو الذى أنشئت فيه هيئة الأمم المتحدة، ذلك أن أقطاب الحلفاء الذين اجتمعوا فى مؤتمر القرم اشترطوا لقبول أى دولة فى هذا المؤتمر أن تعلن الحرب على المحور قبل أول مارس سنة ١٩٤٥، وكانت الحرب العالمية قد أشرفت على نهايتها، ولم يكن إعلان الحرب إلا إجراء شكليا، وقد بادرت كل دولة غير محاربة وقتئذ إلى إعلان الحرب على ألمانيا واليابان، وفى مقدمة هذه الدول تركيا وسوريا ولبنان، لكى تظفر بعضوية المنظمة الدولية الجديدة. فلا جرم كان عمل الفقيد وسعيه

فى أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا واليابان عملا قوميا سليما، لم تخسر مصر فيه شيئا، بل أفادت منه بقبولها عضوا فى هيئة الأمم المتحدة لها من الحقوق (نظريا) مثلما لبقية الدول الأعضاء. ولكن الوفديين استغلوا هذا الموقف، وأثاروا النفوس على أحمد ماهر. موهمين الناس أنه يسعى للزج بالبلاد فى أتون الحرب وإرسال المصريين إلى الخارج ليحاربوا فى ميادين القتال البعيدة. ونشر النحاس بيانا بهذا المعنى احتوى على شر أساليب الاغراء وإثارة الأحقاد فى النفوس، فافتتن الأغرار من هذه الدعاية المغرضة، وكان من أثر هذه الفتنة وقوع تلك الجناية الفظيعة التى ذهب ضحيتها زعيم من خيرة رجالات مصر وعلم من أعلام الجهاد". [٢٢]

ويقول عبد الرحمن الرافعى فى موضع آخر عن زميلى الاغتيالات .. "حزنت وجزعت لمقتل الشهيد أحمد ماهر، وحزنت وجزعت لمقتل الشهيد النقراشى، لقد كانت تجمعنى بهما منذ الشباب صلات الود والصداقة الخالصة، كان أحمد ماهر زميلا وصديقا لى منذ كنا فى مدرسة الحقوق، وتخرجنا معا سنة ١٩٠٨، وترجع صداقتى للنقراشى إلى أواخر سنة ١٩١٨ حيث جمعتنا الحركة الوطنية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، كنا زملاء فى الجهاد وقتا طويلا، ولئن اختلفنا فى بعض الاتجاهات السياسية، فإن صداقتى لهما لم تنقطع، وظللت أحفظ لهما على مر السنين تقديرا خالصا، وأرى فى شخصيهما ومواهبهما ركنا مكينا فى صرح الحياة السياسية والقومية فى البلاد، وكانا رحمها الله

يبادلانني الشعور والتقدير. وإن انس لا أنسى يوم دعوت في أواخر سنة ١٩٣٩ إلى اكتتاب عام لإصلاح ضريح "مصطفى كامل". فكان أحمد ماهر في مقدمة من لبوا دعوتي وظهر اسمه في أول قائمة للمكتتبين في المشروع. وكان وقتئذ رئيسا لمجلس النواب. كان أحمد ماهر يمتاز منذ أن كان طالبا بمدرسة الحقوق بشجاعته وصراحته وإقدامه، وذكائه المتوقد. ومنطقه السليم، وأفقه الواسع، وصفاء نفسه، ورحابة صدره، وقد لازمته هذه الصفات طول حياته. وكان النقراشي يشاركه في هذه المزايا، وخاصة في الشجاعة والصراحة والإقدام، ولئن كان يقل عنه في الذكاء والألمعية، فإنه يفوقه في صلابته في الحق، وصرامته في العدل والاستقامة، كلاهما مكمل لصاحبه، وهما في ميدان الجهاد صنوان، وفرسا رهان، ليس من السهل ظهور رجال كثيرين من طراز ماهر والنقراشي، لقد ألمني وحز في نفسي أن يلقى المجاهدان الشهيدان مصرعهما من أيد مصرية، وهما اللذان طالما عرضا حياتهما للخطر واستهدفا للموت في سبيل مصر والمصريين، فما أقسى تصاريف القدر! وما أقل الوفاء في هذه الدنيا، وما أشد ما يعبث الضلال بالعقول والأفهام، رحم الله الشهيدين ماهر والنقراشي، وإلى روحهما الفاتحة". (٢٣)

وهناك شهادة أخرى على مشاركة الرافعي في أعمال عنف الثورة، يقدمها محمد إبراهيم جمعة عن أبيه صديق الرافعي، أن هذا الأب ذكر لابنه أنه شاهد الرافعي المحامي

بالمنصورة، يسلم بمكتبه مسدسات ألمانية لمجموعة من الشباب الفدائى! ويؤكد هذا الدور العنيف أكثر أول من قدم رسالة جامعية عن ثورة ١٩١٩ وحصل بها على درجة الماجستير من جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة وكانت عن "سعد زغلول وثورة ١٩١٩" وهو الصحفى المعروف الأستاذ مصطفى أمين .. "وأذكر أننى رأيت فى أوراق سعد زغلول الخاصة أوراقا فهمت منها أن الأستاذ عبد الرحمن الرافعى كان عضوا فى المجلس الأعلى للاغتيالات أثناء ثورة ١٩١٩! وذهلت! فإننى قرأت كل الكتب التى ألفها المؤرخ الكبير، ولم أجد إشارة واحدة إلى هذا الموضوع. وكنت أعرف عبد الرحمن الرافعى معرفة عائلية، فقد كان شريكا لوالدى فى مكتب للمحاماة فى المنصورة ودمياط، وكانت تربطنا صداقة عائلية، وكثيرا ما حضرته وهو يتبادل ذكرياته، ولم يذكر مرة واحدة أنه كان عضوا هاما فى الجهاز السرى للثورة! وذهبت إليه وسألته: هل كان حقيقة عضوا فى المجلس الأعلى للاغتيالات؟ قال: نعم. قلت: لماذا لم تذكر هذا فى كتبك ومذكراتك؟ قال: لأننى أقسمت اليمين ألا أفتح فمى مادمت حيا! قلت: لماذا لا تكتب هذه الأسرار وتطلب ألا تنشر إلا بعد موتك؟ قال ضاحكا: لو كتبت ذلك أكون قد حنثت فى اليمين"![٢٤]

وحكاية أخرى يذكرها مصطفى أمين فى موضع آخر، عندما استقل أبوه وأمه وصغيراهما إبان ثورة ١٩١٩ أيضا مركبا شراعيا من القاهرة للتوجه إلى دمياط، حيث كان

يعمل محمد أمين يوسف محاميا بها. بعد أن قطع الثوار خطوط السكك الحديدية وأقامت الأسرة ليلة في بيت عبدالرحمن الرافعي بالمنصورة، وتسلم الرافعي جزءا من المنشورات التي كانت والدة مصطفى وعلى أمين تربطها حول بطنها. وكما يقول الابن "ونقص وزن أمهما وأصبحت لأول مرة، منذ بداية الرحلة، تستطيع أن تمشي وتتحرك بسهولة!" ثم استأنفت الأسرة السفر بالقطار إلى دمياط، وكان الإنجليز قد استطاعوا في اليوم السابق إصلاح الخط الحديدي بين المنصورة وبورسعيد، وسمع الطفلان - مصطفى أمين وعلى أمين - عبد الرحمن الرافعي يقول لأبيهما وهو يودعهم على رصيف المحطة، هذا القول ذو الدلالة "إن هذه هي آخر رحلة لهذا القطار، لأن الثوار سيحطمون القضبان في أثناء الليل"![٢٥]

وإذا كانت هذه السطور قد كشفت النقاب عن دور عبدالرحمن الرافعي وعنفه المستكن في الأعماق والذي لم يظهر إلا ساعة الشدة، فإن الدراسات الحديثة توصلت إلى ما هو أبعد من ذلك. فوضعت أصابعها على أن الرافعي كان صالحا من وجهة نظر زعيم الثورة سعد زغلول، ليكون أول الكفاءات الصالحة للقيام بالعمل الوطني العنيف السري .. هو أولا ثم أخوه أمين الرافعي ثانيا! يكتب مصطفى أمين في الجزء الثاني من دراسته "ولقد دهش عبد الرحمن الرافعي عندما علم أخيرا أن الكشف الذي كتبه سعد زغلول وسلمه في ديسمبر سنة ١٩١٨ لعبد الرحمن فهمي رئيس الجهاز

السرى لثورة ١٩١٩ عن الأشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم "كان أول اسم فيه (فى هذا الكشف) هو اسم عبدالرحمن الرافعى! .. والاسم الثانى هو اسم أمين الرافعى! .. ولكن إذا كان عبد الرحمن الرافعى وأمين الرافعى لم يقبلا عضوية الوفد - لأن اللجنة الإدارية للحزب الوطنى لم توافق على ذلك - إلا أنهما اشتركا فى الثورة من يومها الأول .. ".[٢٦]

ومع ذلك، فلا يزال هناك سؤال يتردد وهو .. ما الذى دفع عبد الرحمن الرافعى إلى العنف والاشتراك فى جماعة "اليد السوداء"؟ هناك أكثر من سبب، فلاشك أن ضراوة المحتل الإنجليزى فى ضرب ثورة ١٩١٩ بإطلاق الرصاص حتى على المظاهرات السلمية عمل يخرج الحليم عن هدوئه، ويؤكد أنه لا يمكن مقابلة العنف برفع أغصان الزيتون، بل بالعنف. خاصة إذا كان غضبة جماهيرية. كما لم يكن مفهوما بالنسبة للمثقف المصرى كيف تهبط الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس صاحبة الحضارة العصرية العظيمة المتنورة إلى أن تقتل النساء والأطفال، لقد أدرك الرافعى أن القوة التى ستمنع من أن تتحول البلاد كلها إلى دنشواى أخرى وستلقن الاستعمار الإنجليزى درسا لن ينساه عندما يتعرض رجاله وممتلكاته للخطر. يشجع على ذلك أن الشعب المصرى قد أقبل على التضحية بحياته بفدائية منقطعة النظير، وكان الفلاحون وأولاد البلد أسبق الجميع إلى هذه التضحية الغالية، فهل يعقل ألا يشارك

هـو فـى قمـة العنـف والخطـر؟ وبـاعث رابـع يسـتخلص مـن كتابـات الرافعـى المبكـرة، فـهى جميعـا تحفـل بـلا اسـتثناء بالإشـارة إلـى مقاومـة الشـعوب الأجنبيـة المختلفـة مثـل الفنلدنيـة والبولنديـة والتركيـة وغيرهـا لمسـتعمريها والعمـل على نيـل استقلالها بـالعنف وإراقـة الدمـاء، يجـد القـارئ ذلـك فـى كتاباتـه الأولـى فـهو يكتـب: "فنلنـدا ولايـة ممتـازة مـن الولايـات الروسـية، حـافظ أهلـها علـى اسـتقلالهم الداخلـى وقـاوموا كـل اعتـداء مـن الحكومـة الروسـية علـى دسـتورهم فـهم مـن الشـعوب الحيـة التـى عرفـت كيـف تدافـع عـن حريتـها وتحـافظ عليـها".[٢٧] ويسـطر فـى مـوضع ثـان .. "واغتصبـت الروسـيا وبروسـيا أجـزاء مـن بولونيـا سـنة ١٧٩٣، وحيـال هـذا الاغتصـاب دافـع البولونيـون عـن بلادهـم دفـاع الأبطـال وأعلنـوا الجـهاد الوطنـى فـى ٢٤ مـارس سـنة ١٧٩٤ .. ولمـا فشـلت فـى دفـع العـدوان، بقيـت بولونيـا تـرزح تحـت نـير الاضطـهاد السـنين الطـوال علـى أن الـروح البولونيـة لـم تـتزعزع أمـام الشـدائد ولـم تضعـف أمـام المصـائب بـل بقيـت الأمـة ثابتـة فـى يقينـها قويـة بحقـها تتحيـن الفـرص لتحقيـق آمالـها".[٢٨] وفـى موضـع ثـالث يقـول "إن القـوة تحكـم الآن كمـا حكمـت فـى بلجيكـا وفـى الصـرب ورومانيـا وفـى شـمال فرنسـا أثنـاء الحـرب العامـة. ولـم يطعـن أحـد فـى حيويـة تلـك الأمـم لأن مظـاهر التذمـر والاسـتياء والألـم كـانت تحفـظ لـها حقـها وتصـون كرامتـها" .. وفـى جـانب آخـر يقـول: "إن الاسـتقلال والاحتـلال الأجنبـى لا يتفقـان ولا يلتئمـان. هـذه الحقيقـة

فهمها الأتراك عندما احتل الحلفاء الآستانة فى ١٦ مارس سنة ١٩٢٠، فقد عطل البرلمان العثمانى جلساته إذ رأى من العبث أن ينعقد ويعمل وسلطة الاحتلال الأجنبى قائمة بجانبه، وانتقل النواب الوطنيون إلى الأناضول حيث أخذ المجلس الوطنى الكبير ينعقد فى أنقره ويعمل بعيدا على نفوذ الاحتلال"[٢٩] وعامل خامس يبكر بتاريخ مشاركة الرافعى فى الأعمال الفدائية، يشير إليه أحد الأصوات الوطنية المصرية الذى يعرف صاحبه الكثير عن الرافعى وهو فتحى رضوان المحامى الذى يقول عنه: "ومحمد فريد هو فى واقع الأمر مؤسس مدرسة العمل السرى ضد الاحتلال البريطانى، وكان عبد الرحمن الرافعى بحكم صلته الوثيقة وتأثره الشديد بشخصيته وبأسلوبه فى العمل الوطنى أحد أركان هذه المدرسة التى ضمت فيما ضمت: شفيق منصور المحامى الذى حكم عليه بالموت شنقا فى قضية مقتل السردار، وأحمد ماهر، ومحمود فهمى النقراشى وعبده البرقوقى وحسن كامل الشيشينى وسليمان حافظ وغيرهم. وقد آلت زعامة هذه المدرسة إلى عبد اللطيف الصوفانى فاستمر يديرها بشجاعة واستهانة بالمخاطرة مع دأب ومثابرة وحرص إلى آخر أيام حياته".[٣٠]

فليس من قبيل الصدف إذن أن ينضم الرافعى إلى "اليد السوداء" .. ساعده كثيرا من ذلك الانضباط الذى يأخذ نفسه به فى كل أعماله، كما أن مبدأ التضحية فى سبيل الوطن عقيدة فى دمه ويكفى تفرغه المثالى لكتابة تاريخ

مصر الوطني. يقول عبد الرحمن الرافعي في كتيبه الذي ظهر بعد ثورة ١٩١٩ "هذه المنزلة التي نالتها حركتنا المصرية يجب أن نحتفظ بها لأنها أصبحت في حكم التاريخ أنموذجا صالحا لنهضة الشعوب التي تجاهد في سبيل حريتها جهاداً سليما. ولا يجمل بنا بعد أن نالت بلادنا تلك المنزلة أن نقف في منتصف الطريق ونقبل الهوادة في حقوقنا ونرضى بالنكوص على الأعقاب والرجوع إلى الوراء. بل يجدر بنا كلما تضاعفت العقبات وتعددت الصعاب، أن نروض أنفسنا على مقاومتها وتذليلها والمضي في سبيلنا. لأننا عندما أخذنا على أنفسنا تبعة الجهاد القومي لم نكن نعتقد أن نجد السبل أمامنا مذللة والغاية سهلة المنال، بل وطنا النفس على استمرار الكفاح والنضال والتذرع بالثبات والمثابرة". [٣١]

ثم أخذت الأعمال الفدائية والاغتيالات تنحسر شيئا فشيئا، إلى أن كف عبد الرحمن الرافعي يده منها، كما أكد ذلك أيضا اعترافات شفيق منصور أحد المتهمين في قضية اغتيال السردار لي ستاك باشا بعد ما انتهى الحكم بإعدامه، [٣٢] وعاد إلى هدوئه الخارجي والداخلي مرة أخرى. كيف؟ يقول الرافعي سنة ١٩٤٦ ".. كنت سنة ١٩١٩ لا أزال في الثلاثين من عمري، أزاول مهنتي (المحاماة) في المنصورة، وكانت تغلب على نزعة الشباب، وأتوق إلى أن تسلك الأمة سبيل العنف في جهادها، أما الآن فإني أميل إلى مبدأ عدم العنف، وأراه أقوم السبل وأقربها إلى النجاح

والتقدم، وبعبارة أخرى لست من دعاة الثورة Revolution وأوثر عليها التطور فى النهضة Evolution، ومع ذلك لم تتغير وجهة نظرى فى الجهاد، فإنى أشعر والحمد لله بأن الشعلة التى تضطرم فى نفسى لا تزال كما كانت، لم تهبط لها حرارة، ولم يضعف لها أوار. فالمقاومة الوطنية هى سبيلى فى الحياة، وهى السبيل التى أدعو إليها، وأنشد للوطن المزيد منها، والثبات عليها. وهى سبيل كل أمة تريد المحافظة على كيانها، فى خضم هذا المعترك العالمى، إذ لابد لها من ذخيرة من المناعة تدافع بها الحادثات. على أن المقاومة أو المناعة شىء، والعنف شىء آخر. وقد يكون عدم العنف أدعى أحيانا لدوام المقاومة واستمرارها، وأجدى عليها من عنف يعقبه فتور، ثم تراجع وخمود".(٣٢)

فالرافعى كما نرى قد أسقط بواعث ارتداده عن الثورية، ولكن المتابعة لكتاباته والظروف السياسية التى أحاطت بالبلاد فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩، تساعد على تفسير موقفه. فالإجراءات العنيفة للسلطات الإنجليزية للاغتيالات السياسية، وتعاون الحكومة المصرية فى فرض الهدوء الداخلى، وتخاذل بعض الفدائيين بعد القبض عليهم أو بعد الحكم عليهم بالإعدام واعترافهم على زملائهم، والانقسام الوطنى الذى أصاب البلاد. والاضطهاد بالشبهة، جميعا دفعت الرافعى إلى التوارى والبعد. وغالى فى ذلك إلى درجة إغفاله الكتابة عن هذه الاغتيالات فى أعماله التى تناولت الثورة، الأمر الذى سحب ظله على قضية الاغتيالات ككل ..

مما عرضه لنقد عنيف. يكتب الدكتور حسين مؤنس في إحدى دراساته "ومن الغريب أن عبد الرحمن الرافعي لم يعط العمل الفدائي حقه من الأهمية، بل هو يستنكر أعمال الفدائيين ويعتذر عند إيراده إياها، يقول: "وإنا - مع استنكارنا لمبدأ الاعتداء وحوادثه - نذكر فيما يلي تسجيلا للوقائع التاريخية من حوادث الاعتداء بترتيب وقوعها - ثورة ١٩١٩ جزء ثان صفحة ٨٤ - وهو يقول هذا بعد أن يسرد محاكمات الثورة، ويعدد الأحكام الجائرة التي أنزلتها المحاكم العسكرية البريطانية بكل مواطن ثبت اشتراكه في الثورة، أو قيامه بأي عمل عدائي ضد المحتلين. وفي قضية واحدة منها أصدرت المحكمة العسكرية حكما بإعدام ٥١ مواطنا من أهل دير مواس بمديرية أسيوط، وأعدم ثلاثة من المصريين في قضية قتل فيها إنجليزي في الواسطى، وفي القضية نفسها حكم على ثلاثة آخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة. وهذه كلها كانت اعتداءات إجرامية على المواطنين المصريين - وإن تمت على يد محكمة عسكرية - لأن قضاتها جلادون. ومثل هذه الأحكام تصدرها اليوم سلطات الإرهاب الصهيوني على أهالي الأراضي المحتلة في فلسطين، والغرض منها إبادة شعب بأسره. ومع هذا يستنكر عبدالرحمن الرافعي أعمال الفدائيين المصريين، وكأنه كان ينتظر أن نظل نطرق أبواب الإنجليز في أدب مبالغ حتى يخجلوا من أنفسهم ويرحلوا". (٣٤)

وتسير الحياة السياسية في مصر كما رسمها الاحتلال،

فى ظل حكومات عميلة تحتمى بالأحكام العسكرية التى كانت رأس الحربة المسددة إلى قلب الشعب. ولا تعدم مصر من أبنائها من يجاهر بصوته داعيا للاهتمام بها. ويظل الدعاة يجاهدون من أجل الديمقراطية والحرية والجلاء، إلى أن تنتصر كلمة الحق ويخضع الاحتلال للإرادة الشعبية فيمنح البلاد استقلالا داخليا بإصداره تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، فيعلن الملك فؤاد الدستور المصرى الثانى - بعد دستور شريف إبان حكم توفيق - فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ وتبعه بالدعوة للانتخابات لمجلس النواب والشيوخ.(٣٥) ورأت الجماهير أن هذا الاستقلال الداخلى المشوب بتحفظات مقدمة للاستقلال التام، لأن النضال الشعبى هو السبيل لتحقيق الأمانى الوطنية. ويتقدم للترشيح كبار السياسيين والشباب من مختلف الأحزاب القائمة فى ذلك الوقت. ويرى عبد الرحمن الرافعى أن يخوض المعركة الانتخابية عن مركز المنصورة، متابعة للخط الوطنى الذى ينتهجه منافسا لمرشح حزب الوفد عن نفس الدائرة على بك عبد الرازق. وكان حزب الوفد قد شكل لجانا من الطلبة فى كل دائرة لتأييد مرشحيه والدعاية لهم، إلا أن لجنة الطلبة العامة بالدقهلية خالفت القاعدة بالنسبة إلى دائرة مركز المنصورة .. إعجابا وتقديرا لعبد الرحمن الرافعى، وعزفت عن تأييدها لمرشح الوفد مزكية الرافعى .. الذى لم ينس هذا التأييد أبدا .. "وكان لطلبة الدقهلية لجنة تسمى (لجنة الطلبة العامة بالدقهلية) ساهمت فى المعركة

الانتخابية، وكان أعضاؤها يزكون مرشحي الوفد في دوائر المديرية، ولكنهم استثنوا دائرة مركز المنصورة، فمع أنهم كانوا في الغالب وفديين، آثروني على مرشح الوفد. وعملوا ذلك بوازع من ضميرهم ووجدانهم، وكان لانضمامهم إلى جانبي أثر محمود في نجاحي، وحفظت لهم هذا الجميل على مدى السنين، وقد صاروا الآن من رجالات القضاء أو المحاماة أو الطب، وأذكر منهم: الأستاذ أحمد كمال (بك المستشار بمحكمة الاستئناف). والأستاذ حسين حسني المحامي. الأستاذ علي السعدني (القاضي الآن). الأستاذ عبد الحميد خلاف (القاضي). الأستاذ محمود البحيري (رئيس النيابة). الدكتور زكي منتصر. الأستاذ بدوي حمودة (بك المستشار بمجلس الدولة الآن). الأستاذ محمد عاشور سكرتير عام شركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى. الأستاذ عبد الخالق الطنطاوي المفتش بالأوقاف. الأستاذ عباس رمزي وكيل النيابة .. الخ".[٣٦]

ويذكر المستشار بدوي حمودة رئيس المحكمة العليا بالقاهرة السابق عن هذه الواقعة .. "عرفت المغفور له الأستاذ عبد الرحمن الرافعي عندما كان محاميا في مدينة المنصورة مسقط رأسي. وكان علما من أعلام المحاماة بلغ مكانة مرموقة جدا بشخصيته النبيلة الكريمة وبماضيه الناصع في الكفاح في صفوف الحزب الوطني، عندما كان الحزب الوحيد في ذلك الوقت. وكان نشاطه في مجال السياسة نشاطا ملحوظا، وقد ساهم في جميع حركات

الحزب الوطنى التى لم يتح لى أن أعاصرها فى ذلك الوقت. ولكنى أعلم أنه ساهم فى الحياة السياسية منذ بدأت فى عام ١٩٢٤ إثر صدور الدستور لأول سنة ١٩٢٣، وقد رشح نفسه فى دائرة مركز المنصورة التى يقع فيها موطنى الانتخابى، وقد ألف الوفد برياسة المغفور له الزعيم سعد زغلول فى ذلك الحين لجانا من الطلبة لتأييد مرشحى الوفد بالانتخابات، وقد كنت سكرتيرا للجنة الطلبة الوفدية فى مديرية الدقهلية وكان رئيسها زميلى الأستاذ أحمد كمال المستشار السابق، وكانت تضم طلبة الكليات والمعاهد العليا فى ذلك الوقت. وكانت رسالة اللجنة كما قلت تأييد مرشحى الوفد والدعاية لهم فى جميع دوائر المديرية ما عدا دائرة مركز المنصورة، التى رشح فيها المغفور له عبدالرحمن الرافعى. وقد كان خصم الرافعى الذى رشحه الوفد رجلا لا يبلغ مبلغ عبد الرحمن الرافعى فى تاريخه الطويل فى خدمة الوطن. ومن أجل هذا عقدنا اجتماعا خاصا لبحث موقف اللجنة بالنسبة لهذه الدائرة بالذات .. هل نؤيد خصم عبد الرحمن الرافعى رغم أنه أقل منه أهلية بالنهوض لعمل وطنى جليل بالنيابة عن الأمة، وكان عملا جليلا مشرفا لهذه اللجنة أن أجمعت آراءها على عرض الأمر على هيئة الوفد برياسة سعد زغلول، بعد إجراء استفتاء فى الدائرة لمعرفة رأى الناخبين فيها. هل هو إلى جانب هذا المرشح أم ذاك وفعلا قمنا بجولة فى هذه الدائرة، واتصلنا بجميع العائلات وكثرة الناخبين فيها، قمنا

بعمل شبيه باستفتاء شعبي. وكانت نتيجة هذا الاستفتاء أن أغلبية ضئيلة تؤيد المغفور له عبد الرحمن الرافعي، ولكن اتجاه اللجنة كان تصميما على تأييد عبد الرحمن الرافعي. فأعددنا تقريرا رفعناه إلى هيئة الوفد بنتيجة هذا الاستفتاء واقترحنا ترك هذه الدائرة دون ترشيح أحد من الوفد وإخلائها لعبد الرحمن الرافعي. وكان رد الوفد عنيفا .. بعث إلينا بحملة يرأسها المغفور له حمد باشا الباسل والمغفور له الأستاذ محمود غنام وبعض أعضاء الوفد الآخرين، واجتمعوا بنا في مقر اللجنة في نادى بشارع البحر لا يزال قائما إلى اليوم بجوار فندق الأكربول. ودارت مناقشة بين أعضاء الوفد وبين أعضاء اللجنة، وكانت حجة أعضاء الوفد أنه حزب وأن النظام الحزبي يقتضي من أعضائه وأنصاره وأتباعه تأييد مرشحيهم مهما كانوا. وكانت مناقشتنا تدور حول تغليب الأهلية والكفاية على اعتبار الحزبية، خاصة وأن أكثرية النواب المرشحين من قبل الوفد في هذه المديرية كانوا ذوى الكفاية ولم يكونوا في حاجة إلى غيره. ولم يكن كثيرا على الوفد أن يترك دائرة واحدة في مديرية تضم ٢٥ دائرة على ما أتذكر لمرشح ممتاز ذو ماض مجيد مثل عبد الرحمن الرافعي. وانتهى الاجتماع بإعلان فصل طلبة اللجنة وحلها، وكان الرد أن انقلبت اللجنة كلها إلى جانب عبد الرحمن الرافعي تؤيده علنا .. حتى أننا أخذنا إجازات من دراستنا في أيام الانتخابات، وخصصنا هذه الإجازة للعمل لتأييد عبد الرحمن الرافعي

والدعاية له حتى نجح .. ولو أن النجاح كان بصوت واحد، وأعتقد أن المغفور له عبد الرحمن الرافعي لم يكن يتوقع هذه النتيجة، لأن قوة حزب الوفد في ذلك الحين برياسة سعد زغلول كانت لا قبل لأحد بمغالبتها والوقوف في وجهها، ونجح عبد الرحمن الرافعي وكان علما في أول برلمان أختير سنة ١٩٢٤ وكان موضوع تقدير سعد زغلول نفسه عندما تولى رياسة الحكومة".(٣٧)

ويروى على عبد الله قرمد عن ذكرياته مع الرافعي إبان الانتخابات فيقول: "التقيت به إبان شبابي عندما كنت أدرس بالمعهد الديني بطنطا وطالعت كتاباته العديدة في صحافة هذه الفترة وعرفت ثوريته التي أدت إلى اعتقاله في المنصورة سنة ١٩١٥، كما شارك في لجان جمع التبرعات لحزب الوفد وهو رجل الحزب الوطني إبان وجود سعد زغلول في باريس ولندن. بالإضافة إلى مساعدته لأسر ضحايا الثورة والعمال المصريين، كما شاهدت تطوعه للدفاع مجانا عن المسجونين المتهمين في قضايا مظاهرات سنة ١٩٢١ ضد وزارة عدلي يكن، وقد ساهم في تأسيس لجنة مقاطعة البضائع الإنجليزية، وجمعية المواساة الخيرية، لذا فقد سعيت إليه أتعرف به وأتشرب من وطنيته. وكنت من شباب المنصورة الذين ساندوه في أول انتخابات مصرية. فعندما تشكلت لجنة تنفيذية للدعوة له، كنت ممن خطب وألف القصائد. ومن الذكريات التي تذكر بنزاهته واتزانه، أن منافسه الوفدي على عبد الرازق أصدر بيانا

يسىء إليه، فعكفت على الرد عليه وتضمنت قصيدة قلت فيها:

إليك عنا فلسنا نبتغى بـدلا
من نابغينا بأحجار وأخشاب
إنا اعتزمنا وعين الله شاهدة
أن لا نبيع ضمائرنا لكذاب
القول للشعب لا للوفد فانصرفوا
لسنا دعاة أقاويل وأحزاب
إنا نطالبكم بالعلم يصحبه
ما لا يدع حجة تبقى لمرتاب
أين الكفاءة والإخلاص أين هما
ما أن نطالبكم يوما بألقاب
دعوا ملابس سعد خاب فألكمو
لا يوجد المجد فى الدنيا بأثواب
وأتوا بأعمالكم إن صح أنكمو
جئتم لمصر بأعمال وأسباب

وذهبت بالأبيات إلى الرافعى فى مكتبه ولكننى لم أجده لأنه كان دائم التجوال فى الإقليم، فتركت القصيدة على مكتبه إلى أن يجىء ويقرأها. وفوجئت بعد قليل برسالة يبعث بها إلى على جناح السرعة غير صابر حتى أجىء إليه. يقول فيها ".. اسمح لى أن أقول إن عنوان القصيدة من

جهـة - إلــى مرشــح الوفــد كلمــة رد موجــزة - وبعــض أبياتــها مـن جهـة أخـرى ربمـا يتخذهـا خصومـى سـلاحا ضـدى. ومـع أنـى فـى الواقـع لسـت مسـئولا عـن إحسـاس أصحـابى وأنصـارى فـإن خصومـى كمـا تعملـون لا يـتركون فرصـة إلا وانتـهزوها للنيـل منـى والإيقـاع بينـى وبيـن زعمـاء الوفـد، مـع مـا بينـى وبينـهم مـن الصـلات الوديـة والروابـط الوثيقـة العـرى. وإنـى لذلـك أرجوكـم رجـاء خاصـا أن لا تذيعـوا هـذه القصيـدة ويكفـى أنـى سـأحفظها عنـدى فـى سـجل الوثـائق التـى أحتفـظ بـها". (٣٨)

ولكـن مـا هـى حكايـة الصـوت الواحـد الـذى أصبـح بـه عبدالرحمـن الرافعـى نائبـا بمجلـس النـواب عـن دائـرة مركـز المنصورة؟ لقـد أجريـت الانتخابـات صبـاح يـوم ١٢ ينـاير سـنة ١٩٢٤ بعـد معركـة حاميـة الوطيـس وتوافـد النـاخبون علـى صنـاديق الانتخـاب .. ويقـترب موعـد إغـلاق الصنـاديق ويتقدم رجـل مسـن فيسـأله رئيـس اللجنـة عـن مرشـحه فينطـق باسـم الرافعـى ويسـجل لـه رئيـس اللجنـة مـا يطلـب، ولكـن العجـوز يـتراجع راغبـا فـى تعديـل اختيـاره للمرشـح الوفـدى وأنـه أخطـأ فـى الاسـم، ويرفـض رئيـس اللجنـة الاسـتجابة إلـى طلبـه. ويكتـب عبـد الرحمـن الرافعـى: "فـزت علـى منافسـى بصـوت واحـد، إذ نلـت ١٧١ صوتـا ونـال هـو ١٧٠، وكـان عـدد المندوبيـن الذيـن أعطـوا أصواتـهم ٣٤١ مندوبـا. كـان هـذا الصـوت الواحـد حديـث النـاس فـى مجلسـهم، وتحـدث النـاس كثـيرا عـن نجـاحى بصـوت واحـد، وقـال لـى بعـض الصوفيـة أنـه

صوت الله، فحمدت لهم هذا التعبير. وقلت لهم إننى فعلا كنت ومازالت (ولا أزال) معتمدا على الله. وقد طعن فى انتخابى أمام مجلس النواب. واكتنف الطعن بحوث فقهية طويلة فى نصاب الأغلبية، ومدلولها، وفى قيمة هذا الصوت الذى رجح كفتى فى الميزان، وكان سببا لنجاحى. وكان محور الطعن أن الأغلبية هى نصف الأصوات زائدا واحدا، وبما أن عدد الأصوات التى أعطيت ٣٤١ فيكون نصفها ١/٢ ١٧٠ زائدا واحدا، وتكون الأغلبية ١/٢ ١٧١ لا ١٧١، وأننى على هذا الحساب ينقصنى نصف صوت! ولكن لجنة الطعون رأت أن طريقة الحساب بهذا الشكل غير معقولة، وأن الأغلبية فى هذه الحالة تكون جبر الكسر، وأقر المجلس وجهة نظر اللجنة، وقرر رفض الطعن". (٣٩)

ويفتتح البرلمان باجتماع أعضاء مجلسى النواب والشيوخ صباح ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وكان حدثا كبيرا ".. وكان يوما مشهودا فى تاريخ مصر الحديث، فلأول مرة منذ وقع الاحتلال سنة ١٨٨٢ اجتمع نواب البلاد وشيوخها المنتخبون انتخابا حرا فى برلمان تتمثل فيه سلطة الأمة. وقد أعاد هذا الافتتاح إلى الأذهان حفلة افتتاح مجلس النواب الأول الذى اجتمع سنة ١٨٨١ فى عهد الثورة العرابية، وكان أول مجلس نيابى كامل السلطة شهدته مصر الحديثة، ثم عصفت به يد الاحتلال فألغى سنة ١٨٨٣، وظلت البلاد بلا دستور أربعين سنة متوالية، إلى أن ظفرت به سنة ١٩٢٣". (٤٠)

ويتولى الرافعي زعامة المعارضة بمجلس النواب على هدى مبادئ الحزب الوطني، ولاشك أنه أثرى الحياة السياسية بمواقفه الوطنية، إلى أن انفض المجلس باستقالة الوزارة.

وخلفت وزارة أحمد زيور الوزارة المستقيلة، وتكرر اعتداؤها على الحياة السياسية فى البلاد، فشارك الرافعى فى الاحتجاج عليها مرات فى الصحافة اليومية. واستمرت الحياة النيابية معطلة قرابة عام إلى أن دعا أمين الرافعى رئيس تحرير "الأخبار" إلى جمع شمل الأحزاب فى اجتماع موسع للبرلمان لمواجهة التسلط، فاجتمع من تلقاء نفسه فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥. واتفقت الأحزاب برئاسة سعد زغلول على توزيع الدوائر الانتخابية فيما بينها، وأجريت انتخابات مجلس النواب فى مايو ١٩٢٦ ولم يتقدم الرافعى لترشيح نفسه كما قال فى مذكراته "بيدى لا بيد عمرو" نظرا لأن الوفد لم يخصص له دائرته السابقة، بل نافسه فيها مرشح قوى من الوفديين. ويرجع الرافعى ذلك إلى اعتراض سعد زغلول عليه لتزعمه المعارضة ضد الوفد فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤.

وبعد أن ابتعد عبد الرحمن الرافعى عن الحياة النيابية قرابة ثلاثة عشر عاما، يعود إليها فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ عضوا (بالتزكية) بمجلس الشيوخ عن دائرة كفر بدواى دقهلية. والحقيقة أنه منذ انتخابه بالمجلس إلى أن انتهت عضويته به فى مايو ١٩٥١، حفلت مناقشاته واقتراحاته فيه

كما اعتاد بالموضوعية والاتزان وهو يطالب بـ[٤١]:

- تسوية ديون الفلاح.
- حماية الملكية الزراعية الصغيرة.
- الاهتمام بتعزيز الجيش.
- تبسيط النظام الداخلى للحكومة واهتمام الموظفين بواجباتهم.
- إنشاء مصنع مصرى جديد للورق بدلا من الاستيراد.
- تمصير البورصة.
- زيادة عدد الملحقين التجاريين فى القنصليات.
- تحديد النسل.
- محاربة المسكرات.
- تمجيد ذكرى الزعماء المصريين جميعا.
- تأليف موسوعة المذاهب والأحكام الشرعية بمعرفة وزارة المعارف العمومية.
- تبادل البعثات بين الأزهر والجامعة.
- تجنيب مصر ويلات الحرب الثانية بإعلان حيادها.
- عدم تخفيض سن مستشارى النقض للإحالة للمعاش من ٦٥ إلى ٦٠.
- حماية المعتقلين السياسيين.
- إحياء الصناعات الوطنية وفق برنامج زمنى.
- اهتمام بالاقتصاد المحلى والنهضة الصناعية والصناعات اليدوية.
- استقلال مصر المالى عن إنجلترا، مع مقابلة الصادرات

التجارية بواردات بدلا من سداد القيمة نقدا لأن ذلك هو السبب الحقيقى للتضخم النقدى.

- نشر الجمعيات التعاونية لمكافحة الغلاء.

- حرية الصحافة.

- ضرورة عرض الاتفاق الذى تم بين الحكومة المصرية والحكومة الأمريكية بشأن إعفاء قواتها أثناء الحرب الثانية على البرلمان.

- تقليل مدة خبرة المرشحين لتولى وظائف القضاء من حملة الدكتوراه ودبلوم معهد العلوم الجنائية.

- اشتغال القضاة بالسياسة وكانت الحكومة قد قدمت اقتراحا بمنعهم.

- عدم تعيين خبير اقتصادى بريطانى فى حكومة النحاس فى مايو سنة ١٩٤٣.

- توحيد الصفوف.

- مراقبة النقد الأجنبى.

- إنشاء بنك للتعاون.

- تحقيق أهداف البلاد القومية وفى مقدمتها الجلاء ووحدة وادى النيل.

- رفض المرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ بجواز اختيار شيخ الأزهر من غير أعضاء هيئة كبار العلماء ومن يعين شيخا للأزهر من غير هذه الهيئة يعتبر عضوا فيها بحكم القانون.

- عدم حبس الصحفيين.

- منع تملك الأجانب للأراضى الزراعية والعقارات المبنية أو المعدة للبناء فى الديار المصرية. وفعلا صدر القانون رقم ٣٧ بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٩٥١ "يمنع غير المصريين من تملك الأراضى الزراعية فى المملكة المصرية".

- عدم الإقالة الضمنية للوزير.

وإبان عضويته بلجنة العمال والشئون الاجتماعية بالمجلس واختياره مقررا لها صدرت القوانين الهامة التالية؛ قانون نقابات العمال رقم ٨٥ لسنة ١٩٢٤، وقانون عقد العمل الفردى رقم ٤١ لسنة ١٩٤٤.

وفى الحقيقة لقد أثرى عبد الرحمن الرافعى الحياة النيابية بفيض هائل من الأفكار البناءة، واستطاع فى نضاله داخل البرلمان أن يكون مثلا عظيما، يذكر فيحمد دائما .. هى سمة الشخصية الوطنية الأصيلة.

المراجع

١- الدكتور عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية فى مصر ج٥ ط١ ص٥٣.

٢- عبد الرحمن الرافعى: مذكراتى ط١ ص٨.

٣- عبد الرحمن الرافعى: مصطفى كامل ط٤ ص١٩٣.

٤- الدكتور محمد حسين هيكل: مذكرات فى السياسة المصرية ج١ ط١٩٧٧ ص٥٥.

٥- عبد الرحمن الرافعى: مذكراتى ط١ ص١٢.

٦- عبد الرحمن الرافعى: مصطفى كامل ط٤. ص ص٢٧١، ٢٧٢.

٧- المرجع السابق: ص٢٤٣.

٨- عبد الرحمن الرافعى: محمد فريد ط٣ ص٤٩٧.

٩- عبد الرحمن الرافعى: مذكراتى ط١ ص٢٧.

١٠- صبرى أبو المجد: أمين الرافعى ط١ ص٦٦، ط٢ ص ١٤٤.

١١- الدكتور محمد حسين هيكل: مذكرات فى السياسة المصرية ج١ ط١٩٧٧ ص٦٣.

١٢- الدكتور عبد العظيم رمضان: أوراق عباس حلمى الثانى الخاصة. صباح الخير العدد ١٣٠٦، ١٥ يناير سنة ١٩٨١.

١٣- أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية ج١ ط١ ص١٣٤.

١٤- الدكتور محمد حسين هيكل: مذكرات فى السياسة المصرية ج١ ط١٩٧٧ ص٦٧.

١٥- أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية ج١ ط١ ص١٣٧.
١٦- عبد الرحمن الرافعى: ثورة سنة ١٩١٩ ج١ ط٢ ص٦٠. ٦١.
١٧- المرجع السابق: ص٢٤٠.
١٨- أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية (تمهيد) ج١ ط١ ص٣١٠.
١٩- بيرم التونسى: المجموعة الكاملة لشاعر الشعب ط١ ص١٩٥.
٢٠- الأخبار عدد ٢٠ أغسطس ١٩٧٤.
٢١- عبد الرحمن الرافعى: مجموعة رسائل وخطب ومقالات ج١ ط١ ص١٠٩.
٢٢- عبد الرحمن الرافعى: فى أعقاب الثورة المصرية ج٣ ط١ ص١٥٢.
٢٣- المرجع السابق: ص٢٧٢.
٢٤- مصطفى أمين: الكتاب الممنوع أسرار ثورة ١٩١٩ ج١ ط١ ص٧.
٢٥- مصطفى أمين: من واحد لعشرة ط١ ص٢٠٣.
٢٦- مصطفى أمين: الكتاب الممنوع أسرار ثورة ١٩١٩ ج٢ ط١ ص٢١٦، ٢١٨.
٢٧- عبد الرحمن الرافعى: نقابات التعاون الزراعية ط١ ص١٣٦.
٢٨- عبد الرخمن الرافعى: الجمعيات الوطنية ط١ ص٢٤٠، ٢٤٣.

٢٩- عبد الرحمن الرافعي: مجموعة رسائل وخطب ومقالات ج١ ط١ ص١١، ٩١.
٣٠- فتحي رضوان: مشهورون منسيون ط١ ص٨٢.
٣١- عبد الرحمن الرافعي: مجموعة رسائل وخطب ومقالات ج١ ط١ ص١١٠.
٣٢- مصطفى أمين: الكتاب الممنوع أسرار ثورة ١٩١٩ ج٢ ط١ ص٢١٩.
٣٣- عبد الرحمن الرافعي: ثورة سنة ١٩١٩ ج١ ط٢ ص٢٣٥.
٣٤- الدكتور حسين مؤنس: دراسات في ثورة ١٩١٩ ط١ ص١٥٥.
٣٥- عبد الرحمن الرافعي: في أعقاب الثورة المصرية ج١ ط١ ص١١٢.
٣٦- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ط١ ص٤٥.
٣٧- حديث خاص.
٣٨- حديث خاص.
٣٩- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ط١ ص٤٦.
٤٠- عبد الرحمن الرافعي: في أعقاب الثورة المصرية ج١ ط١ ص١٥٠.
٤١- عبد الرحمن الرافعي: أربعة عشر عاما في البرلمان ط١ ص١٠٧.

تعاونياً

كانت حدة التنافس الدولى على امتلاك المستعمرات قد بلغت الذروة فى القرن التاسع عشر، واستطاعت بريطانيا أن تحتل مصر، وفرضت سيطرتها على مقدرات البلاد حتى دانت لها بالولاء بعد أن صدم الشعب بنهاية الثورة العرابية. وقامت الأبواق بدورها تثبط من عزيمة الشعب ومقاومته حتى بات أمر وجود الاحتلال كأنه لا يعنيه، وبدت مصر بقرة حلوباً لكل أجنبى وطئت قدمه أرضها.

وصارت النتيجة الحتمية لكل هذه التراكمات أن انهارت الصناعات المصرية أمام المعروضات الاستهلاكية الأجنبية التى تطلع إليها المصريون، وأصبحت الأرض الزراعية مزرعة لإمداد مصانع لانكشير بالقطن.

وكما كان الفلاح المصرى غير سعيد الحظ فى ظل حكم محمد على الذى قام اقتصاده على الاحتكار،[1] استمر الحال على ما هو عليه أيام خلفائه، حتى إن المبعوثين المصريين الذين ذهبوا للدراسة بالخارج لم يهتموا عند عودتهم

بتطوير حال الفلاح المصرى، وهكذا بقى الوضع إلى أن جاء القهر الإنجليزى وتسلط أكثر الفساد الأوروبى فدفع الفلاح المصرى إلى القاع السحيق.

ولما كان مصطفى كامل الذى شغف بالدفاع عن وطنه المغتصب، وشغلته الأحداث السياسية طوال عمره القصير،[٢] فلم يستطع أن يعطى الناحية الاقتصادية مع علمه بخطورتها نفس الاهتمام. فقد جاء خليفته محمد فريد وتمكن من أن يوازن بين الجانبين، فاهتم رجال الحزب الوطنى بالكتابة فى الشئون الاقتصادية للبلاد والعمل على وضع الحلول لعلاجها .. بل والمشاركة فى النشاط الاقتصادى أيضاً وتفجير الدعوة التعاونية فى أنحاء مصر لإنقاذها من المرابى الأجنبى الذى كان يشكل ظاهرة بشعة وخطراً داهماً.

وعندما اجتاحت البلاد الأزمة الاقتصادية سنة ١٩٠٧ التى طحنت فى فلكها الفلاح المصرى، اندفع الوطنيون سعياً من واقع أهدافهم السياسية للمشاركة فى رفع المعاناة عن الفلاحين والفقراء، وقد تبلورت هذه المشاركة الفعالة فى العمل على نشر التعاون من أقصى البلاد إلى أدناها، وتولى الدعوة عمر لطفى مؤسس التعاون فى مصر ورئيس نادى الطلبة فى ذلك الحين، فسافر إلى إيطاليا لدراسة نظم التعاون بها حيث وجدها أقرب إلى التطبيق فى مصر وأفضل من نظام التعاون الألمانى. وعقب عودته سنة ١٩٠٨ ابتدأ فى نشر دعوته وإلقاء المحاضرات فى المدن والنوادى التى

ارتادها.[٣] وقد استجابت الجمعية الزراعية الخديوية بالقاهرة إلى دعوته، فدرست اقتراحاته وتقدمت للحكومة سنة ١٩٠٩ بمشروع قانون للتعاون واللائحة التنفيذية له ولكن الحكومة تجاهلتهما. ولم يسلم الداعية المناضل عمر لطفى من مضايقات الحكومة لمحاربته سوء حال بنوك التسليف الحكومية، فلم يملك غورست المندوب السامى البريطانى فى تقريره السنوى لحكومته عن مصر لعام ١٩٠٩ إلا الاعتراف فعلا بفشل تجارب بنك التسليف.[٤]

وعلى الرغم من موقف الحكومة المعادى أو المتجاهل من الدعوة التعاونية الشعبية، فقد ساهم محمد فريد زعيم الحزب الوطنى ورجال حزبه ومن بينهم عبد الرحمن الرافعى بجهودهم فى النشاط التعاونى منذ سنة ١٩٠٨ وعملوا على انتشار الجمعيات الزراعية بالقرى وشركات التعاون المنزلية بالمدن.[٥]

وللرافعى مبادرة حميدة فى هذا المجال، فعندما ألف كتابه "حقوق الشعب" سنة ١٩١٢ الذى يشتمل على محاضرات يلقيها مجموعة من الطلاب أثناء العطلة الصيفية على أبناء قريتهم فى المساء لتعليمهم ما لهم وما عليهم تجاه الوطن. نراه فى الاجتماع الثامن يشير إلى رسالة وردت من أحد أعضاء الفريق الذى سافر لفرنسا للسياحة والدراسة، ذكر فيها أنه يقيم بإحدى القرى الفرنسية "ليدرس أخلاق الفلاح الفرنسى وعاداته فى معيشته وفى بيته وفى غيطه وهو يدرس على الأخص وسائل الاقتصاد

الزراعى لأنه عازم على أن ينشئ فى بلده نقابة زراعية ويلقى على أعضائها دروساً فى الاقتصاد والتعاون". [٦]

وقد أنشأ أحمد لطفى خليفة عمر لطفى سنة ١٩١٢ نقابة عامة للتعاون المنزلى والزراعى للإشراف على هذه النقابات والشركات المنشأة والعمل على نشرها فى كافة أنحاء البلاد، حتى ارتفع عددها سنة ١٩١٤ نتيجة لجهود الوطنيين فبلغت ٢٣ نقابة زراعية، و١٧ شركة تعاون. [٧]

وكان محمد فريد بالنسبة للرافعى قمة الوطنية بعد مصطفى كامل، فاتجه إلى الأخذ بفكره واتباع هديه ومداومة الاتصال به مضحياً بسببه بكل ما يمكن أن يتعرض له من اضطهاد وسجن. ولا تنقطع الصلات بين الرافعى وأستاذه محمد فريد بعد مبارحة الأخير مصر سنة ١٩١٢، فيراسله بشكل منتظم وتحمل رسائله إلى زعيمه، فى هذه الفترة صورة قاتمة للأحداث السياسية، واضطهاد السلطات البريطانية للوطنيين .. مما أدى إلى عزوفهم عن المشاركة فى الأنشطة السياسية وابتعادهم عن الأضواء وهو من بينهم. بعد أن رأوا التنكيل الذى حدا بزعيمهم - أى فريد - إلى النفى الاختيارى. ولكن محمد فريد فى رده على عبدالرحمن الرافعى .. يدعوه إلى عدم اليأس ويخطط له مساراً وطنياً آخر، بجانب السياسة ولا يقل نفعاً عنها بل يساويها وهو العمل فى المجال الاقتصادى، إيماناً بأن استقلال مصر الاقتصادى مقدمة لاستقلالها السياسى. فى هذه الرسالة التى بعث بها فريد فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٣

من الآستانة إلى تلميذه يقول فيها ".. فإذا كان الخوف من رجال السلطة حدا بالكثيرين إلى عدم إظهار إحساسهم الوطنى، فما يمنعهم من صرف همتهم إلى المشروعات الاقتصادية، كالنقابات وشركات التعاون المنزلى والمالى. وقد برهن ما أسس منها على نجاح عظيم، وعلى استعداد الأمة للإقبال على مثل هذه المشروعات. هذا ميدان واسع للجميع، فادخلوا فيه بهمة ونشاط، فاستقلال مصر الاقتصادى مقدمة لاستقلالها السياسى".[8] وكان هذا بمثابة نقطة الانطلاق للرافعى حين يأخذ بنصيحة رائده، وهو يضع النقاط الأساسية لموضوع التعاون. ويتحدث عبدالرحمن الرافعى عن هذا الأمر فيقول: "وقد عملت بنصيحته، وضاعفت جهودى فى خدمة الحركة التعاونية والحركة الاقتصادية، وصرفت سنة ١٩١٣ فى وضع كتابى عن (التعاون)، والمساهمة فى تأليف بعض النقابات الزراعية، ودراسة بعض الشئون الاقتصادية".[9]

وفى سنة ١٩١٤ يصدر الرافعى كتابه الثانى عن "نقابات التعاون الزراعية" فى فترة افتقدت فيها المكتبة العربية، الأبحاث والمراجع فى هذا المجال. ويهنئه محمد فريد على ذلك فى رسالة بعث بها من جنيف فى ٢٣ يولية سنة ١٩١٤ بقوله: ".. فقد وصلنى كتابكم فى تاريخ النقابات ومستقبلها فى مصر، وقرأته من أوله لآخره، فألفيته أحسن كتاب أخرج للأمة المصرية فى هذا العام، فشكرا على هذه الخدمة الوطنية التى لا تقدر، وفقكم الله للاستمرار فى هذا

الطريق المفيد. وأفاد البلاد بارائكم. والأمل الان أن كل النقابات التى تؤسس تنشأ حرة بحيث يسقط قانون الحكومة من نفسه أو تضطر هى لتعديله".[١٠]

وفى يولية سنة ١٩١٩ يؤسس عبد الرحمن الرافعى مع مجموعة من أصدقائه بالمنصورة، جمعية لنشر وتعميم جمعيات التعاون الزراعية فى قرى الدقهلية، مساعدة للفلاح المطحون. ويستمر الرافعى حاملاً لواء التعاون فى المنصورة والعمل بجد على نشر جمعياته المختلفة وذلك بمساعدة الشباب الوطنى المهتم بالتعاون، مثل الدكتور محمد حسين هيكل، وإبراهيم الطاهرى، وحسين هلال، وعبد الوهاب البرعى، والدكتور إبراهيم الوكيل، ومحمود نصير، وعبد الفتاح نور، ومحمود مرسى. ولذلك ما أن حلت سنة ١٩٢٠ إلا وأسسوا - بعد الجمعيات التعاونية الزراعية - جمعيات التموين الخيرية فى المنصورة وغيرها من المدن فى فبراير. يكتب الرافعى مفصلاً هذا الجهد بقوله ".. ولكن الحالة التى واجهناها سنة ١٩٢٠ اضطرتنا أن نعفى جمهور المستهلكين من الفقراء ومتوسطى الحال من عضوية جمعيات التعاون، وعلى هذا الأساس أنشأنا جمعية التموين الخيرية بالمنصورة، والغرض منها مشترى المواد الغذائية والحاجات الضرورية وبيعها لأعضاء الجمعية ولطبقة صغار المستخدمين والعمال والفقراء بدون ربح، بقصد تخفيف وطأة الغلاء عنهم ومساعدتهم على الحصول على حاجتهم بأرخص الأسعار الممكنة. وجعلنا رأس مال الجمعية مقسماً

إلـى حصـص قيمـة الحصـة الواحـدة خمســون جنيـهاً، تــوزع علـى الموسـرين مـن أهـل المدينـة. وجعلنـا مهمـة مجلـس إدارة الشـركة شـراء الأصنـاف بالجملـة وقـت نـزول أسـعارها، وعليـه أن يسـعى لـدى الخـيرين مـن أصحـاب المـزارع والمتـاجر مـن أعضـاء الجمعيـة أو مـن غـيرهم فـى مديريـة الدقهليـة أو غيرهـا للحصــول علــى تعــهدات منــهم بتوريــد بعــض الأصنـــاف الضروريـة للتمويـن بأسـعار تقـل عـن الأسـعار التـى يبيعـون بـها فـى الأسـواق، مسـاعدة منـهم لصغـار المسـتهلكين الذيـن أنشـئت الجمعيـة لدفـع الضـرر عنـهم. وعلـى مجلـس الإدارة أيضـاً أن يجتـهد فـى الحصـول مـن جـهات الحكومـة علـى توريـد بعـض الأصنـاف للجمعيـــة بأســـعار مخفضـــة .. وقـــد أدت هـــذه الجمعيــات خدمــات جليلــة لصغــار المســتهلكين، وانخفضـت بفضلـها أسـعار الحاجـات والأصنـاف الضروريـة، فكـانت مـن خـير الوسـائل لمكافحـة الغـلاء".[11]

وفـى هـذه الأثنـاء ينشـر عبـد الرحمـن الرافعـى المحـامى، عـدة مقـالات فـى جريـدة "الأخبـار" - التـى أسسـها أخـوه أميـن الرافعـى - بتـاريخ ٣ و١١ و١٨ مـارس سـنة ١٩٢٠ عـن "تطبيـق مبـادئ التعـاون لمكافحـة الغـلاء وجمعيـات التمويـن الخيريـة"، وقـد سـاعده صديقـه محمـد أميـن يوسـف - والـد علـى ومصطفـى أميـن - فـى عقـد اجتمـاع بـدار الأوبـرا بالقـاهرة يـوم ٥ مـارس سـنة ١٩٢٠ للدعـوة إلـى تشـجيع إقامـة حمعيـات التمويـن الخيريـة.[12]

وكان انتخاب عبد الرحمن الرافعي عضوا في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ نائبا عن دائرة مركز المنصورة فرصة لمطالبة الحكومة من موقع المسئولية البرلمانية، في المساهمة في دفع عجلة التعاون إلى الأمام بعد أن أصدرت قانونه سنة ١٩٢٣ وأنشأت في نفس السنة لأول مرة قسما للتعاون بوزارة الزراعة. فرأيناه يقترح بجلسة ٢٤ مارس سنة ١٩٢٤ تأليف لجنة جديدة بالإضافة إلى اللجان القائمة تسمى "لجنة التعاون والشئون الاجتماعية" تتولى بحث الاقتراحات والمشروعات الخاصة بالتعاون الزراعي والمنزلي والمالي،(١٣) وتوافق الأغلبية الوفدية على اقتراحه بجلسة ٣٠ مارس سنة ١٩٢٤، وتشكل اللجنة من خمسة عشر عضوا ويصبح هو من بينهم سكرتيرا لها.(١٤) وتبدأ باكورة عملها في نظر قانون التعاون رقم ٢٧ لسنة ١٩٢٣، وتقدم اللجنة مقترحاتها لإضافة تعديلات عديدة عليه ليصبح أكثر إيجابية وجدية في مجال التطبيق التعاوني في البلاد، ولما كان مجلس النواب قد حل في ديسمبر سنة ١٩٢٤ عقب استقالة سعد زغلول، فلم يتيسر النظر في التعديلات. وتمر سنوات ويقر البرلمان في سنة ١٩٢٧ قانون التعاون الجديد بعد الأخذ بغالبية تعديلات "لجنة التعاون والشئون الاجتماعية" بمجلس النواب التي اقترحتها سنة ١٩٢٤.(١٥)

وفي أكتوبر سنة ١٩٣٩ يعود الرافعي للحياة النيابية مرة أخرى عضوا بمجلس الشيوخ. ولما كان يعد من أقطاب التعاون في مصر، فقد أختير في سبتمبر ١٩٣٩ عضوا

بلجنة التعاون التى أنشأتها وزارة الشئون الاجتماعية، هدفها العمل على النهوض بالحركة التعاونية. وتقدم اللجنة نتاج مقترحاتها للوزارة للعمل على إنشاء بنك تعاونى مستقل أو تحويل بنك التسليف الزراعى القائم إلى بنك تعاوني، وتتولى مصلحة التعاون الإشراف على الجمعيات القائمة التى بلغت أربعة آلاف جمعية بالإضافة إلى إنشاء تفتيش للتعاون فى كل مديرية على أن يكون هناك مراجع لكل ثلاثين جمعية. وتدعيماً لزيادة العمالة بالتفتيش ينقل إليه بعض العاملين من الوزارات الأخرى من مختلف المؤهلات إما لمراجعة الحسابات أو لنشر الإرشاد الزراعى ومقاومة دودة القطن.[١٦]

ويشير الرافعى إلى ما انتهت إليه هذه اللجنة بقوله: "قدمنا تقرير اللجنة بهذه المقترحات إلى الوزارة فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ وقد نوهت إلى هذا التقرير ومقترحاته فى كلمتى بمجلس الشيوخ بجلسة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٩ وأهبت بالحكومة أن تعمل بمحتوياته، وأظن أن هذا التقرير صار مع الزمن موضع التنفيذ تدريجياً، مما كان له أثره فى اطراد النهضة التعاونية".[١٧]

ويواصل مؤرخ مصر الحديثة كلما سنحت له الفرصة فى مجلس الشيوخ الحديث عن التعاون، فنراه فى جلسة ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٢ يطالب الحكومة بالعناية بالجمعيات التعاونية والإشراف عليها، على أن تمدها وزارة التموين بكافة احتياجاتها لأن فى ذلك مساعدة جدية على نمو أعمالها.[١٨]

وتقيم مصلحة التعاون فى ٥ يونية سنة ١٩٤٣ أول مؤتمر عام للتعاون فى المنصورة عاصمة الدقهلية تكريماً لها باعتبارها من أوائل العواصم التى ساهمت مبكراً منذ سنة ١٩٠٨ فى إنشاء النقابات والجمعيات التعاونية، ورأس المؤتمر فؤاد سراج الدين وزير الشئون الاجتماعية، ودعى عبد الرحمن الرافعى للمشاركة فيه. ويسجل الرافعى هذا الحدث في مذكراته قائلاً: "أقيم المؤتمر فى سينما "ركس" بالمنصورة بالسكة الجديدة، وكان المكان غاصاً بالمدعوين من كبار الأعيان والموظفين والمثقفين من مختلف الطوائف، وكان من خطبائه مدير الدقهلية وقتئذ محمود حسيب بك، وقد أشار فى خطبته إلى من خدموا التعاون فى مصر، وذكرنى منهم، فما أن سمع الجمهور اسمي حتى ضج المكان بالتصفيق الحاد المتكرر حتى اضطررت أن أقف وأشكرهم مبتسماً، فزاد التصفيق حدة وتكراراً، فاغتبطت فى خاصة نفسى لهذه الظاهرة المفاجئة، وعلمت أن منزلتى فى النفوس أكبر مما ظننت وأنه لا يجوز للمجاهد أن ييئس من أن هذه الأمة تقدر يوماً عمله وجهاده". (١٩)

ويختتم الرافعى مشاركته الفعالة وهو فى سن الخامسة والخمسين فى مجال التعاون، عندما حولت الحكومة فى سنة ١٩٤٤ مشروع قانون الجمعيات التعاونية من مجلس النواب لمجلس الشيوخ لدراسته، فيحال إلى لجنة الشئون الاجتماعية والعمل. وتختار اللجنة عبد الرحمن الرافعى مقرراً لها مع تكليفه بوضع تقرير واف عنه، وبناء على التقرير المقدم تتم الموافقة عليه

وتصدر الحكومة القانون رقم ٥٨ فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٤. ويشير مؤرخنا إلى ذلك بقوله: "ساعد هذا القانون على نشاط الحركة التعاونية، وجاءت الحرب العالمية الثانية حافزاً جديداً على اطراد هذا النشاط، وخطا خلال سنى الحرب خطوات واسعة موفقة، وتضاعف عدد منشآته ومنظماته، وبخاصة جمعيات التعاون المنزلى، إذ تبين من التجارب أنها وسيلة فعالة للحد من الغلاء الفاحش وحماية الجمهور من تلاعب التجار واستغلالهم حالة الحرب لرفع أسعار الحاجات. وساعد على انتشار هذه الجمعيات تقدم الوعى القومى والشعور بالواجبات الاجتماعية، وإدراك الطبقة المثقفة فى المدن والقرى روح التعاون ومراميه، واضطلاع المثقفين بإدارة الجمعيات. فنجحت منشآت عديدة صار بعضها مضرب المثل فى الانتظام وحسن الإدارة، نعم إن هناك جمعيات تألفت على عجل أو قام عليها أشخاص لا يؤمنون بمبادئ التعاون والاستقامة والنزاهة، فلم تلبث أن سرى إليها الخلل والبوار، ولكن الروح التعاونية سائرة فى الجملة فى سبيل التقدم والنمو. يدل على ذلك أن عدد الجمعيات التعاونية القائمة فى القطر على اختلاف أنواعها بلغ نيفاً و٢٠٠ جمعية، وعدد أعضائها نيفا و٨٠٠,٠٠٠ عضو، وبلغت قيمة معاملاته فى السنة نحو ثمانية ملايين جنيه. ومن مقارنة هذا الإحصاء بالإحصاءات القديمة يتضح أن الحركة التعاونية سنة ١٩٥١ - قد زادت إلى ما يقرب من عشرة أمثال ما كانت عليه قبل خمسة أعوام". [٢٠]

المراجع

١- الدكتور أمين مصطفى عفيفى: تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ط٣ ص٥٣.

٢- الدكتور عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية فى مصر ج٥ ط١ ص٧١.

٣- عبد الرحمن الرافعى: نقابات التعاون الزراعية ط١ ص١٨٧.

٤- المرجع السابق: ص١٩١.

٥- عبد الرحمن الرافعى: مذكراتى ط١ ص٢٤.

٦- عبد الرحمن الرافعى: حقوق الشعب ط١ ص٩٧.

٧- عبد الرحمن الرافعى: نقابات التعاون ط١ ص٢٣٣.

٨- عبد الرحمن الرافعى: محمد فريد ط٣ ص٥٠٦.

٩- المرجع السابق: ص٥٠٧.

١٠- عبد الرحمن الرافعى: مذكراتى ط١ ص٢٦.

١١- المرجع السابق: ص٤٠، ٤١.

١٢- المرجع السابق: ص٤٠.

١٣- عبد الرحمن الرافعى: أعمالى فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ ط١ ص٩٦، ٩٨.

١٤- عبد الرحمن الرافعى: أربعة عشر عاماً فى البرلمان ط١ ص٧٤.

١٥- عبد الرحمن الرافعى: مذكراتى ط١ ص١٠٥.

١٦- عبد الرحمن الرافعى: أربعة عشر عاماً فى البرلمان ط١ ص١١٨.

١٧- عبـد الرحمـن الرافعـى: مذكراتـى ط١ ص١٠٦.
١٨- عبـد الرحمـن الرافعـى: أربعـة عشـر عامـاً فـى البرلمـان ط١ ص٢٨١.
١٩- عبـد الرحمـن الرافعـى: مذكراتـى ط١ ص١٠٨.
٢٠- عبـد الرحمـن الرافعـى: فـى أعقـاب الثـورة المصريـة ج٢ ط١ ص٣٣٩.

زعيما للمعارضة

لعبت المعارضة دورا بارزا لا ينكر فى الحياة المصرية قبل يولية سنة ١٩٥٢، فلم ترهب العناصر الوطنية بطش سلطات الاحتلال الإنجليزى أو أذنابه، أو تسلط الحاكم المستبد ومراكز قواه. ولقد بدأ هذا الدور فى الظهور منذ وقت بعيد فى التاريخ الحديث، خاصة فى أيام الخديو إسماعيل الذى ابتليت مصر فى عهده بالديون. مما جعله يسمح بسيطرة الدول الأوروبية ودخول الأجانب أعضاء فى الوزارة المصرية. وتحركت العناصر الوطنية لمجابهة التدخل الأجنبى وساندتها الصحافة. مما اضطر الخديو إلى الاستجابة إلى هذا التيار القوى وأسند الوزارة إلى شريف باشا الذى جعلها مصرية لحما ودما. يقول الرافعى: ".. فألف شريف باشا الوزارة على هذا الأساس، وكانت أول وزارة مسئولة أنجبتها الحركة الوطنية فى تاريخ مصر الحديث، وكان من أعظم أعمالها وأجلها شأنا أنها وضعت دستورا على أحدث المبادئ العصرية. وقدمته إلى مجلس شورى النواب لينال إقراره، وخولت ذلك المجلس سلطة جمعية تأسيسية تملك حق إقرار الدستور وتعديله".[1]

وعندما وقع الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢، بقيت بعض القوى الوطنية تقاوم تسلطه حتى فى داخل مجلس شورى القوانين - الهزيل - وجدت المعارضة عندما طالب أعضاؤه سنة ١٨٩٤ من الحكومة بمنع تملك الأجانب للأراضى الزراعية بعد استدانة أصحابها وعدم قدرتهم على السداد.

ومنذ سنة ١٩٠٨ بدأ فى الأفق نجم شاب وطنى ثائر، هو عبد الرحمن الرافعى، فطالعنا بمجموعة مقالات وطنية فى صحف الحزب الوطنى، فى جريدة "الأخبار" مقالة حماسية "لماذا لا نحترم إرادة الأمة".(٢)

وما أن يصدر الملك فؤاد قانوناً بفتح باب الانتخاب بعد أن أعلن أول دستور للبلاد فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ حتى يفكر عبد الرحمن الرافعى فى أن يطور جهاده الوطنى بمحاولة دخول البرلمان، ويقرر أن يخوض المعركة الانتخابية مع مجموعة من زملائه أعضاء الحزب، وتختاره جماهير مركز المنصورة نائباً عنها بمجلس النواب.

وقبل أن نتحدث عن مواقف الرافعى داخل أول برلمان مصرى، نشير إلى تصوره للحياة النيابية ومسئولية النائب. وذلك من خلال كتابه "حقوق الشعب" الذى أصدره لتوعية الشعب بحقوقه وواجباته السياسية، كان الرافعى يرى أن وجود الحياة الديمقراطية فى مصر كفيل بإنقاذها من الاحتلال الإنجليزى وتحقيق أهداف البلاد الوطنية. "..

فأحسن وأسهل طريقة لوضع القوانين بمعرفة الأمة هى أن يختار أهالى كل جهة من جهات البلاد رجلاً منهم يحبونه ويحترمونه ويثقون بعلمه وفضله فيكون هذا الرجل نائباً عنهم ومعبراً عن رغباتهم وإرادتهم فيجتمع هذا النائب ونواب الجهات الأخرى ويتكون منهم مثلاً مائتان أو ثلاثمائة نائب. وتكون وظيفة هؤلاء النواب أن يجتمعوا جميعاً ويتباحثوا فى وضع القوانين النافعة للبلاد والسهر على تنفيذها ومراقبة الحكام مراقبة شديدة ومحاسبتهم على كل عمل يأتونه مخالفاً لتلك القوانين. هذا ما يسمونه بمجلس النواب. فمجلس النواب هو مجموع الرجال النائبين عن الأمة أى الذين أنابتهم الأمة للتعبير عن رغباتها وتقرير كل ما تريده. هؤلاء النواب تنحصر وظيفتهم كما قلنا فى التعبير عن رغبة الأهالى وإرادتهم".(٣)

ويقول فى مكان آخر ".. وعلى من يشتغل بالسياسة سواء تحت لواء الأحزاب أو مستقلاً - على أن يكون هذا الاستقلال استقلالاً حقيقياً - أن تكون له مبادئ عامة يعتنقها، ويعمل على تحقيقها، ويصدر عنها فى أعماله وتصرفاته، لا أن يكون هدفه الوحيد أن ينال لنفسه مركزاً ممتازاً فى المجتمع فحسب".(٤)

ولهذا لم يكن غريباً أن يكون منهج الرافعى متسماً بالموضوعية التى ظهرت فى مناقشاته، فهو يزن أعمال الحكومة الوفدية بميزان دقيق، وكأنه يقف على منصة القضاء، فيساندها فيما يراها مصيبة فيه، ويعارضها فيما

يختلف وإياها حوله .. وهو موقف ينبع أصلاً من عدم تعارضه مع مبادئ الحزب الوطنى قبل كل شىء.

وفى البداية يحمل مشعل المعارضة نواب الحزب الوطنى، مع أن عددهم كان أربعة هم عبد اللطيف الصوفانى وعبد الرحمن الرافعى وعبد العزيز الصوفانى والدكتور عبدالحميد سعيد. وقد جعلهم أسلوبهم الجاد غير المهاتر فى المناقشة يكسبون احترام وتقدير بقية أعضاء المجلس وأغلبيته الوفدية، مما دفع نواب حزب الأحرار الدستوريين وبعض النواب المستقلين بل والوفديين أيضاً إلى الانضمام لجبهة المعارضة حتى ارتفع عددهم إلى عشرين نائباً.(٥)

ومع ارتياح الرافعى إلى اهتمام النواب الوفديين بالمعارضة، إلا أنه كان يرى أن موقف حكومتهم يختلف عنهم. ولعل نائبنا كان يطالب بأكثر مما يجب ويطبق النظريات لا الواقع يقول الرافعى: ".. فمع أن مجلس النواب كان فى الجملة واسع الصدر بإزاء المعارضة فالوزارة نفسها لم تكن على هذا الغرار، ويلوح لى أنها كانت تنظر إلى المعارضين بعين الحقد، وبدا ذلك فيما أضمره الوفد لنا من المحاربة فى الانتخابات اللاحقة، وكان واجبا على الوزارة أن ترحب بالمعارضة الدستورية .. وكان يضيق صدرها أيضاً بالصحف المعارضة، فتعقبتها بالاضطهاد والتحقيق والمحاكمة، كانت المظاهرات العدوانية تقوم ضد الصحف المعارضة فلا تبذل الوزارة أى جهد لمنعها، وقد طلب مرة من سعد أن يمنع اعتداء وقع على جريدة "الأخبار" التى

كان يصدرها المرحوم أمين بك الرافعى إذ كان المتظاهرون يقذفونها بالطوب والحجارة، فقال لمحدثه: أتريد منى أن أحمى خصومى؟ .. وأسرفت الوزارة فى التحقيق مع الصحفيين المعارضين وتقديمهم إلى المحاكمة، وقد قضت المحاكم فى معظمها بالبراءة". (٦)

كانت الجلسة الأولى التى اعتلى فيها عبد الرحمن الرافعى منصة الخطابة فى مجلس النواب فى ٢٩ مارس سنة ١٩٢٤، حيث أشاد بخطاب العرش وحكومة سعد ورغب مع زملائه المعارضين الثلاثة إدخال تعديلات على الخطاب بعدم تقيد مصر بتحفظات تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، ولم يقبل المجلس.

وعلقت جريدة "المحروسة" الوفدية فى عددها الصادر بعد يومين بقولها: .. "رأيت فى الرافعى الأدب فى التعبير. وخفة الروح فى الإشارة والإيماء. ولطف الدخول فى الإخلاص للعرض والثقة بوزارة الشعب التى يرأسها الزعيم الجليل سعد زغلول باشا مما استدعى الهتاف وحسن الاستعداد للسماع، ثم التدرج إلى طلب التعديل، ولو كان المجلس مستعدا لسمعت كلمته ولراجت دعوته. ولكن سلطان الرئيس. رئيس السلاطين" ..!

ونشرت جريدة "الأهرام" فى عددها الصادر فى ٣١ مارس سنة ١٩٢٤ "سمعنا فى الجلسة التاسعة من جلسات مجلس النواب أربعة خطباء ينقدون خطاب العرش. أطلقوا

عليهم تسامحا كلمة "خطباء المعارضة" وقبلوا هذا الوصف تسامحا. ولما سئل المجلس هل يوافق على الرد الذى وضعته اللجنة على خطاب العرش أم يوافق على إدخال التعديل على ذلك الرد، وقف الجميع إلا أربعة قالت الغالبية "أربعة فقط" ويقينا أن هؤلاء الأربعة لو لم يكونوا خطباء المعارضة لوقفوا مع الواقفين. - لأن نفسية خطباء المعارضة ليست نفسية معارضة أو مقاومة للوزارة أو نفسية مشادة - بل هى نفسية آمال وأمانى دل سعد باشا المجلس على احترامها كل الاحترام عندما صفق هو ذاته للأستاذ الرافعى بك وعندما وجه كلامه خاصة إلى الصوفانى بك وعندما صافح الصوفانى بك وهو يهم بالخروج من القاعة".(٧)

ويواصل الرافعى نشاطه داخل المجلس فنراه - عندما يرفض المجلس النظر فى اقتراح أحد النواب - البدراوى عاشور نائب نبروه - بنقل مركزى طلخا وشربين من مديرية الغربية إلى الدقهلية بحجة أنه موضوع إدارى، يثير قضية هامة وهى أحقية المجلس بوصفه الممثل لسلطة الأمة فى مطالبة الحكومة باستصدار قوانين بناء على رغبات النواب، إلا أن المجلس ينتهى بأغلبية الآراء إلى أن تكون الرغبات التى يقررها المجلس غير ملزمة للحكومة مع عدم المساس بمسئولية الوزارة!(٨)

وتقف جريدة "الأهرام" بجانب عبد الرحمن الرافعى مؤيدة موقفه ومفهومه ومنددة بقرار المجلس ".. فإذا كانت الهيئة النيابية القائمة فينا الآن قررت مبدأ نحن نراه خطأ

بعد ما رأته غالبيتها صوابا، فإن فى الهيئة النيابية حكمة مستكنة تصلح دائما الخطأ ولا تصر عليه، فلنولها ثقتنا ولتول هى الصحافة انتباهها يتم التعاون والتآزر بين الأفكار والعقول وتمحص الحقائق فلا يبقى إلا الصحيح، والهداية من الله". (٩)

وتحقيقا لمبادئ الحزب الوطنى يولى الرافعى اهتمامه لوحدة مصر والسودان والأحداث الدائرة فى السودان، فنراه بتاريخ ٧ أبريل ١٩٢٤ يقدم ستة أسئلة لوزير الأشغال العمومية مرقص حنا باشا. عن حقيقة مشروعات الرى فى السودان المدرجة بكتاب (ضبط النيل) التى تصممها وزارة الأشغال المصرية بمشاركة المستشارين الإنجليز، والتى يقيمها الإنجليز فى الجزيرة وسد النيل الأبيض فى السودان وأضرارها على الرى فى بلادنا حيث تتحكم فى كمية المياه لرى مصر ومناسيبها. فيقوم الوزير بالرد على الأسئلة بجلسة ١٣ أبريل سنة ١٩٢٤ ولا يقتنع الرافعى الذى يكرر مطالبته بتاريخ ٢١ أبريل سنة ١٩٢٤ بتأليف لجنة فنية لدراسة الموضوع، وعندما يناقش اقتراحه فى جلسة ٢٤ مايو سنة ١٩٢٤ يكون سعد زغلول رئيس الوزارة ضمن مناقشيه. وتعد هذه الجلسة واحدة من أعنف الجلسات التى شاهدتها قاعة مجلس النواب، فقد ارتفعت درجة غليانها حدة مناقشتها، خاصة عندما وافق الوزير على تأليف اللجنة. ولا يكتفى الرافعى بذلك بل يطالب الوزارة بالتدخل بحزم لإيقاف المشاريع حتى تعرض اللجنة الفنية تقريرها،

وأن يكون اهتمام الوزارة المصرية بهذه المشروعات لا يقل عن اهتمام الحكومة الإنجليزية بها. فيرد مرقص حنا قائلا: .. بأنه لا حق للرافعي في هذا الكلام فلا علاقة له بسؤاله. ويتدخل رئيس المجلس أحمد مظلوم باشا ويعد إشارة الرافعي خروجا عن الموضوع. ويشارك سعد زغلول رئيس الوزارة في المناقشة في هذا الحوار الساخن مع عبدالرحمن الرافعي. ويذكر أحمد شفيق الحوار الآتي:

رئيس الوزارة: الحكومة تقول أن المشروعات مضرة إذا اختلف المالك، فهل تدلنا على الطريقة التي بها يكون المالك واحدا؟ إن ما نريده هو هذه الطريقة ولسنا بمقصرين في شيء بل نريد حيازة السودان دون الإنجليز فما هي الطريقة العملية التي توصلنا إلى ذلك؟

عبد الرحمن الرافعي: الوزارة يمكنها وقف هذه الأعمال.

رئيس الوزراء: المسألة ترجع إلى أمر واحد وهو من الذي يجب أن يضع يده على السودان أنحن أم الإنجليز؟ فما هي الطريقة التي بها نحوز السودان دون الإنجليز؟ أما سياسة وخز الإبر فلا أعرفها، ونحن قوم عمليون، نحن نقول ونكرر ونؤكد ونقيم الحجج على أننا مالكون للسودان. وهم لنا معارضون. إن كنت تعرف هذه الطريقة ولا تريد أن تفضي بها علنا فتعال وأخبرني بها سرا. نحن لا نفرط في حقوق الأمة ولا نتهاون في أمر السودان. إنما قوة وزارة الشعب مستمدة من قوة الأمة. فما هي الطريقة التي بها نحوز السودان بدون منازع وكلنا نسعى لهذه الغاية. كلنا

يقول بأن السودان لنا وهذا حقنا ففكر وتعال اتفق معنا على أحسن طريقة. أما الكلام فكل واحد يمكنه أن يتكلم.

عبد الرحمن الرافعى: أنا عملى أيضا وأطلب من الوزارة وقف المشروعات.

رئيس الوزراء: لقد طلبت الوزارة السابقة وقف الأعمال. فكان الرد وقف الأعمال النافعة لمصر على النيل الأبيض. واستمر العمل فى مشروعات النيل الأزرق. وسمحت لهم الحكومة بالاستمرار فى العمل على حسابهم وتحت مسئوليتهم.

عبد الرحمن الرافعى: هناك فرق بين حكومة الشعب والحكومات السابقة.

رئيس الوزراء: وإذا قلنا لهم أوقفوا العمل فقالوا لنا لا. كما سبق! .. دعونا ندير الأمور كما تقضى به مصلحة البلاد.

عبد الرحمن الرافعى: ولكن المهندسين تابعون لوزارة الأشغال.

رئيس الوزراء: تعال نولك الوظيفة التى تعجبك ونفوض لك أمر وقف هذه المشروعات.

عبد الرحمن الرافعى بك: أنا لا أريد وظيفة وأطلب من الوزارة أن تقوم بعملها لأن معالى الوزير يعلن أن مصلحة الرى فى السودان تابعة لوزارة الأشغال وعمالها تابعون لها.

رئيس الوزراء: أتريد سحبهم أتشير بذلك؟

عبد الرحمن الرافعى: هذه اللهجة لم نكن لننتظرها من

دولة الرئيس فمنه ينتظر الأمل لا اليأس.

رئيس الوزراء: لا تقف موقف المعجز فقوتي من قوتك، وقل لي ما يمكنني تنفيذه. إنك تسأل فما هو الغرض؟ وهل نتوقف نحن عن عمل ما هو في خير الإمكان إننا نريد السودان. ومحال أن نتركه غنيمة باردة. وإن ما تراه يا بني ليس تقصيرا.

عبد الرحمن الرافعي: واللجنة الفنية، لماذا لا تعين فهل ينتظر حتى تنتهي المشروعات فتعين وتصبح أمام الأمر الواقع؟

رئيس الوزراء: نحن نعرف ونقول بأن المشروعات مضرة. إذا اختلف المالك فما فائدة اللجنة وهي لن تقرر أكثر مما نعرف".[١٠]

ومن أشهر مناقشات الرافعي معارضته في جلسة ٢٤ يونية سنة ١٩٢٤ لتنفيذ قانون تعويضات الموظفين الأجانب، الذين تركوا خدمة الحكومة الصادر في ١٨ يولية سنة ١٩٢٣ - قبل تولي سعد الحكم - حيث يكلف ميزانية الدولة مليونا وثلاثمائة ألف جنيه. ويكون رد سعد زغلول رئيس الوزراء متفقا في الجوهر مع الرافعي ومؤيدا له، ولكن للسياسة منطقها ولصاحب القرار مسئوليته "والنار لا تحرق إلا من يقبض عليها" كما يقول المثل الشعبي. ويشير الزعيم المصري إلى موقفه المعارض من القانون قائلا:

- لا أقول إني أول شخص انتقده ولكني من الذين انتقدوه بكل شدة واستنكروه. وقد بينت عيوبه ولا أزال أستنكره وأعده ضربة على الخزانة ونكبة على أموال الأمة

وأنه سابق لأوانه. بل أقول أيضا إنه مخالف للدستور ولم أقل هذا الآن فقط بل قلت هذا قبل الآن بزمن طويل وقبل خطبة العرش. قلته رسميا وكتبت به للحكومة الإنجليزية فأنا بصفتي منكم وبصفة كوني رئيس الحكومة أعتبر هذا القانون باطلا ومخالفا للدستور ومجحفا بحقوق الخزانة وسابقا لأوانه. أعتبر كل هذا وأستنكره من قلبي وجوارحي ولكن فرقا بين أن يستنكر الإنسان شيئا ويحتج عليه ويعتبره باطلا وبين أن يتوقف عن تنفيذه. مثل ذلك حكم يصدر على نافذ المفعول. قد أستنكره وأحتج عليه ولكن أنفذه رغما عني. مكره أخاك لا بطل فهذا القانون الذي هذه صفاته أعتبره معاهدة واتفاقا مأذونا به من السلطة الشرعية في البلاد وبهذا انعقد الاتفاق بين الطرفين وإني أوافق حضرة الرافعي بك في أن هذا ما كان ينبغي أن يعمل. ولكنه عمل وارتبطنا به فمهما كان في هذا الارتباط من البطلان القانوني فقد انعقد سياسيا ولا يمكن لأحد الطرفين أن يتحلل منه إلا باتفاق مع الطرف الآخر. ولا يمكننا أن ننهي الأمر بيننا وبين الطرف الآخر بمجرد القول ببطلان هذا، بل ينبغي أن نتحادث مع الطرف الآخر ونتفاهم معه حتى نصل إلى الاتفاق على بطلانه والامتناع عن تنفيذه. هناك دولة ارتبطت معنا فإذا تشبثنا بالبطلان وامتنعنا عن التنفيذ وقالت لنا هذه الدولة ليكن ذلك. ولنرجع إلى الحالة التي كنا عليها قبل هذا الارتباط فهل يمكن أن نتحمل عودة الموظفين الأجانب إلى مصالح الحكومة! هل منكم من يقول هذا؟

أصوات: حاشا.

رئيس الوزراء: ما كنت أريد أن أقول ذلك ولكن الضرورة ألجأتنى إليه، نعم إن المبلغ باهظ ولكن العودة إلى الحالة الأولى أصعب. لقد اشترينا بهذا المبلغ الباهظ سعادتنا الداخلية لأن الموظفين الإنجليز كانوا سادة وحكاما، لذلك لما جاءت طريقة أخرى للحكم قالوا لا يمكننا أن نعيش كمحكومين أو مسودين ويجب أن نخرج ونأخذ تعويضا. فهذا منشأ قانون التعويضات. وتقرر الأغلبية اعتماد المبلغ.(١١)

ولاشك أن كثيرا من الاقتراحات التى قدمها عبد الرحمن الرافعى فى مجلس النواب، تؤكد الجهد الكبير الذى قام به والدراسات التى أعدها، وقبل ذلك إيمانه بالخدمة الوطنية وهذه بعض اقتراحاته:(١٢)

- إيفاد بعثات علمية للتعاون إلى إيطاليا وبلجيكا وهولندا وإيرلندا. وعده نائب وزير الزراعة بقرب تقديم الوزارة لقانون خاص بذلك.

- استثمار الأموال المودعة بالبنوك لفائدة الجامعة المصرية بافتتاح أولى كلياتها.

- تكليف المطبعة الأميرية بطبع المؤلفات والمحاضرات العلمية بالإضافة إلى ما تقوم به من أعمال نظرا لطاقتها الكبيرة المعطلة. وهذا يلفت إلى اهتمامه المبكر بالثقافة ونشرها. ويجيبه وكيل وزارة المالية أن المطبعة كانت تقوم

بطبع احتياجات دار الكتب، إلى أن أقامت الدار لها مطبعة خاصة والمطابع الأميرية على استعداد لطبع النافع.

- تأجير أطيان الحكومة للأهالى المقيمين ببلادها وتفضيلهم على غيرهم خدمة للصالح العام، وقامت الحكومة بذلك مع الوعد بالتوسع فيها.

- إنشاء أسطول تجارى مصرى بدل الاعتماد على بواخر الشركات الإنجليزية .. استعادة لعظمة الملاحة البحرية المصرية التى ازدهرت أيام محمد على وباع الاستعمار البريطانى بواخرها. وعندما اعتذر وزير المواصلات بضيق الوقت وقلة المال، طلب الرافعى البدء بشراء مركب أو ثلاثة كنواة، اتفق فى هذا مع اللجنة التى شكلت لترتيب زيارة الحجاج ووعدت الوزارة بتدبير المبالغ المطلوبة.

ولاشك أن موقف عبد الرحمن الرافعى أحد قادة الحزب الوطنى من معاهدة ١٩٣٦، يستأهل وقفة خاصة. لم تكد تذاع نصوص معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ التى وقعتها هيئة المفاوضة المصرية، المؤلفة من ممثلى الأحزاب السياسية عدا الحزب الوطنى إبان حكومة النحاس باشا، حتى اهتم الرافعى سكرتير الحزب الوطنى ببحثها وتحليلها فى مقال حاد نشره بعد عشرة أيام من إعلان بنودها فى جريدة "الأهرام" فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٣٦. ولم يكتف الرافعى بذلك بل طبع نصوص المعاهدة ورأيه فيها فى كتيب

صغير على حسابه مرتين متتاليتين وكل طبعة فى خمسة آلاف نسخة فى ٦٤ صفحة من القطع الصغير وزعها بالمجان. وكان عنوان الكتيب (قواعد المعاهدة استقلال أم حماية - بحث وتحليل -) مشيرا فى المقدمة إلى "الآن وقد نشرت نصوص المعاهدة، وانقضت فترة كافية لمن أرادوا الابتهاج بها، يجب على الأمة أن تبحثها وتفهمها على حقيقتها. لأنها لا ترتبط بحقوق الأفراد وحدهم بل تتعلق بحقوق الوطن. فى حاضره ومستقبله. ولا تقتصر نتائجها على الجيل الحاضر فحسب، بل تتعدى إلى الأجيال جملة. وإذا كانت عقود التصرفات بين الأفراد كالبيع والإيجار والرهن وما إلى ذلك لا يبرمها أصحاب الشأن إلا بعد بحثها وتمحيصها وإنعام النظر فى شروطها ومحتوياتها، فأجدر بالعقود التى يرتبط بها مصير أمة أن تكون موضع الدرس والعناية من طبقات الأمة كافة حتى تتبين أى مصير هى قادمة عليه إذا هى قبلت المعاهدة".

وكان أهم جوانب نقد الرافعى لها، أن الشروط العسكرية فيها والتى تعد من أهم بنودها، قد اشتملت على مزايا للإنجليز تفوق ما رفضه سعد زغلول سنة ١٩٢١ ورفضه النحاس نفسه سنة ١٩٣٠ فهى قد أتاحت للمحتل:

- رقعة أوسع، حيث تستوعب منطقة القناة كلها وشبه جزيرة سيناء كلها والجزء الجنوبى من الشرقية لحدود القاهرة وحدود الجيزة.

- لم تحدد عدد القوات الإنجليزية. كما أنها فرضت على الجانب المصرى لانتقال قوات الاحتلال إنشاء المعسكرات والطرق الحربية اللازمة وتحسين المواصلات.

- أبقت الطيران الإنجليزى فى القناة قريبا من السكك الحديدية واشترطت على الحكومة المصرية إنشاء مطارات جديدة - وقد تبين أن هذه الإنشاءات لن تقل تكلفتها عن عشرين مليون جنيه كرأى المهندسين.

- قيام الحكومة المصرية بتقديم جميع المساعدات داخل حدودها فى حالة قيام حرب.

وكان من عيوب المعاهدة أيضا فى نظر الرافعى، أنه لا يصح النظر فيها إلا بعد عشرين عاما. وكذلك فى حالة عدم اتفاق الطرفين بعد ثلاثين عاما من إبرام المعاهدة، يعرض الأمر على عصبة الأمم. كما أصبح السودان من خلال المعاهدة مستعمرة إنجليزية تحرسها القوات المسلحة المصرية تحت سيطرة الحاكم العام البريطانى.

ولم تفد المعاهدة فى إلغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة كما كان متوقعا بل أساءت إلى مصر حيث لن تستطيع أن تلغى الامتيازات من جانبها فقط بل التزمت بالاتفاق مع الدول المعنية.

ورأى الرافعى أن شروط المعاهدة تتمثل فيها قواعد الحماية، فالمحالفة أبدية. كما أنها حولت الاحتلال غير المشروع إلى احتلال مشروع بالسيطرة على السودان،

وبقاء القوات المسلحة المصرية تحت تأثير البعثة العسكرية البريطانية. وكان من رأيه أيضا أن الاعتراف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، المقترن ببقاء القوات البريطانية فى مصر، لا ينتج استقلالا.

ويختتم عبد الرحمن الرافعى تحليله بقوله "إن الأمم لا تتعاقد وعلى الأخص لا تتحالف ولا تتصادق على قاعدة التسليم فى حقوقها وقبول الحماية عليها. إن الحماية قد تفرض على الأمة رغما عنها بحكم القوة. وفى هذه الحالة يبقى حق الأمة ثابتا وروحها سليمة. أما قبول الحماية وجعلها أساسا لصداقة ومحالفة. فهذا عمل أمة تعبت من الجهاد القومى وانصرفت عنه. وآثرت التسليم فى استقلالها. وهذا ما لا ترضاه أمة تقدر قيمة الاستقلال وتحافظ على حقوق الوطن المقدسة. ورحم الله المغفور له محمد بك فريد إذ يقول (إننا نعرف كيف نصبر على المكاره ولكننا لا نعرف التسليم فى حقوقنا والتنازل عن مطالبنا)."[١٣]

وظل الرافعى يندد بالمعاهدة كلما وجد إلى ذلك سبيلا، وطوال عضويته بمجلس الشيوخ (١٩٣٩-١٩٥١) فعل ذلك أيضا، حتى بدا الأمر حينا غير طبيعى. ومن أطرف المواقف ما حدث فى جلسة ١٢ يونية سنة ١٩٤٠ وهو يتحدث عن دخول إيطاليا الحرب العالمية الثانية وقطع الحكومة المصرية علاقتها الدبلوماسية معها، ورغبته فى إعلان حياد مصر .. قال: ".. قطع العلاقات قد يؤدى بنا إلى مشاكل وإلى الاستهداف إلى ويلات الحرب. قد يقال إننا مرتبطون

بالمعاهدة ولا يمكننا أن نبقى على الحياد مع وجود نصوص هذه المعاهدة. وهنا أستسمحكم ولا أقصد توجيه اللوم إلى أحد، أن أقول إن المعاهدة قد ألقت علينا تبعات ثقيلة كنا فى غنى عنها". فينبرى للرافعى رئيس المجلس (محمد محمود خليل) بقوله: أرجو من حضرة الزميل أن يتكلم فى الموضوع فالمعاهدة قد صدق عليها البرلمان ولا محل الآن لنقدها فى هذا المقام! ولكن الرافعى يتابع هجومه على المعاهدة، فيرد عليه هذه المرة رئيس الوزراء على ماهر قائلا: لقد نصت المعاهدة على أن نعاون الحليفة داخل حدود الأراضى المصرية بجميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعنا. ولكن الرافعى يشير إلى أن الأحكام العرفية المعلنة فى البلاد فيها الكفاية. فيعقب العضو يوسف أحمد الجندى قائلا: لزم علينا فى هذا الموقف العصيب أن نصارح أنفسنا بالحق والواقع فيجب أن نقول إن بلادنا فى مركز يرثى له ولا يحسد عليه فى مركزها هذا سواء أكانت المعاهدة قد عقدت أم لم تعقد. إذ ليس بصحيح ما قاله زميلى الأستاذ عبدالرحمن الرافعى من أن المعاهدة ألقت علينا أعباء ثقيلة. فهذه الأعباء موجودة حتما. ولابد من أن توجد مادام فى هذه البلاد جندى إنجليزى واحد. وهذه هى حالة البلاد قبل أن تعقد المعاهدة ووقت أن لم تكن متمتعة باستقلالها. فنحن فى مركز دقيق غاية الدقة. وكل غيور على مصلحة هذه البلاد يجب عليه أن يعمل ويسعى بكل ما يستطيع ليخفف عنها الويلات التى قد تتعرض لها بسبب الحرب". [١٤]

ومن أشهر مناقشات الرافعي حول المعاهدة أيضا، ما وقع في جلسة ٣ يونية ١٩٤٢ وهو يناقش خطاب العرش في عهد وزارة مصطفى النحاس. فما كاد يتكلم عن الحياد والجلاء والسودان، حتى أخذ ينتقد المعاهدة فعارضه وزير العدل وتدخل بهى الدين بركات رئيس المجلس لتخفيف حدة الرافعي.(١٥)

وفي جلسة ١١ أكتوبر ١٩٤٥ قدمت الحكومة مشروع قانون بالموافقة على ميثاق الأمم المتحدة الذي وقعته ٥٣ دولة من بينهم مصر في مؤتمر سان فرنسيسكو في ٢٦ يونية ١٩٤٥، فيعترض الرافعي على هذا الميثاق ويربط بينه وبين نصوص معاهدة ١٩٣٦ حيث رأى أنه عبارة عن إحياء وبعث وتجديد لها!

وفي جلسة ٦ أغسطس ١٩٤٥ يتحدث الرافعي في استجوابه عن الأهداف القومية للبلاد ويطالب الحكومة بمطالبة إنجلترا بها، ويعرج على المعاهدة .. "أنا بطبعي ميال إلى الوسائل السلمية في المطالبة بأهداف مصر. بقيت كلمة ربما ووجهت بها وهي أن يقال لي إن بين مصر وبريطانيا معاهدة فما رأيك فيها؟ وأنا في الواقع لا أريد أن أحاججكم بالمنطق الذي تعودتموه مني في هذه النقطة، وهو أنني لم أقبل هذه المعاهدة ولم أقرها، وهذه حجتي. ولكنني لن أتمسك بهذا المنطق في هذه الليلة بالذات، لأنني أريد أن تكونوا راضين عن أفكاري ولذلك فإني ألجأ إلى منطق آخر أعتقد أنه يرضيكم تمام الرضا، وهذا المنطق هو

أن العقـود التـي تـبرم بيـن الـدول يجـب أن يكـون أساسـها الحريـة التامـة. لأن العقـود بيـن الـدول كـالعقود بيـن الأفـراد إذا شـابها إكـراه أو ضغـط فـهى عقـود غـير ملزمـة. فـالظروف التـى وقعت فيها معـاهدة سـنة ١٩٣٦ ليسـت ظروفـا تـدل علـى حريـة تامـة فـى التعـاقد .. ولذلـك نرجـو أن تسـتبعد كـل حجـة تسـتمد مـن هـذه المعـاهدة، ويجـب أن تكـون حججنـا مسـتمدة مـن حقنـا الطبيعـى فـى الاسـتقلال، وهـذه هـى الحجـة التـى لا يمكـن مطلقـا لأحـد أن ينكرهـا علينـا". (١٦)

وكذلـك رأينـا فـى مناقشـته لخطـاب العـرش فـى عـهد وزارة النقراشـى بجلسـة ١٤ ينـاير سـنة ١٩٤٦، لا يمـل مـن الـترديد أن الأمـة تريـد أن تتحلـل مـن المعـاهدة.

ومـن أهـم مناقشـاته الوطنيـة فـى ظـل تسـلط حكومـة صدقـى، مطالبتـه فـى جلسـة ١٢ يونيـة سـنة ١٩٤٦ بتعويـض أسـر شـهداء الإسكندرية الذين قتلوا فى المظاهرات برصاص الإنجليز يومى ٢١ فبراير، ٤ مارس سنة ١٩٤٦ وبلغ عددهم ٢٨ شهيدا وإصابة ٣٤٢ جريحـا. وهـذا جـانب مـن المناقشـة بيـن إسـماعيل صدقـى رئيـس الوزراء وعبد الرحمن الرافعى عضو الشيوخ:

إسـماعيل صدقـى: قلـت إن القـانون لا يلزمنـى بدفـع تعويـض، وقلـت كذلـك إنـى سـأعطى تعويضـا للذيـن يسـتحقون ويكونـون فـى حاجـة تسـتدعى الإعانـة والشـفقة.

عبـد الرحمـن الرافعـى: أريـد أن أقـول إن هنـاك مـا يسـمى بـالواجب العـام، وهـو مـا يجـب أن نقدمـه دائمـا علـى القـانون.

وأضرب لحضراتكم مثلا بسيطا أتخذه حجة ذلك إنه فى كثير من الأحوال يتوفى موظف فى أثناء تأدية وظيفته، فترى الحكومة أن تساعد ورثته بالتنازل عن نصيبها فى المعاش أو تقرر لأسرته معاشا استثنائيا، وهى ترمى من وراء ذلك إلى تشجيع الموظفين للقيام بأعمالهم استنادا إلى الواجب العام.

إسماعيل صدقى: ليس هذا تشجيعا، بل هى إعانة تقوم بها الحكومة فى بعض المناسبات.

عبد الرحمن الرافعى: أظن أن الذى سقط فى الشوارع وفى ميدان الجهاد أولى بالعطف من ورثة الموظف.

إسماعيل صدقى: أليس هذا ميدان جهاد؟

عبد الرحمن الرافعى: أما النقطة الثانية فإننى أرغب أن تظهر الحكومة عناية أكبر مما جاء فى أقوال دولة رئيس مجلس الوزراء. فقد كنت أنتظر عقب الحوادث مباشرة أن يخصص مبلغ ابتدائى لعائلات الذين سقطوا فى ميدان الجهاد حتى يكون مظهرا حقيقيا للعطف على هؤلاء. أما انتظار تحقيقات أو استيفاء بيانات أو تحريات أو أبحاث، فهذا أمر يطول بهم. وقد يصل إلى عام ولا يصرف شىء لأسر الشهداء.(١٧)

المراجع

١- عبـد الرحمـن الرافعـى: عصـر إسـماعيل ج١ ط٢ ص٨.

٢- الأخبـار عـدد ٢٦ يونيـة ١٩٢٢.

٣- عبـد الرحمـن الرافعـى: حقـوق الشـعب ط١ ص١١.

٤- عبـد الرحمـن الرافعـى: مذكراتـى ط١ ص١٤٥.

٥- المرجـع السـابق: ص٤٩.

٦- عبد الرحمن الرافعى: فى أعقاب الثورة المصرية ج١ ط١ ص١٥١.

٧- عبد الرحمن الرافعى: أعمالى فى مجلس النواب ط١ ص٧.

٨- المرجـع السـابق: ص١٨.

٩- عبد الرحمن الرافعى: أربعة عشر عاما فى البرلمان ط١ ص١٩.

١٠- أحمـد شـفيق: حوليـات مصـر السياسـية - الحوليـة الأولـى سـنة ١٩٢٤ ط١ ص١٩٠.

١١- عبد الرحمن الرافعى: أعمالى فى مجلس النواب ط١ ص٤٦.

١٢- المرجـع السـابق: ص٩٤.

١٣- عبـد الرحمـن الرافعـى: قواعـد المعـاهدة، اسـتقلال أم حمايـة - بحـث وتحليـل ط٢ ص٦٢.

١٤- عبـد الرحمـن الرافعـى: أربعـة عشـر عامـا فـى البرلمـان ط١ ص١٦٩.

١٥- عبـد الرحمـن الرافعـى: مذكراتـى ط١ ص٩٧.

١٦- عبـد الرحمـن الرافعـى: أربعـة عشـر عامـا فـى البرلمـان ط١ ص٤٣٨.

١٧- المرجـع السـابق: ص٤٨٦.

دارسا لشعراء الوطنية

(١)

كانت شخصية المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (١٨٨٩-١٩٦٦) مع بساطة صاحبها الظاهرية شديدة العمق متنوعة الاتجاهات، وهكذا لم يقتصر إنتاجه الفكرى على التاريخ فقط بل تجاوزه إلى السياسة والتعاون والأدب أيضا خاصة الشعر، ولا غرابة فى ذلك وهو يملك رؤية شاملة للأشياء والإنسان. وهذا الجانب الأخير الذى يبدو غير عادى فى شخصية شيخ المؤرخين، هو الذى تعالجه هذه الدراسة.

إن اهتمام مؤرخنا القوى بالشعر لم يكن نابعا من فراغ، فقد عرف منذ طفولته طريقه إلى الثقافة الإسلامية والشعر أيضا، بفضل أبيه الشيخ عبد اللطيف الرافعى أحد علماء الأزهر ومفتى الإسكندرية الذى كان يدرس لأولاده بعض العلوم. ثم كانت مطالعة عبد الرحمن فى صغره فى مكتبة أبيه الحافلة، الخطوة الثانية فى هذا الاتجاه. ولم يكن عبد الرحمن

وحـده الـذى يعشـق قـراءة الأدب والشـعر بيـن أخوتـه، بـل كـانوا كلـهم مثلـه .. أحمـد وإبراهيـم وأخـيرا أميـن الرافعـى الصحفـى والسياسـى والوطنـى الذائع الصيـت فـى العشـرينيات.

وقد انعكست اهتمامات عبد الرحمن الرافعى بالشعر فى أربعة أشكال؛ الأول مختاراته من الشعر العربى القديم التى كان يدونها فى مخطوط لم ينشر بعد ولم يشر إليه فى قصة حياته. والثانى التضمين الشعرى الذى حفلت به كتبه بشكل واضح. والثالث الإشارة إلى أشهر الأدباء والشعراء الذين برزوا خلال الفترة التى تناولها فى كتاباته. وأخيرا كتابه عن "شعراء الوطنية".

لقـد كـان مؤرخنـا منـذ صبـاه يسـجل مـا يعجبـه مـن الشـعر الـذى يطالعـه فـى دواويـن العـرب القدامـى. فـى أوراق خاصـة يحتفـظ بـها .. ويقرؤهـا كثـيرا. وتـاريخ هـذا المخطـوط الشـعرى يرجـع إلـى سـنة ١٩١٧ وتصـل صفحاتـه إلـى ٥٩٤ صفحـة مـن القطـع المتوسـط. واختـار لـه عنوانـا هـو "مختـاراتى مـن دواويـن الشـعراء فـى الجاهليـة والإسـلام"![١] ويتكـون مـن جزأيـن يشـتمل الأول علـى أربعـة أبـواب، ويشـتمل الثـانى مـن البـاب الخـامس حتـى الثـانى عشـر.

يسـطر الرافعـى فـى المقدمـة التـى كتبـها لمختاراتـه هـذه الكلمـات: "هـذا مـا اخترتـه مـن دواويـن الشـعراء علـى اختـلاف طبقاتـهم جـاهليين ومخضرميـن ومولديـن. وقـد توخيـت فـى هـذه المختـارات أن أدون فيـها خـير مـا يتمثـل بـه مـن أشـعار العـرب فـى الكتابـة والخطابـة".

وأبواب كل جزء تشتمل على عدة فصول. ونبدأ بالجزء الأول. ففصول الباب الأول هي (في الأخلاقيات) الذى يضم (في إباء الضيم والنفور من الذل). وتحمل الفصول من الثاني حتى الخامس والعشرين العناوين التالية: في إيثار الموت الشريف على الحياة الذليلة، المعالى محفوفة بالمكاره والشدائد خير مرب للرجال، في النفوس الكبيرة، في الشجاعة وامتداحها، في الحق، في الافتخار بالشجاعة وشدة البأس، السجن لا ينصب الكرام، الهجرة من دار الذل، في عزة النفس والعفة، في الإقدام والمخاطرة، الطموح في المجد والشهرة، مغالبة الدهر، الحرص على الحياة، في المثابرة، في الحذر، في الاعتماد على النفس والتعويل على الله، الاضطلاع بعظائم الأمور، العفو عند المقدرة وذم النفاق، كتمان السر وإفشاؤه، المرء أسير طبعه وعاداته، على المرء أن يسعى، الإرجاف بالكذب والإناء ينضح بما فيه، مواراة عيوب الناس، متفرقات في الأخلاق والحكمة.

أما عنوان الباب الثاني فهو (في العواطف) يضم فصولا سبعة هي: محبة الوطن والحنين إليه، تحية مصر عند القدوم إليها، الحنين إلى الأهل والصديق، مناجاة الأطلال ومخاطبة الآثار، في الغزل النسيب، الفراق وآلامه، الأمل غذاء النفوس.

والباب الثالث (الزمان وأحواله) يشمل ثمانية أبواب هي: في شكوى الزمان، الكرام عرضة لنوائب الزمان، العظيم المجهول قدره، في الصبر على المصائب وإطراح الهم، ثم

الدهر وغرور الدنيا والزهد فيها، فى السفر والغربة، تقلبات الأيام، لا مرد لقضاء الله، الآمال والأماني.

أما عنوان الباب الرابع فهو (فى الفخر) بدون فصول.

ويحمل الخامس اسم (فى الإخوانيات) وفصوله الثلاثة تحتوى على: العتاب ومسامحة الإخوان، الشكوى من قلة الأنصار والإخوان، مظاهر الإخاء والصداقة.

والباب السادس (فى الاستعطاف والتشكى) ولم يقسم فى فصول.

والسابع (فى المديح والتهانى) وتشتمل فصوله التسعة على: امتداح السيادة والتفوق، كرم المحتد، امتداح الشباب، امتداح البلاغة والافتخار بها، مدح الكرم والجود، مدح العدل، مدح العظماء، فى التهانى، فى الشكر والثناء.

والباب الثامن (فى الهجاء) ويضم فصولا ستة هى: فيمن حياتهم جناية على الناس، لوم الجاهل، عدم الأمانة، لا يكرم اللئيم، ذم النفاق، فى الحسد.

والتاسع (فى الرثاء) يتكون من ستة فصول: الحكمة والفلسفة فى معرض الرثاء، التوجع فى الرثاء، رثاء الزعماء والأبطال، رثاء العزيمة، رثاء أهل بيت النبوة، رثاء الأمم.

والبابان العاشر والحادى عشر لم يقسمهما إلى فصول وهما (فى الوصف والتشبيه) و(فى النصح والإرشاد والزجر والتقريع والتهديد).

أما الباب الثانى عشر (شذور متفرقة فى الاجتماعيات) فيشتمل على ثلاثة فصول: الحق للقوة والسيف والقلم. اجتماع الكلمة والدعوة للوئام، شذور متفرقة فى الاجتماع. والأخير يشمل على: فى الشعر السياسى، فى الغزل والتشبيب، الحنين إلى الأهل والحمى والصديق.

ويشتمل الباب الأخير على طبقات الشعراء والأدباء والعلماء فى الجاهلية والإسلام، ويحمل هذه العناوين:

(أ) عصر الجاهلية: أصحاب المعلقات.

(ب) العصر الإسلامى: عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى ينتهى بسقوط الدولة الأموية.

(ج) المحدثون، العلوم الدخيلة، الشعراء فى ذلك العصر، العصر العباسى، العصر الأول، ظهور الدول العباسية، كتاب الرسائل والكتاب والمؤلفون، علماء الأدب ورواته، علماء العروض والقافية، علماء النحو، الطبقة الثانية، الطبقة الثالثة، الطبقة الرابعة، الطبقة الخامسة، الطبقة السادسة.

(د) العصر العباسى الثانى: شعراء الحرب والسلام، كتاب الرسائل والكتاب المنشئون، علماء الأدب ورواته. علماء النحو، علماء اللغة، علماء البلاغة، علماء التفسير، علماء الحديث، علماء التاريخ.

(هـ) العصر المغولى.

وبهذا الشكل ضم مخطوط الرافعي الشعري، عشرات الأسماء من شعراء العربية الكبار في مختلف عصورهم حتى العصر المغولي، وهذه المختارات التي انتقاها الرافعي من دواوين العرب لا تمضي بلا دلالة، فهي تعكس من ناحية إيمانه العظيم بالله وبالقيم الإسلامية التي ظل وفيا لها طوال حياته، كما تعرض من ناحية ثانية طبيعة عبد الرحمن الرافعي الهادئة التي تقاوم ما يصادفها من صعاب ليس عن طريق العنف بل عن الطريق الأطول .. الاعتماد على النفس. ومن ناحية ثالثة تعكس رسوخ عقيدة مؤرخنا الكبير في المثل العليا التي اختارها لنفسه ثم دعا إليها غيره عندما أمسك بالقلم.

(٢)

أما الشكل الثاني الذي يعبر عن عشق الرافعي للشعر، فهو استعانته بالتضمين الشعري في كتاباته البالغة القدم والبالغة الحداثة وما بينهما على السواء!

فقد كان مؤرخنا شديد الاهتمام بالحديث في كل كتبه عن الحياة الفكرية والثقافية، ومشاركة الأدب وخاصة الشعر في الأحداث الوطنية. ولم يكن يكتفي باختيار بعض أبيات القصيدة، بل يعرض القصيدة كاملة. وقد بلغ اهتمامه بدور الشعر أن كان يضع أسماء القصائد التي يختارها عناوين في فهرس الكتاب.

في أحد كتبه المبكرة والثالث من حيث مؤلفاته وهو "الجمعيات الوطنية" - الذي صدر سنة ١٩٢٢ - يعرض

مثـلا لبيـت مـن الشـعر معـروف يتفـق مـع إشـارته إلـى الاضطـراب الـذى يصيب الأنفس سـاعة الشـدة. وذلـك فـى عـهد الإرهـاب فـى فرنسـا بعـد ثورتـها، الـذى قـدم إلـى المقصلـة مجموعـة مـن الشـخصيات العظيمـة مثـل دانتـون الخطيـب الممتـاز وكـاميل ديمـولان أكـبر كتـاب الثـورة. وعـدم تبيـن الشعب لأخطائـه إلا بعـد أن قضـى عليـهم .. والبيـت يقـول:

يقضى علـى المرء فـى أيـام محنتـه

حتـى يرى حسـنا مـا ليس بالحسـن

(ط١ ص٦٤)

وفى جانب آخر من الكتاب يشير كيف سمع العالم عن بولندا سنة ١٨٣٠ وهى تئن من نير الاحتلال، بعد هجرة علمائها وكتابها وشعرائها لعواصم أوروبا ليثيروا عواطف العالم لوطنهم السليب. وكـان مـن بينـهم أشـهر شـعرائهم وهـم: آدم ميكـافكس، وشـوبين، وجول سلواكى، وآدم كرازنسكى، ونمسيفكس.

وعندما يشير الرافعى فى كتابه السابع "عصر محمد على" إلى الفارق بين قوة محمد على الذي لم تنل منه إنجلترا شيئا لتحقيق أطماعها وبين عهد أحفاده الضعفاء حيث احتلت إنجلترا مصر. يذكر مؤرخنا الكبير البيت المشهور:

لـم أكن من جناتـها علـم اللـه

وأنـى بحرهـا اليـوم صالـى

(ط٣ ص٣٥٦)

وكان عبد الرحمن الرافعى من أوائل الكتاب الذين لفتوا بقوة إلى رفاعة الطهطاوى، عندما درسه طويلا فى نفس المجلد "عصر محمد على"، مصورا الصعاب التى تعرض لها عندما نفاه عباس الأول سنة ١٨٥١ إلى السودان لتولى نظارة مدرسة ابتدائية بالخرطوم. ويقدم إنتاجه الشعرى الذى يعكس حالته النفسية، كما تعرض قصيدته التى قالها وهو فى السودان:

فما أنا للأيام غير محـــارب

أصاحبها مستبشـرا متهلـــلا

فإن كان حظى رامحا كنت رامحـا

وإن كان حظى أعـزلا كنت أعـزلا

(ط٣ ص٥١٩)

"وفـى الثـورة العرابيـة والاحتـلال الإنجلـيزى" يصـف مؤرخنـا حالـة الزعمـاء المصريين عند محاكمتـهم ونفيـهم، ويتوقـف عند قصيدة البـارودى التـى يصـف فيـها رحيلـه عـن أرض مصـر ومطلعـها:

محا البين ما أبقـت عيون المهى منـى

فشبت ولـم أقض اللبانـة من سنـى

(ط١ ص٥١٠)

ويقـدم نموذجيا آخر لرب السيف والقلـم يفيض تضحيـة وبطوله فى قصيدة لـه فى منفاه:

لـم أقترف زلـة تقضـى علـى بمـــــا

أصبحـت فيـه فمـاذا الويـل والحـــرب

(ط١ ص٥٢٥)

ومن الملاحظ بهذه المناسبة أن الرافعى لا يستشهد إلا بالشعر الذى يتفق مع وجهة نظره هو فى الأحداث التى يعرض. وإذا كان هذا الموقف يبدو متسقا مع المنهج، إلا أنه فى الوقت ذاته لا يتفق مع الموضوعية فى الدراسة التى تعتمد على الحقائق وحدها، كما تستوجب عـرض وجـهات النظـر المختلفـة وعـدم الاقتصـار عـى التفسـير الـذى يقدمـه البـاحث. ولكـن مؤرخنـا لـم يفعـل، وكـان التضمين الشعرى يحمل وجهة نظر شخصية .. وفى هذا الموضع وهـو الثورة العرابيـة المدانـة فى معظـم الأحـوال مـن عبـد الرحمـن الرافعـى، لا يـأتى كاتبنـا إلا بمـا يؤكـد هـذه الإدانـة، ولـذا فليـس بمستغرب أن يذكر مؤرخنا قصيدة الشيخ محمد عبده التى قالها تأييدا لرياض حين يصف واقعة عابدين، وذلك قبل أن ينصهر فى الثورة إبان وزارة البارودى ويصبح من دعاتها يقول الشيخ محمد عبده فى قصيدته:

قـامت عصابـات جنـد فـى مدينتنـــــــا

لعـزل خـير رئيس كنـت راجيـــــــه

ذاك الـذى أنعـش الأمـــال غيرتـــــــه

وخلـص القطـر فارتاحـــت أهاليـــه

(ط١ ص٥٤٠)

وتشتمل بعض كتب الرافعى على قصائد كاملة لمشاهير الشعراء، كما فى كتاب "مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية" .. الذى يعرض لنماذج وطنية لأشعار حافظ ابراهيم وأحمد شوقى وخليل مطران وإسماعيل صبرى وأحمد محرم. وكذلك فى كتابيه "محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية" و"ثورة سنة ١٩١٩".

ولاشك أن مواكبة الشعر المصرى للأحداث القومية ومساهمة الكثير من الشعراء فى المواقف السياسية، ساعدتا الرافعى المحب للشعر، فى استخدامه وهو يدرس لتاريخ مصر الحديث .. ففى كتابه الرابع عشر "فى أعقاب الثورة المصرية" نجد الرافعى وهو يعرض اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ متحديا الحكومة. وكذلك اجتماع المؤتمر الوطنى عصر يوم الجمعة ١٩ فبراير سنة ١٩٢٦ بحديقة منزل محمد محمود باشا، الذى رأسه سعد زغلول. يعرض للقصيدة التى نظمها شوقى تحية للدستور وتوحيد الصفوف وألقاها فكرى أباظة والتى يقول فيها أمير الشعراء:

صرح على الوادى المبارك ضاحى
متظاهر الأعلام والأوضاح
ضافى الجلالة كالعتيق مفصل
ساحات فضل فى رحاب سماح

(ج١ ط١ ص٢٥٥)

وفـى الجـزء الثـانى مـن "أعقـاب الثـورة المصريـة" يقـدم الرافعـى قصيـدة حـافظ إبراهيـم التـى هـاجم فيـها الإنجلـيز وصدقى باشا سـنة ١٩٣٢ قـائلا:

بنيتـم علـى الأخـلاق أسـاس ملككـم

فكان لكـم بيـن الشعـوب ذمـام

فمـالى أرى الأخـلاق قـد شـاب قرنهـا

وحـل بـها ضعـف ودب سقـام

أخـاف عليكـم عـثرة بعـد نهضـة

فليـس لملـك الظالمـين دوام

(ج٢ ط١ ص١٥٨)

ثـم يعـرض الرافعـى قصيـدة حـافظ إبراهيـم التـى قالـها فـى أبريـل سـنة ١٩٣٢ بعنـوان "إلـى الإنجلـيز" متحديـا ظلـم المحتليـن:

حولـوا النيـل واحجبـوا الضـوء عنـا

واطمسـوا النجـم واحرمونـا النسيمـا

واملئـوا البحـر، إن أردتـم، سفينـا

واملئـوا الجـو، إن أردتـم، رجومـا

وأقيمـوا للصـف فـى كـل شبـر

(كونسـتبلا) بالسـوط يفـرى الأديمـا

(ج١ ط١ ص١٦٠)

وفى الجزء الثالث من نفس الكتاب يشير الرافعى إلى قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بتاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وما حل بالشعوب العربية من ضعف وتفكك مستشهدا يقول الشاعر:

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة

ونام عنها تولى رعيها الأسد

(ج٣ ط١ ص٢٣٩)

وفى موضع ثان وهو إهمال وزارة الوفد الأخير سنة ١٩٥٠ - من وجهة نظر الرافعى عضو الحزب الوطنى وخصم الوفد - للمشروعات الإنتاجية، يستشهد مؤرخنا بقول الشاعر القديم:

ومكلف الأيام ضد طباعها

متطلب فى الماء جذوة نار

(ج٣ ط١ ص٣٠٥)

وكان الرافعى محبا للتضمين الشعرى، ففى "جمال الدين الأفغانى باعث نهضة الشرق" الذى صدر بعد وفاته بأيام. يكتب جمال الأفغانى يصف ثورة الأمريكيين على الاستعمار الإنجليزى بقيادة جورج واشنطون:

السيف أصدق أنباء من الكتب

فى حده الحد بين الجد واللعب

(ط١ ص١٦٩)

وليست مختارات الشعر والتضمين الشعرى، هما وحدهما اللذان يعكسان حب الرافعى للفن العربى الأول، بل إنه يناقش أيضا بعض القضايا الشعرية مثل حاجتنا إلى شعر الملاحم نصور فيه تاريخنا النضالى الرائع. ففى كتابه الحادى والعشرين (تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة من فجر التاريخ إلى الفتح العربى"، يلتفت الرافعى إلى اهتمام شعوب العالم بأمجادها وبطولاتها فى ملاحمها الشعبية منذ كتابات هوميروس اليونانى صاحب الإلياذة والأوديسة، فيتساءل "فهل لنا أن نأمل فى تخليد بطولة المصريين فى حرب التحرير ضد الهكسوس. وأن نمجد هذه البطولة فى ملحمة من نظم شاعر عربىً يشيد بالروح الوثابة التى انبعثت فى الشعب المصرى القديم وجعلته يكافح الهكسوس من أجل حرية الوادى واستقلاله؟ هل نجد فى شعرائنا هومير الثورة على الهكسوس؟ إننا نأمل ونرجو". (ط١ ص٨٣)

وكان عبد الرحمن الرافعى يجد بعض الإجابة عن تساؤله، وهو يذكر قصيدة أحمد شوقى المشهورة "كبار الحوادث فى وادى النيل" التى يعدها البعض ملحمة حديثة مشيرا إلى بسالة المصريين فى طرد الهكسوس:

لا رعــاك التـاريخ يـا يـوم (قمبيـــز)

ولا طنطنـت بـك الأنبــــــاء

دارت الدائـرات فيـك ونالـــــــت

هـذه الأمـة اليـد العســـــراء

فبمصـر ممـا جنيـت لمصـــــــــر

أى داء مــا إن إليـــــه دواء

نكـد خـالد وبـؤس مقيـــــــــــم

وشـقاء يجـد منــــه شقــــاء

(ط١ ص١٧٠)

ولــم تكـن الكتابــة وحدهــا هــى التــى تســتوعب التضميــن الشـعرى عنـد الرافعـى، ففـى خطبـه القليلـة كـان يسـتعين بـه فيـها أيضـا .. فعندمـا أقيـم فـى دمنـهور مسـاء الجمعـة ٢٠ ينـاير سـنة ١٩٢٨ احتفــال لتـأبين شـقيقه أميـن الرافعـى يقـول عبـد الرحمـن: ذهـب يلقـى وجـه ربـه راضيـا مرضيـا ولسـان حاله يقـول:

قـد عـذب المـوت بأفواهنــــــا

والمـوت خـير مــن حياة الذليـل

إنـا إلـى اللـه وإنـا لــــــــــه

وفـى سـيبل اللـه خـير سبيـــل[٢]

(٣)

والشكل الثالث الذى يعكس حب عبد الرحمن الرافعى للشعر، وهو تسليط الأضواء على الشعراء - ضمنا - فى بحوثه التاريخية .. فى مجال عالم الثقافة والفكر الذى يعده عنصرا هاما فى دراسة المجتمع المصرى الذى لا يقل إن لم يزد على دنيا السياسيين والمهندسين والعلماء والعسكريين وغيرهم.

ففى "عصر محمد على" يتوقف مؤرخنا طويلا عند رفاعة رافع الطهطاوى. (ط٣ ص٤٩٨) وفى كتاب "عصر إسماعيل" الجزء الأول يتحدث عن كثير من الشعراء مثل محمود سامى البارودى، وعائشة عصمت تيمور، وعبد الله نديم، وأديب إسحق، والشيخ على الليثى، وعلى أبو النصر المنفلوطى، والسيد صالح مجدى، وإبراهيم مرزوق، ومحمود صفوت الساعاتى.

وهذا نموذج لمعالجة الرافعى لشخصيات الأدب والشعراء. يكتب عن عائشة تيمور (١٨٤٠-١٩٠٢) قائلا: "طليعة اليقظة النسوية فى تاريخ مصر الحديث، وأول من نبغ من المصريات فى الشعر والأدب، نشأت من بيت كريم، إذ كان أبوها إسماعيل باشا تيمور. أحد كبار الحكام فى عصر عباس الأول وسعيد وإسماعيل وشقيقها العلامة أحمد باشا تيمور، بدت عليها ملكة الأدب والشعر وهى بين

السابعة والثالثة عشرة، ورأى أبوها منها هذا الميل، فعنى بتثقيفها، وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم. وقالت الشعر وهى فى الثالثة عشرة. فأعجب بها والدها وحبب إليها إجادته، فأكبت على نظم الشعر بلغات ثلاث. الفارسية والعربية والتركية. وتزوجت وهى فى الرابعة عشرة بمحمد بك توفيق بن محمود بك الإسلامبولى. فشغلتها الحياة الزوجية عن الأدب حينا، فلما شبت ابنتها (توحيدة) عهدت إليها شئون المنزل. وبعد وفاة والدها سنة ١٨٨٢ وزوجها سنة ١٨٨٥ تفرغت للشعر والأدب. وأتقنت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم فى هذا العصر. هما فاطمة الأزهرية، وستيتة الطبلاوية، وعادت إلى نظم الشعر. ثم توفيت ابنتها توحيدة فاشتد حزنها عليها، وشغلت بالذكرى والبكاء سبع سنين عددا، ثم عادت إلى الكتابة والشعر، وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢. ولها من الآثار الأدبية "حلية الطراز" وهو ديوان شعرها العربى، و"شكوفة" وهو ديوانها التركى والفارسى. و"نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال" وهى قصة أدبية كتبتها بأسلوب المقامات". (ج١ ط٢ ص٢٥٧)

وفى كتاب "الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى" تناول الرافعى باهتمام بالغ الشاعرين محمود سامى البارودى وعبدالله نديم. (ط١ ص٥٢٠، ٥٣٠) وكذلك يفعل فى "تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم" الجزء الأول، وهو يعالج الحياة الثقافية والأدبية وتطورها فى عهد

السلاطين البحرية والبرجية واضمحلالها فى ظل الحكم العثمانى لأكثر من ثلاثة قرون. (ج١ ط٤ ص٤٧) ولكن من الملاحظ أن هذا العنصر، أى الالتفات إلى الشعراء والحياة الثقافية لم يتكرر دائما فى دراسات الرافعى التاريخية.

(٤)

والشكل الأخير لاهتمام عبد الرحمن الرافعى بالشعر يقدمه كتابه "شعراء الوطنية" - ٣٠٨ صفحة من القطع الكبير - الذى ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٥٤.

ويشير مؤرخنا فى مقدمته إلى باعث إصداره "عندما أرخت الحركة القومية فى أدوارها المتعاقبة، تبينت مبلغ ما للشعر الوطنى من أثر عميق فى التمهيد لها وبعثها، وإذكاء الروح الوطنية فى نفوس المواطنين، وتسجيل الحوادث الهامة فى تاريخ مصر القومى. ومن يومئذ وأنا تواق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفرا منفردا، يجمع معظم ما جادت به قرائحهم من الشعر الوطنى، مع التعريف بشخصياتهم، وذكر المناسبات التى أنشئوا فيها قصائدهم الوطنية". (ص ٥)

ويوضح عبد الرحمن الرافعى منهج كتابه قائلا: "فإنى أقصد من شاعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية فى شعره، فإذا كان قد فاتنى أن أتحدث عن بعض الشعراء

الممتازين، فالأمر لا يعدو أن يكون رأيا تقديريا، وأن يكون شعرهم الوطنى قد بدا إلى مغمرا فى بحر شعرهم الفياض، وهذا لا يغمط بداهة من منزلتهم فى عالم الشعر والأدب، وحسبى عذرا لى أن رأيى التقديرى فى تخير شعراء الوطنية كان نتيجة دراسات مستفيضة، عكفت عليها سنين. ولم أقتصر على ما وعته ذاكرتى من الشعر الوطنى فى مختلف المناسبات، ولا على دواوين الشعراء. بل ذهبت أستقصى الشعر الوطنى فى مجاميع الصحف والمجلات، عاما بعد عام، قرابة نصف قرن من الزمان، بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية، بعضها لم ينشر من قبل فى كتاب أو ديوان. (ط١، ص ص ٣، ٦)

والمتصفح للكتاب يكتشف أن غالبية الشخصيات قد سبق أن قدمها الرافعى فى مجلداته التاريخية، وأنه فى "شعراء الوطنية" لم يفعل أكثر من تجميع ما كتب قبلا وإضافة بعض القصائد الجديدة. وأغلب أصحابها كما ننتظر من منتم إلى الحزب الوطنى، هم من شعراء الحزب الوطنى أو من المتعاطفين مع مصطفى كامل ومحمد فريد وبقية رجال الحزب.

والشعراء الذين عرض لهم الرافعى فى كتابه هم، رفاعة رافع الطهطاوى، عبد الله نديم، محمود سامى البارودى، إسماعيل صبرى، أحمد شوقى، حافظ إبراهيم، خليل مطران، أحمد محرم، أحمد نسيم، أحمد الكاشف، محمد عبد المطلب، أحمد زكى أبو شادى، عبد الحليم المصرى،

عزيز فهمي، على الغاياتي. تناولهم بنسق واحد، يكتب عن حياتهم ويعرض أجزاء من قصائدهم مشيرا إلى مناسباتها.

والشاعر الأول الذى يقدمه مؤلفنا هو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣) ذلك الواعظ الذى أوفده محمد على فى أولى بعثاته سنة ١٨٣٦ إلى باريس ليرعى المبعوثين. فانتظم فى الدراسة وتبوأ عند عودته أرفع الوظائف فى التعليم. ومن الطريف أن القصائد التى جاء بها الرافعى فى كتابه، سبق أن نشرها فى "عصر محمد على" (ط٣ ص٤٩٨)! وقد أعجب الرافعى من قصائد رفاعة بقصيدة "حب الوطن من الإيمان" التى يقول فيها:

هذا لعمرى إن فيها سادة
قد زينوا بالحسن والإحسان
يأيها الخافى عليك فخارها
فإليك أن الشاهد الحسنان
ولئن حلفت إن مصر لجنة
وقطوفها للفائزين دوان

وهذه القصيدة من وطنيات رفاعة الطهطاوى التى يقول عنها الدكتور أحمد أحمد بدوى فى كلمته عن "رفاعة الأديب" ضمن مهرجان رفاعة الطهطاوى الذى أقامه المجلس الأعلى للفنون والآداب: ".. ولكن الشيء الجديد الذى جاء به رفاعة هو هذه الأناشيد الوطنية التى وضعها حينا على لسان الجيش، يفتخر بتاريخه المجيد، وبشجاعته

الباسلة، وحيناً بمجد مصر، ويدعو إلى فدائها بالدم والمال، وحيناً دعوة حارة إلى العمل كى يسود الوطن، ويتناسب حاضره مع ماضيه، ورفاعة بذلك أول من نظم فى الشعر هذه الأناشيد الوطنية".(٣)

ويتفق فى هذا الرأى الدكتور طه وادى، الذى يقول فى كتابه "ديوان رفاعة الطهطاوى": "لم تظهر بوضوح الحساسية المفرطة لانتماء العربى لإقليمه الوطنى إلا مع بداية النهضة الحديثة، وظهور المشاعر الخاصة إزاءه. ذلك أن النهضة قد اعتمدت فى كل قطر عربى على جوهر كل ما يتصل بتراث العروبة. بيد أن اليقظة كانت تقوم فى كل وطن فى مرحلة متفاوتة - نسبياً - عن غيره، مما حدا بالبعض إلى أن يدعم نضاله الاجتماعى والسياسى، الذى يعتمد - فى الغالب - على جهد فردى من أبناء شعبه. بإثارة مشاعر الوحدة الوطنية والانتماء المتميز. والطهطاوى يعد (أول) معبر عن هذا الأساس "الوطنى" فى الشعر العربى الحديث".(٤)

والشخصية الشعرية الثانية فى كتاب الرافعى هى "عبد الله النديم" (١٨٤٥-١٨٩٦) خطيب وشاعر الثورة العرابية، ومن أصدق أعوانها حتى نهاية عمره .. على الرغم مما أصابه من أجلها من عداء السلطات الحاكمة. وأديب الثورة يعده عمر الدسوقى "فى الطليعة من رواد الأدب الحديث".(٥) ويقول عنه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى "وعلى الجملة فالسيد النديم يعد بحق من أعظم قادة الجماهير".(٦) ومن المعروف أن النديم كتب كثيراً من الشعر، ويشير جرجى زيدان إلى ذلك بقوله "ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على

نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا. وديوان آخر في نحو ثلاثة آلاف بيت. وروايتا "الوطن" و"العرب" ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدي جامعي "السلافة" منها إلا أربع عشرة رسالة بعد السعي الكثير ومكابدة العناية الجزيل، "وكان ويكون" (وهو الذي طبع بعضه في الأستاذ) وواحد وعشرون كتابا في فنون مختلفة قطع لأجلها أيام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الأقلام. منها ديوان شعر يحتوي على ما يقارب عشرة آلاف بيت وهو الآن محجور عليه في الآستانة، ومنها "النحلة في الرحلة". و"الاختفاء في الاختفاء". و"الشكر في المشترك". وكتاب في المترادفات. وآخر في اللغة سماه "موحد الفصول وجامع الأصول". و"الفرائد في العقائد". و"اللآلئ والدرر في فواتح السور". و"البديع في مدح الشفيع". و"أمثال العرب" وغير ذلك. وقد فقد كثير من مؤلفاته ومنظوماته حرقاً أو ضياعاً أو اغتيالاً". [٧]

ومن شعر النديم الذي أعجب به الرافعي قوله مخاطباً المصريين مدافعاً عن الثورة العرابية:

إليكم يرد الأمر وهو عظيم

فإني بكم طول الزمان رحيم

إذا لم تكونوا للخطوب وللردى

فمن أين يأتي للديار نعيم

وقوله فى قصيدة أخرى:

أتحسبنا إذا قلنا بلينا

بلينا أو يروم القلب لينا

نعم للمجد نقتحم الدواهى

فيحسب خامل أنا دهينا

تناوشنا فيقهرنا خطوب

ترى ليث العرين لها قرينا

سواء حربها والسلم إنا

أناس قبل هدنتها هدينا

وشاعرنا الثالث من شعراء الوطنية هو "محمود سامى البارودى" (١٨٤٠-١٩٠٤) الذى يعتبره الرافعى "إمام الشعراء المحدثين قاطبة، وباكورة الإعلام فى دولة الشعر الحديث، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين، فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود". وقد تخير له أبياتاً من قصائد "الحنين إلى الوطن - الصبر على الشدائد - الحنين إلى الأهل والولد - عظمة الأهرام - الفساد فى عهد إسماعيل - عبرة الحوادث" والقصيدة الأخيرة أنشدها بعد عودته لمصر من منفاه يقول فيها:

يأيها السادر المزور من صلف

مهلاً فإنك بالأيام منخدع

دع ما يريب وخد فيما خلقت لـه

لعل قلبك بالإيمـان ينتفـع

إن الحياة لثوب سوف نخلعـه

وكل ثوب إذا مـارث ينخلـع

لقد شارك البارودى مع أرستقراطيته فى الثورة العرابية تحت تأثير بما ينفث التدخل الأجنبى من ذل، وما يجتاح مصر من مظالم. يقول الدكتور على محمد الحديدى "وثورة البارودى على الأوضاع الفاسدة عام ١٨٦٨ ودعوته قومه إلى الثورة واستعمال القوة حدث وطنى يستحق الدراسة والاهتمام. فالبارودى لم يكن من الطبقات المظلومة التى تعانى إرهاق الضرائب أو محنة السخرة، ولم يمس عرضه بأذى من فجور الخديو وبطانته، ولم يهضم حق من حقوقه فى الرتب العسكرية أو المراكز المدنية، بل كان على النقيض من ذلك. يرفل فى الثراء والنعيم، ويعمل حارساً للخديو ثم ياوراً، ويصاهر الأسرة الخديوية بزواجه من بنت أحمد يكن ابن أخت محمد على. ولو أننا تعمقنا دراسة "القصيدة العينية" التى خرجت منها صيحته الأولى للثورة، وما أحاط بها من ظروف نفسية للشاعر لوجدناها صرخة صادرة عن وطنية صادقة. أطلقها البارودى الشاعر ذو الإحساس المرهف، والنفس الحرة الكبيرة انبعثت من شعور الفنان المتألم للحرية المذبوحة فى وطنه، وللظلم الذى يجثم على صدر مواطنيه، وللإرهاب الذى يفرى كرامة المصريين وقلوبهم، فيهيب بهم إن يهبوا للثورة".(٨)

ورابع المؤرخ لهم هو "إسماعيل صبرى" (١٨٥٤-١٩٢٣) الذى أشاد به المؤلف لوطنيته .. فهو الموظف المصرى الوحيد من كبار الموظفين المصريين الذى لم يزر إنجليزيا، ولم يسع لزيارة كرومر المندوب السامى البريطانى الذى يعد الحاكم الفعلى لمصر إبان الاحتلال بالرغم من محاولات الأخير استمالته. وكان هذا استثناء نادراً. وكان الشاعر من أصدق أصدقاء مصطفى كامل ومن مناصريه. أما موهبته فيقول عنها الرافعى: "إنه شاعر موهوب من صغره، صافى الذهن والوجدان وأشعاره وطنية تنم على مدى حب الوطن وكرامته وآمال الشعب وحزنه على مآسيه، كما أنه من أعلام الطبقة الأولى من الشعراء، ويعد ثانيهم فى الترتيب بعد البارودى".

ومن القصائد التى أشار إليها المؤلف "الدعوة للدستور - حادثة دنشواى - رثاء مصطفى كامل - التنديد بالمستعمرين لاعتداء إيطاليا على ليبيا سنة ١٩١١ - الامتيازات الأجنبية - التوحيد والحرية - التغنى بعظمة مصر - إلى شوقى فى منفاه". ويختار له الرافعى قوله المشهور:

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا

فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

ردوا المجرة كدا دون مورده

أو فاطلبوا غيره رياً لظمآن

ويقول الدكتور طه حسين عن شعر إسماعيل صبرى فى مقدمته لديوان صبرى "وفى الشعر السياسى لصبرى هذا الروح المصرى الذى نعرفه فى شعر حافظ وشوقى، ونعرفه فى حياة الجيل كله. هذه الوطنية الحارة الحادة الطامحة إلى مثل أعلى غير محدود ولا واضح الإعلام، والتى لا تخلو من الفكاهة المرة أحياناً ومن الدعابة الحلوة أحياناً أخرى".[٩]

أما الدكتور محمد حسين هيكل، فقد اختار شاعرنا ضمن الشخصيات المصرية التى درسها فى كتابه "تراجم مصرية وغربية". ويقول عنه "كان شاعراً مصرياً حقاً، ومن أن النزعة البدوية كانت لا تعرف سبيلاً إلى نفسه، وأن الرقة التى تسيل بها جوانب وادى النيل والصفو الذى يظل سماءه والخضرة النضرة التى تزين جنباته، وأغاريد الطير فى هوائه الرقيق، كل ذلك كان ينعكس فى نفس إسماعيل صبرى بقوة لا تراها فى كثيرين غيره من الشعراء. ولعلك لذلك تقر له باللقب الذى لقبه به معاصروه: لقب شيخ الشعراء".[١٠]

وخامس الشعراء هو "أحمد شوقى" (١٨٧٠-١٩٣٢) الذى يعتبره الرافعى "شاعر الوطنية الأكبر وليس أمير الشعراء، فلقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية، ولم تعد الإمارة تضفى على صاحبها منزلة محترمة. هذا إلى أن شوقى أكبر من أن يمجد بهذا اللقب. وقد جارى فحول الشعراء المتقدمين، ويذهم فى كثير من قصائده، وجدد بعض التجديد فى الشعر العربى بما اقتبسه عن شعراء

الغـرب، ومـن الثقافـة الأوروبيـة. وفـى قصـائده يسـطع نـور الوطنيـة، ويتـأجج لهيبـها. وهـو أغـزر الشـعراء مـادة وأوسـعهم إنتاجا فـى هـذه الناحية. الوطنيـة فـى شـعره هـى فيـض الفطـرة والإلـهام، وليـس مـن صنـع الظـروف أو التكلـف، ولذلـك جـاءت قويـة جارفـة، عميقـة رائعـة".

ويعـرض الكتـاب لمختـارات مـن قصـائد المـترجم لـه مثـل "كبـار الحـوادث فـى وادى النيـل - ذكـرى دنشـواى - رثـاء مصطفـى كـامل - رثـاء محمـد فريـد - ثـورة ١٩١٩ - وحـدة وادى النيـل - مشـروع ملـنر - الدعـوة للتضحيـة ومهاجمـة الاسـتعمار - الدسـتور - الدعـوة للنهضـة الاقتصاديـة".

ومن أبيات قصيدتـه فى أبـى الـهول:

أبا الـهول طـال عليـك العصـــر

وبلغـت فـى الأرض أقصـى العمـر

فيا لـدة الدهـر لا الدهـر شبـــ

ـب ولا أنـت جـاوزت حـد الصغـر

إلام ركوبـك متـن الرمـــــا

ل لطـى الأصيـل وجـوب السحـر

تسـافر منتقـلا فـى القـــرو

ن فأيـان تلقـى غبـار السفـــر؟

إن الدكتـور شـوقى ضيـف يكتـب عـن شـوقى قـائلا "وعـاد شـوقى إلـى وطنـه فوجـد أرضـه مخضبـة بدمـاء الحركـة الوطنيـة

الزكية، ووجد كل شيء فيه يتحول ويتغير. ولا ندرى هل فكر فى العودة إلى القصر؟ ولكن المؤكد أن أبواب القصر لم تفتح له، فظل بعيداً مع الشعب، يعيش فى حياته الجديدة. فلتفرحى ربة الشعر، ولتدقى البشائر، فإن طائرك لن يعود رهين محبسه القديم، ولا رهين ذهب إسماعيل وأبنائه، فقد أخذ يرفرف حراً طليقاً فى الفضاء، وأخذت أجنحته تلمع فيها ألوان الطيف، وهى ألوان لم تكن تستمد من القصر وأميره ولا من حياته الأرستقراطية القديمة، وإنما كانت تستمد من دماء الشعب التى سفحها راضياً فى الحركة الوطنية المباركة سنة ١٩١٩ ومن آماله وآلامه. وأيضاً من آمال الشعوب العربية جميعاً وآلامها. وأصبح شوقى إلى حد ما ديمقراطياً يعيش مع شعبه والشعوب العربية". [١١]

والشخصية السادسة المترجم لها هى "حافظ إبراهيم" (١٨٧٢-١٩٣٢) ويقدمه عبد الرحمن الرافعى بقوله: "هو صنو شوقى فى إحياء دولة الشعر، ولئن تميز عنه شوقى بالزعامة، فإن حافظاً يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية، فكان أقرب إلى روح الشعب ومشاعره، وأقدر على تصوير آلامه التى شاركه فيها، وتغنى بمصر والنيل فى قصائده الغر. ولعل بقاءه فى السودان عدة سنين، ومشاهدته غدر الإنجليز هناك، وتدابيرهم فى تحقيق أغراضهم الاستعمارية، قد زاده سخطاً على الاستعمار واستمساكاً بوحدة وادى النيل. وتجلت هذه المواهب فى شعره فى شتى المناسبات حتى سمى بحق "شاعر النيل".

وهو إلى جانب ذلك شاعر الوطنية والاجتماع والأخلاق. وعاصر حافظ مصطفى كامل، وكان صديقا له معجبا بجهاده، رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين. وكان مصطفى كامل شديد الإعجاب بشعره وأدبه".

وقد استعرض الرافعي مجموعة من قصائد حافظ في مختلف المجالات الوطنية والاجتماعية وهي "ملجأ الحرية - حادثة دنشواي - شكوى مصر من الاحتلال - استقالة اللورد كرومر - استقبال السير جورست - رثاء مصطفى كامل - تحية العام الهجري - مسألة قناة السويس - رثاء محمد فريد - مصر تتحدث عن نفسها".

ومن قوله عن مظاهرة السيدات الأولى في ١٦ مارس سنة ١٩١٩ احتجاجا على فظائع الإنجليز في قمع الثورة الشعبية:

خرج الغواني يحتججن
ورحت أرقب جمعهنه
فإذا بهن تخذن من
سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب
يسطعن في وسط الدجنة

وقد أشاد الكثيرون بحافظ، ومن هؤلاء طه حسين وأحمد أمين وروفائيل مسيحة. يقول الأول عنه: "ولما

كانت نفس حافظ فى جوهرها نفسا مصرية كانت قطعة من هذه النفس المصرية الإسلامية، التى تجد بساطتها وسذاجتها فى كل أثر من آثار المصريين المسلمين، فلم لا يحبها الناس وإنما يرون فيها أنفسهم؟ ولم لا يعجب بها الناس وإنما ينظرون فيها إلى صورهم، تعكسها مرآة صافية وضيئة نقية لا يشوبها صدأ ولا يغشاها غبار؟".(١٢)

أما أحمد أمين، فيكتب عن حافظ: "وكان فى شعره يقف موقف الصحافة الوطنية والخطباء الوطنيين، وقادة الرأى الاجتماعيين، يغشى مجالس كل هؤلاء، ويتشرب مع أرواحهم، ويستمد من وحيهم ويغذى عواطفه من عواطفهم، ثم يخرج ذلك كله شعراً قوياً ملتهباً، يفعلُ فى النفوس - وذلك شأن الشعر الحى - ما لا تفعله الخطب والمقالات؛ فكان حافظ - حقا - شاعر الوطنية، وشاعر الشعب، وشاعر السياسة والاجتماع، ولم يجاره أحد فى ذلك من شعراء عصره ... كان فى شعره سجل الأحداث، إنما يسجلها بدماء قلبه، وأجزاء روحه ويصوغ منها أدبا قيما يستحث النفوس، ويدفع إلى النهضة، سواء أضحك فى شعره أم بكى، وأمل أم يئس. ويتسع أفقه فى كثير من الأحيان، فينظر إلى الوحدة العربية، الوحدة الإسلامية".(١٣)

ويكتب صاحب كتاب "حافظ إبراهيم الشاعر السياسى"، "من الجلى أن مصر كانت تحتل من نفسية حافظ مكانا محمودا، وحسبنا أن نسوق إلى القارئ هذه الأبيات ليلمس من ثناياها تلك العاطفة الوطنية الملتهبة التى كانت تفخر بها روحه:

كم ذا يكابد عاشق ويلاقـــى

من حب مصر كثـــيرة العشـــاق

إنى لأحمل فى هواك صبابـــة

يا مصر قد خرجت على الأطـواق

لهفى عليك متى أراك طليقـــة

يحمى كريم حماك شعـــب راق(١٤)

وكان عبد الرحمن الرافعى من المعجبين بشاعر القطرين "خليـــل مطـــران" (١٨٧٢-١٩٤٩) فـــهو "شـــاعر الحريـــة والعروبة، حمل لواء التجديد فى الشعر، نيفا ونصف قرن من الزمان، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والفن والبلاغة والخيال. كان إنسانا فى شخصه وفى أخلاقه وفى شعره وأدبه. كان فى شعره ينشد الكمال، ويحلق فى أجواء الحرية والوطنية. وقد أرخ فى شعره الوطنى العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية، وسجل حوداثها ووقائعها، وترجم لرجالها وأشخاصها، وغذى بقصائده الروح الوطنية جيلا بعد جيل. كان بينه وبين الزعيم مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر، كان مؤيدا لدعوته نصيرا لرسالته، دافع عنها فى حياة مصطفى، وظل وفيا بعد وفاته".

ومن القصائد التى اختار الرافعى منها بعض أبياتها: النهضة العربية - حق الوطن وحق الإخاء - الثبات فى الكفاح - تحية بعثة الأطباء المصريين إلى حرب طرابلس سنة ١٩١١ - رثاء محمد فريد - رثاء أمين الرافعى.

وقد صاغ مطران قصيدة وطنية سنة ١٩٢٠ عاتب فيها شباب مصر لترددهم فى العمل الوطنى ومناهضة الاحتلال .. بقوله:

أن تكونوا حماتها وبنيهـا

ما لتلك الذئاب تعتس فيهـا؟

أفترضون أن تهون عتيـدا

بعد ذاك الإباء فى ماضيهـا؟

تلك أوطانكم تباع عليكـم

صفقة بخسة فمن مشتريهـا؟

ومن الدارسين الذين كتبوا عن شاعر القطرين خليل مطران طاهر الطناحى الذى يقول عنه: "وقد نشأ خليل مطران عربيا حرا، رضع لبان الحرية من المهد، يعيش فى بلاده التى ساد فيها الفساد، واستحر فيها الظلم والاستبداد، وخرج من بيروت فى ظلام الليل، يحدوه الولاء لقومه وتحرير وطنه من فوضى الحكم التركى واستعباده، وهو يتغنى بقوله:

داعى الولاء إذا دعانـى

سمعا له فى كـل آن

ومسرة بأشق مـا

يرضى البلاد وإن شجانـى

يأبى الهوان دمى، وفـي

عز الحمى أهوى هوانـى (١٥)

أما الشاعر "أحمد محرم" (١٨٧١-١٩٤٥) فهو الشخصية الثامنة في "شعراء الوطنية" الذي يقول عنه عبدالرحمن الرافعي: "شاعر ملهم من شعراء الوطنية والأخلاق، كان أدباء الجيل يضعونه في صف شوقي وحافظ ومطران، وكان شيخ الشعراء إسماعيل صبري يتغنى بشعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم. وامتاز محرم إلى جانب مكانته الشعرية بحرارة العاطفة، وتذوقه للفن والجمال، وقوة إيمانه، وتأملاته العميقة الفلسفية، واستمساكه طوال حياته بمبادئه الوطنية، فكان شعره كله وفقاً على هذه المبادئ، لم ينحرف عنها يوماً في قصيدة أو في أي بيت من الشعر. ظل مقيماً عليها وفياً لها في السراء والضراء، فكان حقاً مثلاً أعلى في الشعر والوطنية. وكان مصطفى كامل يعجب به وبشعره، ويشيد به على صفحات (اللواء) ويسميه (نابغة البحيرة). وبقي أحمد محرم على صلته به ووفائه له ولذكراه، كما ظل وفياً لمبادئ الوطنية إلى أن توفاه الله. كان شاعراً بفطرته وسليقته، قال الشعر وهو في سن مبكرة".

واستعرض الرافعي قصائده: النيل - الدعوة إلى بعث مصر - رثاء مصطفى كامل - رثاء فريد - فلسطين الشهيدة سنة ١٩٣٨.

وهذه أبيات من قصيدته "رحلة عابسة" التي تناول فيها حال الفلاح المصري البائسة:

ويلى على فلاح مصر أما كفى

ما ذاق من عنت ومن إرهاق

يغنى ألوف المترفين بماله

ويعيش فى فقر وفى إملاق

سبحان من شرع السبيل لخلقه

أكذا يكون تفاوت الأرزاق؟

وقد عاش محرم مظلوما، ولا يكاد يقدره أحد التقدير الواجب .. يقول عنه عمر الدسوقى "بقى حتى اليوم محروما. القلم القوى الذى يعرض درره بين الناس، ويعرف بين قومه. وهو الذى آثر الفقر، والوحدة، والحرمان فى سبيل مبدئه. وكان شاعرا صاحب رسالة، وكان من أقوى الشعراء ديباجة وأنصعهم بيانا. كان عيب أحمد محرم أنه يمثل الفريق الجاد من الأمة الذى يشعر بالامها المبرحة وأدوانها المستعصية، وكان صاحب مثل أعلى فى أمة هازلة تطرب للعبث، ويفتنها زبرج الحضارة الغربية ليفتننا عن أهدافنا القومية. كان شاعر مصر سياسيا واجتماعيا، وكان شاعر العروبة والإسلام، متعدد النواحى الأدبية، ومع ذلك كان عاثر الجد فى حياته".[١٦]

ومن شعراء الحزب الوطنى أيضا "أحمد نسيم" (١٨٨٠-١٩٣٨) الذى يقدمه الرافعى بقوله: "شاعر مبدع، من أعلام الشعر الوطنى، يمتاز بجزالة الأسلوب، وتدفق المعانى والأحاسيس الوطنية فى قصائده. لا يقل شعره رواء

وحسن ديباجة عن شعر شوقي وحافظ وأحمد محرم. سمى "شاعر الحزب الوطني"، ويعد نسيم ثانى الطبقة الأولى من شعراء الحزب الوطني، وأولهم أحمد محرم، وثالث الثلاثة المعاصرين أحمد الكاشف.

ويستعرض المؤلف عددا من قصائد نسيم والتى ألقاها فى مناسبات، تأييد مصطفى كامل فى قطع علاقته بالخديو عباس حلمى - مهاجمة اللورد كرومر قبل رحيله سنة ١٩٠٧ - تمجيد الشرق والحزن لحاله.

ومن المعروف أن نسيم أصدر الجزء الثانى من ديوانه سنة ١٩١٠ بعنوان "وطنيات أحمد نسيم" مهديا إياه إلى "سعادة محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى لاحتوائه القصائد الوطنية التى نظمها ما بين سنتى ١٩٠٩، ١٩١٠". وقدم كل قصيدة بما قدمته به الصحف التى نشرتها ومن ذلك قصيدته فى توديع "وفد الحزب الوطنى إلى عاصمة الإسلام، التى نشرت بجريدة "اللواء" بتاريخ ١٨ يوليو سنة ١٩٠٩ لمشاركة الأمة العثمانية النجيبة فى حفاوتها بعيد الحرية الأسنى، وقد وقف حضرة رئيس الحزب الوطنى الذى رأس هذا الوفد يتلقى من جماهير المودعين تحيتهم إلى أحرار العثمانيين وأدلة اشتراكهم معهم بقلوبهم فى إكبار عيد الحرية العثمانية العظيم" وأنشد نسيم:

قطار النوى هل وقفة قبلما تعدو

نودع وفدا ما لنا غيره وفد

أيا وفد (مصر) أنت عنوان أمـــة

به يعرف الإقدام والـــدأب والجـــد

إذا جئت أرض الفاتحين فحيهـــا

تحية مشتاق أضر بـــه البعـــد

وزوروا أمير المؤمنين وقبلـــوا

يدا فاض من هتان أنملـــها السعـــد

وقولوا له إنا وفود معاشـــر

إذا احتدمت نار الوغى كلهم جنـــد[١٧]

ويكتب محمد عبد الغنى حسن عن الشاعر: "على الرغم من الأصول التركية لأحمد نسيم، نرى أن مصر قد صهرته كما صهرت كثيرين غيره من الشعراء والأدباء الذين ولدوا فيها من أصول غير عربية. وقد جمع شاعرنا بين حبه لمصر وطنه الصغير، وحبه للشرق ذلك الوطن الكبير، فلم يدع مناسبة تمر إلا أشاد بأمجاد مصر والشرق. ولم يقس فى عتابه على أهل مصر والشرق إلا ليوقظهم من سباتهم، ويحرك من هممهم حتى يستعيدوا تلك الأمجاد الضائعة".[١٨]

ويقدم عبد الرحمن الرافعى الشاعر العاشر، وهو "أحمد الكاشف" (١٨٧٨-١٩٤٨) بقوله: "من الرعيل الأول من شعراء الوطنية، مالت نفسه منذ صباه إلى الشعر والأدب، وكان الشعر طبيعة له وسليقة، فعكف على المطالعة وأكب على كتب الأدب ودواوين الشعراء المتقدمين يدرسها ويستوعبها

فحاكاهم فى الأسلوب والبلاغة. واتجهت نفسه إلى نظم الشعر فى المعانى الوطنية، فجادت قريحته بشعر وطنى من الطراز الرفيع، ووقف حياته على هذا اللون من الشعر".

ويتفق عمر الدسوقى مع هذا القول فيما كتبه عن الكاشف وهو يقول: "وقف نفسه على الشعر السياسى، وكان دون محرم فى اتساع أغراضه. إذ وقف نفسه على لون واحد من الشعر .. يمدح الترك حين كان مدحهم دينا، أو سياسة. ويشن الغارة الشعواء على الإنجليز فى عهد كرومر، وغورست، وكتشنر. ويمدح عباسا، وحسينا، ويؤيد الثورة بكل قوة حيث اضطرمت فى أرجاء البلاد". (١٩)

ومن قصائد الكاشف التى اختار له الرافعى بعض أبياتها: الجندى فى المعركة - اتفاقية السودان - الفلاح المصرى - الحق للقوة - قريتى. ومن قصيدة نظمها سنة ١٩٢٥ يدعو فيها الأحزاب لنبذ الخصام والوحدة من أجل مصر قوله:

تنازع قومى اليوم جندا وقادة
فلم أر إلا سالبا وسليبا
مبادىء أحزاب أرى أم منافعا
توالت صنوفا بينهم وضروبا؟
تقضت حروب العالمين ولم أزل
أرى بين أبناء البلاد حروبا

بقومـي علـى قومـي استـعان غريبـهم

فصـال شـمالا واسـتطال جنوبـا

ويعـرض الرافعـى للشـاعر "محمـد عبـد المطلـب" (١٨٧٠-١٩٣١) قـائلا: "هـو الشـاعر البـدوى البليـغ، والمجـاهد الوطنـي الصميـم. تخـرج مـن دار العلـوم، وتولـى التدريـس فـي مـدارس الحكومـة. ونضـج علمـه، واكتمـل شـعره وأدبـه، فصـار مـن فطـاحل الشـعراء الذيـن يشـار إليـهم بالبنـان. ولمـا شـبت ثـورة سـنة ١٩١٩ سـاهم فيـها بشـعره وأدبـه وجـهاده، وخلـد حوادثـها بقصـائده الغـر".

ومـن أشـهر قصـائده: مصـر أثنـاء الحـرب الأولـى - إعـلان الحمايـة - حضـارة مصـر - الوحـدة بيـن عنصـرى الأمـة - وثبـة مصـر.

ومـن قصيدتـه التـي وجهـها إلـى المارشـال اللنبـى الـذى أوفدتـه إنجلـترا لقمـع الثـورة سـنة ١٩١٩، منـددا بالفظـائع الإنجليزيـة فـى إخمادهـا .. قولـه:

أيـها القـائد المـدل علينـــــا

قـاتل اللـه مـــن علينـــا أدلا

صلـف بيـن أهـل مصـر وعجـــب

كـان هـذا بـأرض (بلجيـك) أولـى

صلـف جـد فـى مواطـن هـــزل

فـإذا جـد جدهـــا عـاد هـــزلا

علم الناس أن مصر بلاد

لم تكن للحروب والسيف قبلا

منعتها الأيام حمل المواضي

وهي زين السيوف هزا وحملا

ويقول عباس محمود العقاد عن الشيخ عبد المطلب: ".. لما شاعت النهضة فى الشرق كله شاع معها الأسف بين المسلمين على ما أصابهم من الضعف والهزيمة بعد القوة والسيادة، ثم شاع بينهم اليقين بأن لا موئل، ولا أمل فى تجديد سلطانهم ومنعتهم إلا بالرجوع إلى الإسلام فى أيامه الأولى: أيام الجد والغلبة والفطرة السليمة من البدع والمحدثات وعوارض العصور الأخيرة وفضول الأعاجم والمتقدمين بهم من المستعمرين والعرب المستعجمين. فأصبح كل حديث متخلف عنوانا للترف الزائف والعقيدة المدخولة والعربية المشوبة، وأصبح كل قديم قريبا من الإسلام فى صدره الأول عنوانا للصحة والمتانة وعصمة من الضعف والركاكة. وعاد طلاب المعارف الدينية واللغة القومية إلى ما كان عليه خلفاء الدولة الأموية والعباسية حيث كانوا يطلبون لأبنائهم الفصاحة فى البادية، ويقرنون بين سلامة لغة القرآن وسلامة العربية على حال البداوة. حتى رأينا من غلاة هذا المذهب فى الجيل الماضى من كان يسخر بالمعرى وأبناء عصره ويرجع باللغة النقية والفصاحة الشعرية، إلى ما قبل ذلك بعصور. ومن هذه الوجهة سقطت

المحسنات اللفظية والبدع المتأخرة عند أناس لم يسقطوها من وجهة الذوق الأدبى والملكة الفنية. ولا كان ميسرا لهم أن يسقطوها من وجهة الذوق والفن لو اعتمدوا عليهما دون الاعتماد على الغير الدينية والنعرة البدوية. وليس بين شعراء هذه الفئة من يمثلها ويستغرق فيها كما مثلها واستغرق فيها الشيخ محمد عبد المطلب الشاعر المتبدى فى لفظه وأغراض كلامه، لأنه سلك إلى هذا المذهب من طريقين: طريق الأصل العربى وطريق النشأة الدينية، فلم يكن له متصرف عن مذهب البداوة إلى مذهب غيره".[٢٠]

أما المترجم له الثانى عشر .. فهو الطبيب "أحمد زكى أبو شادى" (١٨٩٢-١٩٥٥) حيث يعتبره الرافعى "الشاعر المجدد، والأديب الحر الفكر، شعره رقيق ممتع، يمجد الوطنية، وينزع إلى الحرية والتجديد والخروج على الأساليب القديمة".

ويقول الشاعر أحمد محرم عن أحمد زكى أبو شادى: "الدكتور زكى أبو شادى من أكبر أعلام هذه النهضة الأدبية الجديدة، فهو يغذيها بنشاط عجيب، ويسير فى طليعتها بإقدام نادر، وشجاعة لا مثيل لها. وهى تستأثر بقسم كبير من حياته الموزعة على مجموعة غير قليلة من الأعمال والشئون. وتتحكم فى جانب عظيم من قوته التى تتناهبها عوامل شتى وشواغل كثيرة. وهذه مؤلفاته الكثيرة العدد المختلفة المواضع تحدثنا بأفصح لغة وأوضح بيان، عن تلك القريحة الخصبة وذلك الشعور الأدبى الفياض اللذين يلقيان

فـى نفسـه الدائمـة الـهبوب والاشـتعال، ويتعاونـان علـى تأديـة أغراضـه وبـث أفكـاره". [٢١]

ومـن ضمـن دواوينـه العديـدة، اختـار الرافعـى بضـع قصـائد هـى: مفخـرة رشـيد - المجـاهد الجريـح - القلـب البـاكى - نـداء الحريـة - أقصـى الظنـون - لمـاذا ارتحلـت؟

ويقـول أبـو شـادى فـى قصيدتـه التـى أنشـدها فـى المـهجر بنيويورك عـن حنينـه إلـى مصـر:

لا تنـهروا روحـى لفـرط ولوعهـا

دمعى الـذى تـأبون بعـض مودعـها

ألقـت بـى الأحـداث دون ربوعهـا

وأظل أحيـا فـى صميـم ربوعهـا

تثـب الـرؤى حولـى بأنفـاس الربـى

ونوافـح الغـدران حـول ربيعهـا

وتـهزنى الذكـرى فأشـرق بالأسـى

والذكريـات وهوبـها كمنوعهـا

وفـى دراسـة الدكتـور محمـد عبـد المنعـم خفـاجى لوطنيـة شـاعرنا الكبـير يقـول عنـه: "أمـا وطنيـة أبـى شـادى وحبـه للبـلاد، فتتجلـى فـى أروع الصـور فـى شـعره وكتاباتـه وأحاديثـه ومحاضراتـه ومؤلفاتـه مـن بـدء شـبابه حتـى اليـوم. ولقـد نـوه الأسـتاذ محمـد رضـوان أحمـد فـى كتابـه "فـى جنـة الفـردوس" بوطنيـة أبـى شـادى وبشـعره فيـها وفـى الأخـلاق والإصـلاح

والنقد الاجتماعى تنويها محمودا .. وأذكر دليلا واضحا على وطنية أبى شادى. هو أنه لما قامت الحرب العالمية الأولى، وكان الشاعر آنذاك يدرس فى إنجلترا، أخذ يدعو لحرية مصر، ويؤيد القضية المصرية. فراقبته الشرطة هناك. وانتهى الأمر بتقييد اسمه فى سجل المذنبين السياسيين فى اسكوتلنديارد بعد تحقيق طويل معه، وأنذر بالطرد من إنجلترا، لولا تدخل أصدقائه وعارفيه" [٢٢]

وفى كتاب آخر عن نفس الشاعر يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى المقدمة "ويتنوع شعر أبى شادى إلى ألوان عديدة، من الغزلى والوجدانى ووصف الطبيعة والشعر الصوفى أو الفلسفى، والشعر الوطنى التقدمى. وكل هذه الألوان طاقة شعرية خصبة، واستجابة ذاتية للنزعة الحديثة فى التفكير. وهو أول من نظم الشعر التمثيلى فى اللغة العربية وكان يحبذ الشعر الحر والمرسل، وينظم منهما بعض قصائده". [٢٣]

ومن الشعراء المشهورين حتى الثلاثينيات ولا يكاد اسمهم اليوم يطرق الأسماع، الشاعر "عبد الحليم المصرى" (١٨٨٧-١٩٢٢) الذى يكتب عنه الرافعى: "تعشق الشعر والحرية منذ صباه، فجاء بقصائد رقيقة فى التغنى بالوطنية والحرية، وظل يغرد بالشعر ويتغنى به إلى أن توفى فى يولية سنة ١٩٢٢، وكان حين وفاته فى ريعان الشباب، فكان لوفاته وقع أليم فى النفوس. وكانت له فى الشعر مكانة ممتازة".

ومـن قصـائده التـى أشـار إليـها الرافعـى: "فجـر الأمـل - تكريـم الشـيخ عبـد العزيـز جـاويش - أسـود النيـل".

ويقـول فـى إحداهـا مطالبـا الخديـو عبـاس حلمـى الثـانى بمنـح مصـر الدسـتور:

رد الوديعـة لا مـالا ولا شانـــــا

لـم نرج فـى جـانب الدسـتور إحسـانا

لولا ولاؤك لـم نبسـط إليـك يـــدا

مـن الرجـاء ولـم نسـألك غفرانـــــا

ويتـابع عبـد الرحمـن الرافعـى شـريط الشـعراء الوطنييـن، فيقـدم الدكتـور "عزيـز عبـد السـلام فـهمى" المحـامى الوفـدى (١٩٠٩-١٩٥٢) قـائلا: "مـــن أعـــلام الحريـــة والأدب، وأبطـــال الوطنيـة والجـهاد، كـان أديبـا وشـاعرا، وخطيبـا مفوهـا، يجمـع بيـن بلاغـة العبـارة وسلاسـة الأسـلوب، وقـوة التفكـير، وغـزارة المـادة، والشـجاعة الأدبيـة. كـان يدافـع عـن الحريـة بقلمـه ولسـانه علـى صفحـات الجرائـد، وبلسـانه فـوق المنـابر، وسـاحات القضـاء، وتحـت قبـة البرلمـان. كـانت وطنيتـه فـوق حزبيتـه وعقيدتـه أسـاس شـخصيته. كـان يـرى فـى الحيـاة السياسـية رسـالة يؤديـها، لا يبتغـى منـها لنفسـه مغنمـا ولا نفعـا، ولا يقصـد إلا وجـه الله والوطـن".

ومـن قصـائده التـى اختارهـا: "أسـلمى يـا مصـر - لحـن المـوت - يـا قـارئ الكـف - الضمـير".

وكان عزيز شابا يفيض حيوية وثورية دائما، يشارك دائما فى الأحداث التى تلم بوطنه ويتعرض بسببها للسجن. يشير الدكتور طه حسين الذى كتب مقدمة "ديوان عزيز". عن تلميذه القريب إليه عزيز فهمى قائلا: "وكنت لا تسمعنى أقول لك إيه يا عزيز حتى ينطلق لسانك بالحديث عذبا كأنه العين الصافية ينساب منها الماء بين الخمائل والرياض، أو ينطلق لسانك بالحديث كأنه البركان يقذف الحمم ويوشك أن يحرق من حوله كل شىء. ما أكثر ما كنت أقول لك حينئذ: على رسلك يا بنى فإنك إنما تتحدث إلى الأستاذ الصديق لا إلى المستعمرين ولا إلى الظالمين".[٢٤]

يقول شاعرنا فى يونية سنة ١٩٤٦ إبان اعتقاله بسجن الأجانب:

كفاك عزاء أنك اليوم أوحد

وقد يسكن الغمد الحسام المجرد

يهون عذاب السجن والليل موحش

ويذهب عنك الحزن فيه تجلد

وقد يأسر الليث المنيع عرينه

ويرهب منه الصوت وهو مصفد

أهبت بقومى أن يذودوا عن الحمى

ومازلت أدعوهم ومازلت أشهد

أهبت بقومى والخطوب زواحف

تلم بهم طورا وطورا تهدد

وأنـذرت حتـى بـح صوتـى ولــــم أزل

ومصـر تناديـهم وصوتـــى يــــردد

ويختتـم عبـد الرحمـن الرافعـى كتابـه بشـاعر وطنـى اتخـذت السـلطات المصريـة فـى ظـل الاحتـلال البريطـانى مـن كتاباتـه سـنة ١٩١٠ سـبيلا إلـى ضـرب الحركـة الوطنيـة فـى البـلاد، وأثـارت قلـق الـرأى العـام المصـرى. فعندمـا أصـدر الشـاعر علـى الغايـاتي ديوانـه "وطنيتـى" متضمنـا مقدمتيـن الأولـى لمحمـد فريـد رئيس الحزب الوطنى. والثانية بقلـم عبـد العزيـز جـاويش الكـاتب السياسـى الذائـع الصيـت، قـدم الثلاثـة للمحاكمـة بتهمـة التحريـض والعيـب فـى الـذات الملكيـة. فحكـم علـى الأول بعـام واسـتطاع الـهرب قبـل صـدوره، وحكـم علـى الآخريـن بسـتة شـهور قاما بتنفيذهـا.

ومـن القصـائد التـى حوكـم عليـها الغايـاتي .. طيـف الوطنيـة، والتـى اختارهـا الرافعـى .. قـول الأول:

وعـداة ملكوا الأمـر ولـــــم

يحفظـوا للشعـب فـى حـق ذمامــــا

وولاة أقسـموا أن يسجـــدوا

كلمـا رام العـــدا منـهم مرامـــــا

رب مـاذا يصنـع المصـــرى إن

جـاوز الصبر مـدى الصدر فقامـــا

طال يوم الظلم فى مصر ولم

ندر بعد اليوم للعدل مقاما

هل يرى المحتل أنا أمة

مذ عرفنا السلم لا ندرى الخصاما

وقال منددا بحكم الخديو عباس الثانى عقب خلافه مع الحزب الوطنى:

أعباس هذا آخر العهد بيننا

فلا تخش منا بعد ذاك عتابا

أيرضيك فينا أن نكون أذلة

ننال إذا رمنا الحياة عقابا

ونيئس من آمالنا فيك كلما

قضيت علينا أن نكون غضابا

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش فى مقدمته لديوان "وطنيتى" للشاعر، والتى من أجلها حوكم الشيخ كما أشرنا .. "وماذا على الشاعر بعد أن يوفى شعره قسطه من الصدق وثاقب الرأى سوى أن يجيد تأليف العبارات ويحكم مطابقة المعانى بعضها ببعض. فإنما الشعر كالتوقيع واللحن، فكما أن اللحن لا يخف على السمع إلا إذا تناسبت الأجزاء التى يتألف منها، كذلك الشعر إذا لم تأتلف عباراته ولم تتناسب معانيه، كان صمما للآذان. وغمة لنفس الإنسان. ومن شاء أن يرى نموذجا من الشعر جمع بين رقة

الألفاظ وجزالة المعانى وألف بين أحكام التأليف وصدق العبارة فليقرأ شيئا من (وطنيتى) ومن شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة، والنفوس المتوقدة. والعزائم الصادقة فإنها من غراسها وجميل ثمارها".[٢٥]

ويكتب كامل الشناوى عن "شعراء الوطنية": قرأت اليوم آخر كتاب للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى وهو كتاب شعراء الوطنية. وقد استرعى انتباهى أن يخلو الكتاب من اسم شاعر حر هو ولى الدين يكن الذى قضى حياته منفيا مشردا، مكافحا ضد طغيان السلطان عبد الحميد. ولما استقر به المقام فى مصر، أمضى البقية الباقية من حياته مريضا، ثم مات ضحية الأمراض التى عاناها فى النفى والسجن. وكان ولى الدين يكن إلى جانب دفاعه عن حريته السياسية، مناضلا فى رفع راية الحرية الفكرية، وقد كان نزاعا إلى التجديد فى الشعر. وكان أسلوبه فى الكتابة أسلوبا قويا يمتاز بالنبض والحرارة والقوة والسهولة. وهو بلاشك يعد فى طليعة المجددين فى الأدب العربى. واسترعى انتباهى أيضا أن يخلو الكتاب من اسم المرحوم مصطفى صادق الرافعى صاحب نشيد "أسلمى يا مصر إننى الفدى". واسم الشاعر الكبير عباس محمود العقاد صاحب النشيد القومى وفيه يقول: "إن رفعنا الرءوس فليكن ما يكون. ولتعيش يا وطن".

واسترعى انتباهى كذلك ألا تجىء إشارة إلى الشاعر مصطفى لطفى المنفلوطى الذى خاطب الخديو عباس عقب عودته من الحج فقال:

قـدوم ولكـن لا أقـول سـعيد

وملـك وأن طـال المـدى سيبيـــد

وقـد حكـم علـى مصطفـى لطفـى المنفلوطـى بالسـجن سـتة أشـهر. وصحـت نبـوءة المنفلوطـى فبـاد ملـك عبـاس. وبـادت أسرة محمـد على برمتـها! ولـم أجـد فـى الديـوان بيتـا واحـدا مـن الشـعر الوطنـى الحديـث. ولسـت أدرى كيـف نذكـر الشـعر الوطنـى دون أن نذكـر مثـل هـذه الأبيـات التـى قيلـت فـى معركـة القنـال ..

أنـا إن سـقطت فخـذ مكـاني. يـا رفيقـى فـى الكفـاح

واحمـل سـلاحى .. لا يرعـك دمـى يسـيل مـن السـلاح

وانظـر إلـى شـفتى أطبقتـا علـى هـوج الريـــاح.

وانظـر إلـى عينـى أطبقتـا علـى نـور الصبـــاح ..

إن لـم أمـت .. أنـا لـم أزل أدعـوك مـن خلـف الجـراح!

ويحضرنـــى الآن عشـــرات الأمثلـــة مـــن الشـــعر الوطنـــى الحديـث، وهـو شـعر يعـد مـن الناحيـة الفنيـة أقـوى مـن شـعر كثـيرين عنـى الأسـتاذ الرافعـى بسـرد أشـعارهم وتـاريخ حياتـهم". (٢٦)

المراجع

١- مخطـوط.

٢- محمـد صـادق عنـبر: ذكـرى أميـن الرافعـى ط١ ص٣١٦.

٣- دكتـور أحمـد أحمـد بـدوى: مـهرجان رفاعـة رافـع الطـهطاوى ط١ ص١٣٤.

٤- دكتـور طـه وادى: ديـوان رفاعـة الطـهطاوى ط١ ص٦١.

٥- عمـر الدسـوقى: فـى الأدب الحديـث ط٢ ص٢٧٣.

٦- دكتـور محمـد عبـد المنعـم خفـاجى: قصـة الأدب فـى مصـر ج٤ ط١ ص١٣٠.

٧- جرجـى زيـدان: بنـاة النهضـة العربيـة - كتـاب الـهلال مـارس ١٩٥٧ ص١٤٤.

٨- دكتـور علـى محمـد الحديـدى: محمـود سـامى البـارودى - أعـلام العـرب مـايو ١٩٦٧ ص٧٨.

٩- دكتـور طـه حسـين: ديـوان إسـماعيل صـبرى ط١ ص١٣.

١٠- دكتـور محمـد حسـين هيكـل: تراجـم مصريـة وعربيـة ط١ ص١٧٩.

١١- دكتـور شـوقى ضيـف: شـوقى شـاعر العصـر الحديـث ط٢ ص٣٧.

١٢- دكتـور طـه حسـين: حـافظ وشـوقى ط٣ ص١٩٨.

١٣- أحمـد أميـن: مقدمـة ديـوان حـافظ إبراهيـم (١٧-٢-١٩٣٧) ط١ ج١ ص ص ٢٨، ٣١.

١٤- رفـائيل مسـيحة: حـافظ إبراهيـم الشـاعر السياسـى ط١ ص٨.

١٥- طـاهر الطنـاحي: حيـاة مطـران ط١ ص٥٦.
١٦- عمـر الدسـوقي: فـى الأدب الحديـث ج٢ ط١ ص١٥٠.
١٧- أحمـد نسـيم: وطنيـات أحمـد نسـيم ج٢ ط١ ص٢٤.
١٨- محمـد عبـد الغنى حسـن: خمسـة مـن شعراء الوطنيـة ج٢ ط١ ص٨٢.
١٩- عمـر الدسـوقي: فـى الأدب الحديـث ج٢ ط١ ص١٥١.
٢٠- عبـاس محمـود العقـاد: شـعراء مصـر وبيئاتـهم فـى الجيـل المـاضى ط١ ص٤٣، ٤٤.
٢١- أحمـد محـرم: ديـوان الشـعلة ط١ ص١٤.
٢٢- دكتـور محمـد عبـد المنعـم خفـاجى: رائـد الشـعر الحديـث ط١ ص٩٠.
٢٣- دكتـور أحمـد زكـى أبـو شـادى: أبـو شـادى فـى المـهجر ط١ ص٦.
٢٤- دكتـور عزيـز فـهمى: ديـوان عزيـز ط١ ص٦.
٢٥- علـى الغايـاتى: وطنيتـى ط٢ ص١٨.
٢٦- كـامل الشـناوى: زعمـاء وفنـانون وأدبـاء ط١ ص١٨٤

مؤلفاته

من حسن حظ التاريخ المصرى، أن مؤرخه الكبير عبدالرحمن الرافعى، لم يتمكن من دخول انتخابات سنة ١٩٢٦، وكان الحضور البرلمانى يشكل عند الرافعى العمل السياسى الحقيقى. ولذلك حاول أن يملأ الفراغ بشىء آخر مفيد .. وهو الكتابة التاريخية التى يحبها. وتفصيل ذلك أنه بعد استقالة وزارة سعد زغلول الأولى فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ وحل مجلس النواب فى يوم اجتماعه الأول ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ - ثمانية أشهر وتآلفت جميع الأحزاب. وتم توزيع الدوائر على أن تجرى الانتخابات فى مايو سنة ١٩٢٦. وكان الرافعى يظن أنه سيخصص له دائرة مركز المنصورة وتغلق عليه، ولكن الوفد رفض. وصدم الرافعى بذلك صدمة كبرى.

وبعد أن مرت هذه الأزمة بسلام، وجد الرافعى أن الفراغ الكبير الذى كان يملأ بالعمل السياسى وعضوية مجلس النواب، وحمد الله أن عدم دخوله المعترك البرلمانى، لم يصبه بمثل ما أصاب غيره من الحزب الوطنى فماتوا حزنا!

ففكر فى أن يتجه اتجاها وطنيا آخر يتفق مع منهجه فى الحياة، ويستكمل، ما بدأ بتدوين الأحداث السياسية المعاصرة منذ سنة ١٩١٤. وفعل. ويشير الرافعى فى "مذكراتى" عن هذه النقلة الكبيرة: "أحببت التاريخ منذ صباى، وكنت ولا أزال أراه مدرسة لتقويم أخلاق الشعب والنهوض بتربيته السياسية والقومية، وزاد تعلقى به أنى رأيت فيه على ضوء التجارب وسيلة ناجعة لتثقيف العقول ورفع مستوى الوطنية والوعى القومى فى النفوس. فلقد تكشف لى مع الزمن نقائص كثيرة فى مجتمعنا، وفى أخلاقنا، وثقافتنا. لمحت على تعاقب الحوادث ضعفا فى مستوانا الوطنى، ونقصا فى وعينا القومى، فكرت فى الوسائل لعلاج هذا الضعف وتدارك هذا النقص، فوجدت أن التاريخ وسيلة تلجأ إليها أرقى الأمم لتربية الأخلاق وتثقيف العقول وغرس روح الوطنية فى النفوس، ومن هنا جاء تعلقى بالتاريخ، أردت أن أجعل منه مدرسة للنهوض بالمجتمع.

"عنيت من التاريخ أكثر ما عنيت بتاريخنا القومى. وأقصد به تاريخ مصر كوطن، وتاريخها كأمة لها أهداف عليا تنشدها. فهو يتناول تاريخها السياسى، وتاريخها الحربى، وتاريخها الاقتصادى، وتاريخها الاجتماعى والثقافى. وأيقنت أن من واجبنا أن نعلم الشعب بمختلف طبقاته تاريخ بلاده فى هذه النواحى، وأن نبدأ بتعليم أنفسنا، أى بتعليم الطبقة المثقفة والممتازة تاريخنا القومى، لأنى أرى مع الأسف أن هذه الطبقة حتى التى بيدها مصاير

البلاد لا يعرف كثير من أفرادها من هذا التاريخ إلا قشورا سطحية لا تصل إلى اللباب. وهذا النقص هو من أسباب تبلبل الأفكار وارتجال الآراء، وتأخر الوعي القومي عندنا. فعلينا أن نعلم الشعب تاريخ بلاده. وبذلك يقدرها حق قدرها ويزداد تعلقا بها ويفهمها حق الفهم في ماضيها وحاضرها ومستقبلها". (ط١ ص٦١).

وتصديقا لرأى عبد الرحمن الرافعى فى جهل حكامنا بتاريخنا، نطالع اعتراف صادق وجرىء، لأحد أقطاب السياسة المصرية الذين لعبوا دورا كبيرا فى مقدرات مصر فى بداية القرن العشرين. يقول إسماعيل صدقى باشا فى مذكراته التى نشرها سنة ١٩٥٠ وهو فى الخامسة والسبعين من عمره، عندما استرجع ذكرياته عن مفاوضاته مع بيفن وزير الخارجية البريطانية فى لندن فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ والتى لم تكلل بالنجاح، حين تطرق إلى مسألة السودان:

"وأستميح القارئ بمناسبة التكلم عن التاريخ أن أقول له كم أنا آسف إذا أغفلت فى ذلك الحين مستندا له قيمة بشأن إثبات حقوقنا فى السودان، وذلك جهلا منى إذ ذاك بوجوده! فقد أرشدني الأخصائيون منذ أسبوعين فقط أثناء زيارة جديدة قمت بها لذلك الأثر الرائع المعلن عما بلغته مصر من عظمة ومن مجد وما أحرزته من إتقان فى الفن، وأقصد به أثر الكرنك، أقول إنهم أرشدونى إلى واجهة المعبد الخاص بتحتمس الثالث فى داخل المعبد الكبير. وإذا بالنقوش التى تعلو الواجهة المذكورة تمثل الملك

الفاتح ومن حوله الرموز التى تشير إلى فتوحاته، وإذا جانب كبير من هذه الرموز يتعلق بالمقاطعات السودانية التى ضمت فى عهده إلى الإمبراطورية المصرية، وهى تمتد من الجنوب إلى خط الاستواء! أليس هذا المستند الذى يرجع إلى بضعة آلاف من السنوات، مما لم تفز به دولة أخرى غير مصر فى صدد الدفاع عن حقها أمام شره الطامعين؟!"[١]

ومع تفرغ الرافعى أو يكاد لكتابة التاريخ، إلا أنه عانى كثيرا كما كتب أكثر من مرة. فى سبيل طبع مؤلفاته. هذه المعاناة التى كادت تثنيه، إلا أنه واصل المسيرة ويقول: "إنى أعترف بأن كتبى لم تقابل فى السنين الأولى مقابلة حسنة، ولولا ما وهبنى الله من الصبر والاحتمال، لوقفت عند الجزء الأول أو الثانى، أو على الأكثر عند كتاب (عصر محمد على) الذى كان فى طبعته الأولى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية.

"فبالرغم من الجهود المضنية التى بذلتها فى تأريخ الحركة القومية، وما شهد به أهل الذكر من أن هذه الكتب جمعت بين المنهج العلمى البحت والروح الوطنية، وبالرغم من حرصى الشديد على استقراء الحقائق التاريخية الثابتة، مهما كلفنى ذلك من عناء، حتى صارت هذه المجموعة والحمد لله مرجعا معتمدا، بالرغم من كل ذلك فإن هذه الكتب لم تلق الإقبال ولا أقول الرواج، الذى كنت أنتظره.

"إن إقبال المثقفين فى بلادنا على القراءة ضعيف جدا. هذه حقيقة يلزمنا أن نعترف بها، وهو أقل من إقبال المثقفين فى البلاد الأخرى، التى فى مستواها الثقافى. بل إنى أستطيع القول بأن سكان الجنوب من هذا الوادى - وأقصد إخواننا السودانيين - أكثر منا إقبالا على القراءة والمطالعة إذا تعلموا وأخذوا بنصيب ولو قليل من الثقافة. وقد حدثنى غير واحد من الأصدقاء وغير الأصدقاء أن إقبال المثقفين وأنصاف المثقفين فى السودان على قراءة كتبى أكثر منه فى مصر، واهتمامهم باستيعاب محتوياتها أكثر من استيعاب إخوانهم فى مصر. وهم - جزاهم الله خيرا - يتحدثون عن كتبى بأكثر مما يتحدث عنها سكان الشمال، وألمح فى أحاديثهم أنهم قرءوها واستوعبوا ما تحتويه، بخلاف ما رأيت من المثقفين المصريين ..

"وقد كنت أسائل نفسى أمام الكساد الذى قوبلت به الحلقات الأولى من المجموعة، واستمراره سنوات طويلة، كنت أتساءل: ألا تساوى هذه الكتب بعض القصص والروايات التى يقبل عليها الجمهور فى بلادنا؟ أو ليس التاريخ رواية واقعية مشوقة لمن يريد أن يعرف قصة بلاده ووطنه؟ ألا يستوجب حب هذا الوطن أن يعرف المواطنون قصته ومراحل حياته البعيدة والقريبة؟ إن من يحب إنسانا، سواء كان هذا الحب عائليا أو غراميا، يود أن يتعرف أخباره وأحواله وماضيه وحاضره، فهلا يستحق الوطن مثل هذا الشعور؟ ..

"انقضت السنوات والأجزاء الأولى بطيئة الحركة، وإيرادها لا يغطى مصاريفها، على أنى لم ألق بالى كثيرا إلى هذه الناحية، لأنى عددتها "تضحية" يجب أن أتحملها. ألسنا نخرج صحفا قد لا تلقى الرواج والانتشار، ومع ذلك نثابر على إخراجها مع ما يكتنفها من الخسائر حتى نعجز عن إصدارها؟ وأنا والحمد لله لم أعجز عن متابعة إصدار هذه المجموعة، فمضيت فى سبيل إخراجها حلقة بعد أخرى".[٢]

وصعوبة نشر مؤلفات الرافعى استمرت بعد وفاته أيضا، وهذا عرض سريع لمؤلفات الرافعى.

(١)

أصدر عبد الرحمن الرافعى أول كتبه "حقوق الشعب" - ٢٠٨ صفحة من القطع الكبير - فى مارس سنة ١٩١٢ ولم يعد طبعه بعدها، كتب عنه فى (مذكراتى) يقول: ".. كان لمدارس الشعب - التى أنشأها الحزب الوطنى فى القاهرة سنة ١٩٠٩ - فضل كبير على، فهى التى ألهمتنى الفكرة الأولى لتأليف كتابى "حقوق الشعب" فإن هذا الكتاب هو سلسلة دروس ومحاضرات لتفهيم الشعب حقوقه وواجباته، وكانت دروسى فى مدرسة الشعب بالخليفة نموذجا مصغرا للأسلوب الذى انتهجته فى هذا الكتاب". (ص١٦)

ويشتمل الكتاب على أربعة عشر فصلا تصور ما دار فى الاجتماعات التى عقدها مجموعة من طلاب الدقهلية خلال العطلة الصيفية مع أبناء قريتهم كل مساء لتفهيمهم الحقوق والواجبات السياسية والنظم الدستورية فى البلاد الديمقراطية. وكان أهم دعائم حقوق الشعب فى رأى الرافعى هو الحرية التى كان المواطن المصرى يفتقدها فى هذا الوقت من أوائل القرن العشرين: "الحرية الشخصية هى إطلاق الإنسان نفسه من كل قيد إلا قيد الواجب والقانون أو بعبارة أخرى هى استباحة الإنسان لنفسه كل عمل لا يمنعه الشرع المنزل من عند الله ولا يمنعه كذلك القانون الموضوع بمعرفة نواب الأمة أى الذى ارتضته الأمة قيدا لها". (ص١٦٥)

(٢)

وفى يونية سنة ١٩١٤ أصدر الرافعى كتاب "نقابات التعاون الزراعية. نظامها وتاريخها وثمراتها فى مصر وأوروبا" - ٣٤٨ صفحة من القطع الكبير - ولم يطبع ثانية أيضا. تحدث فيه عن التعاونيات فى الخارج، وهاجم فى الكتاب الحكومة لفشل جمعياتها الرسمية، ولعدم اهتمامها بالتعاون من أجل إنقاذ الفلاح المصرى من براثن الاحتلال الإنجليزى الذى أحال البلاد إلى مزرعة كبرى لمصانع لانكشير. ودعا إلى إنشاء جمعيات تعاونية زراعية فى

مختلف المجالات لخدمة الريف المصرى بالإضافة إلى جمعيات تعاونية منزلية تحت إشراف أجهزة الدولة الرقابية. وكان الرافعى يعمل أيضا على إشاعة الروح الجماعية. يقول فى كتابه: "إن استقلال الحركات التعاونية هو قوامها وأساس نجاحها وإن اعتماد المتعاونين على قواهم ومجهوداتهم هو أكبر عامل فى ارتقاء الحياة التعاونية بل هو روح تلك الحياة وبدونها يصبح التعاون جسما ميتا لا رجاء منه ولا خير فيه. فلا حاجة بنا الان إلى إطالة القول فى أن من الواجب أن تظل النقابات فى مصر حرة". (ص٣٠١)

(٣)

وفى يناير سنة ١٩٢٢ يصدر كتابه "الجمعيات الوطنية. صحيفة من تاريخ النهضات القومية فى فرنسا وأمريكا وألمانيا وبولونيا والأناضول" - فى ٣٩٢ صفحة من القطع الكبير - ولم يتكرر نشره بعد ذلك أيضا .. دعا فيها إلى المقاومة الوطنية ضد الاحتلال والسير على تجارب البلاد التى تخلصت من نير الاستعمار بعد طول جهاد. ويعد مقدمة مطولة لكتاباته القومية التى تتابعت فى ظهورها.

وكان أهم ما قدمه عبد الرحمن الرافعى فى هذا الكتاب تقديمه لبطولات الأمم المحتلة فى نضالها ضد مستعبديها ومقاومتها الفدائية فى سبيل استقلالها .. ويكتب مؤلفنا عن

تجربة الشعب البولونى فيقول: "لم يخفت صوت بولونيا فى خلال المائة والخمسين سنة التى تعاقبت عليها وهى عرضة لاعتداء الدول الثلاث الغاصبة، بل كان صوتها يرتفع جهيرا فيهز قلب الإنسانية فيخفق إعجابا بتلك الأمة التى قاومت عوامل الفناء. وحافظت على شخصيتها وسمت إلى أعلى درجات الرقى فى العلوم والآداب والأخلاق والحضارة، واحتفظت بميراثها الوطنى وآمالها القومية رغم الاضطهاد الدائم والعقبات التى تنوء بها الأمم". (ص٢٧١).

(٤)

وظهر كتيبه "رسائل وخطب ومقالات" الجزء الأول فى عام ١٩٢٣ فى ١١٩ صفحة من القطع المتوسط. لم يصدر منه أجزاء أخرى كما كان ينوى الرافعى، ولم يطبع ثانية. ويشتمل على مجموعة مقالات نشرها فى الصحف الوطنية بالإضافة إلى بعض الخطب التى ألقاها فى مناسبات قومية، وتناقش مختلف القضايا مثل: مصادرة الحرية فى مصر - إرادة الأمة وعدم احترامها - الرجعية فى مصر - تسلط الاستعمار بأقليته فى حكم مصر - تلون الموظفين بسياسة الحكومة والبعد عن الشعب - ذكرى ضرب الإسكندرية بعد أربعين عاما - عيد ١٤ يوليو ذكرى الاستيلاء على الباستيل - ماذا يجرى فى السودان - مصر بين أمم الشرق - الصراع بين الحرية والاستعباد.

يكتب فيه عن قضية تحرير الشعوب "فالواقع الذى لا ريب فيه أن كل الدلائل والمشاهدات تدعو إلى اليقين بأن الأمم الشرقية وفى طليعتها الأمة المصرية ستحقق لا محالة آمالها فى الحرية والاستقلال، ولا يمكن أن تطوى صحيفة الدور الذى يجتازه العالم الآن دون أن يتم نهوض الأمم الشرقية جمعاء وتحريرها من ربقة الاستعباد. ومهما تعددت العقبات التى يظنها دعاة اليأس حائلا دون تحقيق تلك الآمال فهى فى الواقع عقبات وقتية لا تلبث أن تتغلب عليها إرادة الشعوب". (ط١ ص١١١)

(٥)

وفى المنصورة يصدر فى ٥ يناير ١٩٢٥ كتيب "أعمالى فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ فى دور الانعقاد الأول" بلغت عدد صفحاته ١٥٠ صفحة من القطع الصغير، وزعه على أبناء دائرة مركز المنصورة عندما رغب فى إعادة ترشيح نفسه لمجلس النواب سنة ١٩٢٥، ولكنه لم يتقدم لقوة مرشح الوفد.

ويقول الرافعى فى مذكراته ".. وكان مما لجأت إليه هذه المرة أن طبعت كتابا عن (أعمالى فى مجلس النواب) أوردت فيه مجموعة أعمالى نقلا عن المضابط الرسمية وأقوال الصحف، ووزعته مجانا فى جميع بلاد الدائرة ليكون شفيعا لى فى إعادة انتخابى، وألمعت فى مقدمته إلى ما سألقاه من المحاربة فى الانتخاب .." (ص٥٥) ويعرض الكتيب ما أثاره إبان عضويته الأولى من مناقشات وقضايا.

(٦)

وفـى ينـاير سـنة ١٩٢٩ ينشـر مجلـده التـاريخى الأول عـن "تـاريخ الحركـة القوميـة وتطـور نظـام الحكـم فـى مصـر" الجـزء الأول بلغت صفحاتـه ٣٨١ صفحـة مـن القطـع الكبـير تنـاول فيـه بـدء ظـهور العـامل الوطنـى والشـعبى منـذ عـهد الممـاليك، ثـم حملـة نـابليون سـنة ١٧٩٨ والثـورات الشـعبية فـى الوجـه البحـرى والقبلـى سـنة ١٧٩٨ وصلـة نظـام الحكـم بالانقلابـات والحركـات القوميـة. وفـى المقدمـة يحـدد منهجـه التـاريخى بقولـه: ".. بـدأت - الـروح القوميـة - تظـهر فـى البـلاد أواخـر القـرن الثـامن عشـر، فـإلى هـذا العـهد يجـب أن يرجـع مبـدأ الحركـة القوميـة المصريـة. وأول دور مـن أدوارهـا هـو عصـر المقاومـة الأهليـة التـى اعـترضت الحملـة الفرنسـية فـى مصـر. فـإن هـذه المقاومـة كـانت أول شـرارة أشـعلت جـذوة الـروح القوميـة فـى نفـوس المصريـين، وهـى أول صفحـة مـن صفحـات الجـهاد الأهلـى فـى تـاريخ مصـر الحديـث. ولا تكـون دراسـة الحركـة القوميـة وافيـة إذا اقتصـرت علـى عصـر واحـد مـن عصورهـا، بـل يجـب أن يتناولـها البحـث بأجمعـها، مـن أجـل ذلـك عزمـت علـى أن أقـرن دراسـة عصـر مصطفـى كـامل بـالعصور التـى خلـت مـن قبلـه، والأدوار التـى تلـت مـن بعـده، فإنمـا هـى سلسـلة متصلـة الحلقـات مـن جـهاد الأجيـال المتعاقبـة لتحقيـق آمـال مصـر وإدراك مطمحـها الأسـمى".

(ج١ ط٤ ص٩)

ثم يصدر فى نهاية ديسمبر ١٩٢٩ الجزء الثانى من "تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر" - ٤٣٥ صفحة من القطع الكبير - دارسا الفترة التى تلت إخماد نابليون لثورة القاهرة الأولى سنة ١٧٩٨، إلى أن أعاد الديوان العمومى والديوان الخصوصى. وغزوته لسورية فى فبراير ١٧٩٩ - بعد أن حصن القاهرة عسكريا خشية ثورتها عليه فى غيابه - ورجوعه لمصر منسحبا بعد هزيمته. واهتم المؤلف بدراسة مقاومة الشعب المصرى للاحتلال الفرنسى أثناء غياب نابليون عنها، فثارت الجماهير فى القاهرة والشرقية وبقية البلاد. ويتصالح نابليون مع تركيا ويعود إلى بلاده سرا، ويخلفه كليبر ثم يتولى مينو أمر الحملة بعد اغتيال كليبر حتى يوقع اتفاقية الجلاء مع إنجلترا والدولة العثمانية فى سنة ١٨٠١. ويرحل بقواته إلى فرنسا، وتنتهى مقاليد الحكم إلى محمد على بفضل الزعماء المصريين الذين انخدعوا بمظهره.

ويعد المجلد الأول وتكملته قمة السلسلة القومية جميعها بلا مراء، لما بذل فيها من جهد رائع وممتاز لباكورة كتاباته التاريخية.

(٧)

وفى العام التالى - ١٩٣٠ - يصدر الجزء الثالث من كتاب "تاريخ الحركة القومية. عصر محمد على" - ٦١٥ صفحة من القطع الكبير - (وعندما أعيد طبعه للمرة الثانية فى سنة ١٩٤٧ عدل الرافعي واقتصر عنوان الكتاب على عصر محمد على). ويعلل المؤلف ذلك بأن حكم محمد على عصر قائم بذاته. وتتهم مقدمة الطبعة الثالثة، التى ظهرت فى ١٩٥١، الكتاب والمؤرخين الذين تناولوا هذا العصر بعد الرافعى بأنهم لم يأتوا بجديد من دراسات بعده! يقول مؤلفنا: "وقد ظهرت بعد ظهور الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧ بحوث ودراسات قيمة عن عصر محمد على، لمناسبة الذكرى المئوية لإبراهيم باشا سنة ١٩٤٨، والذكرى المئوية لمحمد على الكبير سنة ١٩٤٩، وراجعتها جميعا فلم أر فيها تعارضا مع ما كتبت، ورأيت فيها تقصيرا لبعض ما أجملت. أما الخطوط الرئيسية فهى هنا وهناك متطابقة متماثلة، وهذا ما جعلنى أحرص على أن لا أزيد شيئا على الطبعة الثانية، اللهم إلا إضافات يسيرة حرصت على إثباتها فى هامش الكتاب تحت عنوان (هامش الطبعة الثالثة). (ص٣)

وأغلب الظن أن هذا تجاهل من مؤرخنا الكبير لجهود طيبة بذلت فى هذا الجانب طوال أكثر من عشرين عاما أى بين ظهور الطبعة الأولى والثالثة. ولعلنا نفسر هذا الموقف

بإصرار الرافعى دائما على أنه كتب كل ما يمكن أن يقال ويدرس، وأنه ليس هناك دافع يجعله يعيد كتابة تاريخه من جديد. وقد ظهرت الدعوة الأخيرة أكثر من مرة فى عهد الملكية والجمهورية على السواء، ففى اللقاء الذى تم بين مؤرخنا الكبير والملك فاروق فى سنة ١٩٤٨ بناء على طلب فاروق، عرض الملك على الرافعى إعادة كتابة تاريخ مصر من جديد وأنه سيمده بوثائق جديدة لم يكتشفها المؤرخ من قبل. ولكن الرافعى لم يستجب واعتذر، ولعل مؤرخنا بذلك قد تجنب الخوض فى أزمات جديدة وهو وقتها فى سن الواحدة والخمسين عضوا بمجلس الشيوخ. والمرة الثانية التى اعتذر عن هذه المهمة كانت بعد ١٩٥٢، وكان أصحابها هم بعض أعضاء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فقد عرضوا عليه بحجة اكتشاف وثائق جديدة أيضا، وأن عهد الثورة الديمقراطية هو أكثر حرية من عهد الملكية لإعادة كتابة تاريخ مصر، ولكن الرافعى اعتذر أيضا، وترك ذلك لغيره من المؤرخين إن أرادوا.

وكتاب "محمد على" يشتمل على عرض واف لعصره وأعماله، ومن الواضح أن الرافعى أغفل تسلط مؤسس الأسرة الملكية السابقة، وأشار سريعا إلى نظام احتكاره الذى جعل البلاد واقتصادها بين أصابع الحاكم وحده يستغلها كيفما شاء. ولكن المؤلف يهاجم محمد على فى حادث مذبحة القلعة فى أول سنة ١٨٦١ ويعدها من سيئاته: "ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك، فإنا

عددنا عليهم من المساوئ التى ارتكبوها والمضار التى جلبوها على البلاد ما يغنى عن البيان، ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية. ولو أن محمد على باشا استمر فى محاربتهم وجها لوجه حتى تخلص منهم فى ميادين القتال لكان ذلك خيرا له ولسمعته، ولا يسوغ فعلته أن هذه الوسيلة كانت مألوفة فى ذلك العصر. وأن هذه المؤامرة هى صورة مكبرة لما أمر به الباب العالى سنة ١٨٠٤ من الفتك بالمماليك، إذ عهد إلى الصدر الأعظم وإلى حسين قبطان باشا أن يقضى عليهم بهذه الطريقة نفسها، فإن تكرار السيئات لا يبررها، وبالجملة فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة فى تاريخ محمد على باشا ... ومن ناحية أخرى فإن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق فى حالة الشعب النفسية، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكنا إلى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس. والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا، وهى قوام الأخلاق والفضائل القومية، فإذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان ذلك نذيرا بانحلال الحياة القومية وفسادها. فالرهبة التى استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها فى إضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية، وتلك خسارة قومية كبرى، فإنما الأمم أخلاق وفضائل. أضف إلى ذلك أن هذه

الحادثة وقعت فى الوقت الذى كانت فيه النفوس قد تطلعت إلى مراقبة ولاة الأمور ودبت فيها روح الحياة والديمقراطية. وتعددت مظاهر هذه الروح بما رأيت من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم. فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذه الروح إلى زمن طويل. وأحلت فى مكانها روح الرهبة من الحكام. ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على باشا أكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم. فلم يبد من الشعب فى خلال السبع والثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد. وغنىّ عن البيان أنه مع ما أسداه محمد على من الخير للبلاد فى خلال حكمه فإنه لم يعوض الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية. ناحية الشجاعة الأدبية والروح الديمقراطية، تلك الناحية التى هى من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية". (ط٣ ص ص ١١٨، ١٢٠)

(٨)

ثم يظهر "عصر إسماعيل" جزأين فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ - الأول ٣١٤ صفحة والثانى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير - وعن هذا الكتاب يقول عبد الرحمن الرافعى فى مذكراته ".. بدأت بهذا الكتاب أدخل فى العصر الذى يشعر فيه من كان فى موقفى بشىء من الحرج فى الكتابة عنه، فقد وضعته وأخرجته فى الوقت الذى كان المغفور له الملك فؤاد

نجل إسماعيل فى أوج مجده وسلطانه. وكنت أعلم مبلغ اهتمامه بتمجيد تاريخ والده، والتعظيم من شأنه، وبتوجيهه ومساعداته السخية صدرت عدة مؤلفات ترمى كلها إلى إبراز الجوانب الحسنة من شخصية الخديو إسماعيل. وأنا أعرف هذه الجوانب الحسنة، وقد ذكرتها بإسهاب فى كتابى عنه، ولكنى أيضا أعرف أن لإسماعيل جوانب سيئة، كان لها أثرها الضار فى حياة مصر السياسية والاقتصادية، ولابد من تدوينها. وبعد أن فكرت فى ذلك مليا وجدتنى مدفوعا من تلقاء نفسى إلى أن واجبى كمؤرخ للحركة القومية يقتضى منى أن أدون الحقائق كلها عن الخديو إسماعيل، وأذكر ما له وما عليه. وهذا فى الواقع هو منهجى فى التراجم والشخصيات، وأنا بطبعى ميال إلى الاعتدال، ولا أحب التشنيع فى ذكر السيئات. ولكن لا يصح أن أغفلها أو أتجاوز عنها، لأنى أنشد الحق والإنصاف فيما أقول وأكتب، وأود أن لا أظلم أحدا، ولا أرضى لنفسى أيضا أن أحابى أحدا بغير الحق. وقد وضعت لنفسى هذه القاعدة فى سلسلة هذه المجموعة، واتبعتها قدر ما استطعت فى كل حلقة من حلقاتها، وعلى هذا الأساس وضعت كتاب عصر إسماعيل". (ط١ ص٦٦)

وكما توقع الرافعى فقد نظرت الجهات الرسمية إلى الكتاب نظرة عدائية .. ولما كانت الحكومة لا تملك لمؤرخنا ضرا ولا نفعا إلا فى أضيق الحدود، فقد استغلتها! ولم تشتر من الكتاب النسخ التى اعتادت وزارة المعارف (التربية

والتعليم) أن تمد بها مكتباتها. وأرسلت إليه تعتذر بأن مؤلفه هذا به مأخذ تحول دون إيداعه مكتبات مدارس الوزارة! وأرسلت طى خطابها صورة من تقرير ما أسمته (لجنة فحص الكتب التاريخية لمكتبات المدارس) وفيه تعداد لهذه المآخذ المزعومة. وقوامها أنه تحامل على الخديو إسماعيل!

ويحتوى الجزء الأول من "عصر إسماعيل" على دراسة لعباس الأول ورجعيته والنهضة الوطنية فى عهد سعيد وإصلاحاته. وسياسة إسماعيل الخارجية والداخلية، ووضع السودان فى عهده، والاكتشافات الجغرافية. وحالة الجيش والبحرية والحروب والتعليم والنهضة العلمية والأدبية والفنية والصحافة وأعلام الأدب والعلوم والفنون. واشتمل الجزء الثانى على أعمال العمران والحركة الوطنية والحياة النيابية فى عهد الخديو إسماعيل ومشكلة الدائنين، وحالة البلاد المالية والاقتصادية والاجتماعية وعزل إسماعيل وشخصيته..

ويشير الرافعى إلى مأساة الديون بقوله: "مسألة الديون هى الجانب المظلم من تاريخ إسماعيل، لأنها المأساة التى انتهت بتصدع بناء الاستقلال، وتدخل الدول فى شئون البلاد المالية والسياسية. فمن الواجب أن نوفى الكلام عنها فى شىء من الإيضاح والبيان. بقيت مصر سليمة من آفة الاستدانة فى عهد محمد على وإبراهيم وعباس، وبدأت حكومتها تمد يدها إلى الاقتراض فى عهد سعيد باشا

فاستدان سنة ١٨٦٢ قرضا مقداره ٣,٢٤٢,٨٠٠ جنيه إنجليزى، واستدان عدا ذلك مبالغ أخرى من الديون السائرة، فبلغ الدين العام عند وفاته ١١,١٦٠,٠٠٠ جنيه. أما الخديو إسماعيل، فكانت آفته الإسراف والاقتراض من البيوت المالية والمرابين الأجانب من غير حساب أو نظر فى العواقب، حتى كبل البلاد حكومة وشعبا بالقروض الفاحشة". (ج٢ ط٢ ص٢٥)

(٩)

وفى فبراير سنة ١٩٣٧ صدرت الطبعة الأولى من "الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى" - فى ٥٨٣ صفحة من القطع الكبير - وتصدر الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩.

ويكتب المؤلف فى مقدمته "للثورة العرابية، كما لكل ثورة، أنصار وخصوم، ولقد بدا لى إزاء هذه الآراء المتباينة أن أدرس الثورة من غير سابق حكم عليها، لأنتهى إلى رأى يهدى إليه البحث والتمحيص .. وقد اجتهدت من هذه الناحية فى استخلاص الحقائق عن الثورة وحوادثها وأشخاصها. من غير تحيز أو محاباة، ثم بنيت عليها ما عن لى من الرأى، على أننى حرصت جهد الاستطاعة على أن لا أخلط بين الوقائع والرأى فيها، لأدع للقارئ حرية الحكم على الحوادث والأشخاص". (ط١ ص ٤، ٥)

ويعرض الرافعي الأسباب القريبة والبعيدة للثورة العرابية وتفاصيلها وأسباب إخفاقها، محملا إياها تبعة الاحتلال البريطاني. ويقف كثيرا عند شخصية زعيمها أحمد عرابي موقفا عدائيا، كما يحدث إزاء غير زعماء الحزب الوطني! لأن الحزب الوطني يعتبره سبة في وجه مصر لأنه جلب إليها بتهوره الاحتلال الإنجليزي. "وقد يرجع نزوعه - أي عرابي - إلى الثورة إلى أصله البدوي، فإنه ذكر عن نسبه أنه ينحدر من سلالة بدوية عراقية، ومعلوم أن أكثر البدو يميلون إلى التمرد والثورة، على أنهم سرعان ما ينقلبون خاضعين إذا آنسوا القوة من جانب خصومهم، وهذا مع الأسف ما انتهى إليه عرابي. فقد أذعن للقوة واستسلم لها في واقعة التل الكبير، ولم يبذل خلال المعركة أو بعدها من قوة المقاومة والنضال والتضحية ما يسمو به إلى مصاف الأبطال. وكان ذكاؤه محدودا، على أنه كان على جانب كبير من الغرور، والاعتداد بالنفس، وكان يعول كثيرا على أقوال المنجمين والعرافين، وهذه جوانب ضعف كبيرة في شخصه". (ط١ ص٨٢)

واستعرض مؤرخنا مواقف رجال الثورة في المحاكمات وما اتسمت به من شجاعة واستسلام. ويذكر المواقف المشرفة لبعض هؤلاء الزعماء مثل علي باشا الروبي الذي انضم للثورة بعد أن كان رئيسا لمحكمة المنصورة. "كان الزعيم الوحيد الذي أجاب بشجاعة وصراحة على ما وجه إليه من التهم، واحتمل تبعة ما عمل أو اشترك في عمله،

ولم يسع فى التنصل من المسئولية، ولم يقبل أن يشارك زملاءه فى الاتفاق مع السلطات البريطانية على مصير المحاكمة وخطة الدفاع فيها. ولذلك لم يشمله العفو الذى عومل به زعماء الثورة، وحكم عليه بالنفى عشرين سنة فى مصوع تحت الملاحظة. فلم يمض عليه بها عامان حتى اعتلت صحته وضعف بصره، ثم نقل إلى سواكن منفيا تحت الملاحظة فيها. وكانت حرارة الطقس قد أثرت فى صحته، فأودت ببصره. وتوفى فى سواكن يوم ١٦ صفر سنة ١٣٠٩هـ (١٩ سبتمبر سنة ١٨٩١م) ودفن بها، ولا يزال قبره هناك".
(ط١ ص٥٤٥)

(١٠)

وفى يناير سنة ١٩٣٩ يصدر عبد الرحمن الرافعى مجلده الضخم عن "مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية" - ٥٣٢ صفحة من القطع الكبير - وفى نوفمبر ١٩٥٢ تصدر طبعة موجزة عن الأصل فى سلسلة "كتاب الهلال".

وقد تأخر ظهور الكتاب فى طبعته الأولى عن موعده المقرر له قبلا. حين ابتدأ الرافعى سنة ١٩٢٦ فى الكتابة عن مصطفى. ولكنه اكتشف أنه لا يمكن إصداره دون العودة إلى نشأة الحركة القومية المصرية منذ المقاومة الوطنية لحملة نابليون سنة ١٧٩٨ وكان أن فعل.

وكان إهداء الكتاب بليغا نابعا من القلب وهو يقول: "إلى من كانت حياته للأمة بعثا وطنيا. من كان لى أبا روحيا. وسأبقى له تلميذا وفيا. من علمنى أن الحياة بغير المثل العليا عرض زائل. وعبث ضائع. إلى "مصطفى كامل" أهدى كتاب "مصطفى كامل". هدية الوفاء إلى روحه العظيمة".

ويدرس مؤرخنا فى مؤلفه حياة الزعيم الشاب ويتابعه منذ مولده إلى وفاته، ويعرض لفكره ومواقفه مفسرا أعماله مسجلا بعض خطبه المشهورة. وكان من رأى الرافعى فى الزعيم الشاب .. "لا نزاع فى أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال، ومن زعماء الشعوب وقادتها الأبطال فى ميادين الحرية والاستقلال، ولا مراء فى أنه باعث الحركة الوطنية التى ظهرت فى مصر عقب الاحتلال البريطانى. إن شخصية مصطفى كامل تتركز فى قوى ثلاث؛ هى التى ساعدته على النجاح فى عمله العظيم، وهى إيمانه برسالته وأخلاقه وصفاته، ثم وطنيته الصادقة". (ط٤ ص٤٢٣)

وكعادة الرافعى فى إغفال جوانب الضعف فى الشخصية التاريخية التى يتناولها، ألغى الكثير من هذه الجوانب فى حياة ومواقف مصطفى كامل. مثل مضارباته. التى يذكر عنها الزعيم محمد فريد فى يومياته بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ "واضطربت ماليته كثيرا بسبب المضاربات التى كان دخل فيها هو وأخوه على".[٣]

(١١)

وفـى يوليـة سـنة ١٩٤١ يظـهر كتـاب "محمـد فريـد رمـز الإخـلاص والتضحيـة" - ٥٢٥ صفحـة مـن القطـع الكبـير - وتصـدر طبعـة مختصـرة سـنة ١٩٥١ فـى سلسـلة "كتـاب الـهلال".

وكـان الرافعـى يستشـعر دائمـا خفـوت ذكـر محمـد فريـد بـالذات، فعمـل علـى دراسـة جـهاده الوطنـى وتسـليط الأضـواء علـى أعمالـه .. لأن فضلـه كمـا يقـول .. "قـد غمـر فـى زحمـة التقلبـات التـى طـرأت علـى الحركـة القوميـة" ويعنـى بذلـك قيـام ثـورة ١٩١٩ وظـهور الوفـد علـى رأس المقاومـة الوطنيـة.

ويعـرض الكتـاب للزعيـم الوطنـى منـذ أن شـب عـن الطـوق، ويتابعـه فـى حياتـه الأسـرية. ويتحـدث عـن مؤلفاتـه وترجماتـه، وصلتـه بمصطفـى كـامل، وتضحياتـه مـن أجـل الوطـن وخلافتـه للزعيـم الشـاب وجـهاده الوطنـى وجولاتـه فـى أوروبـا مـن أجـل الدعـوة للقضيـة المصريـة. إلـى أن اضطـر إلـى الارتحـال عـن بلـده ووفاتـه فـى ألمانيـا مسـاء السـبت ١٥ نوفمـبر سـنة ١٩١٩ وعـودة جثمانـه إلـى مصـر بفضـل ووطنيـة أحـد تجـار الزقـازيق. وكعـادة الرافعـى أغفـل الإشـارة إلـى الحيـاة الخاصـة لمحمـد فريـد فـى أوروبـا، وخاصـة علاقتـه مـع مـدام رينـه دى روشـبرون الفرنسـية التـى نشـرت مذكراتـها عـن هـذه العلاقـة، وكذلـك علاقتـه فى المنفى مع الخديـو السـابق عباس حلمـى الثـانى".(٤)

ويهتم الرافعي بتفاصيل حياة محمد فريد الوطنية. كما حدث وهو يعرض لما لابس الحكم الذى صدر عليه فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بسجنه ستة شهور لكتابته مقدمة ديوان الشاعر على الغاياتى. فعندما دخل الزعيم المصرى سجن الاستئناف بالقاهرة لتنفيذ العقوبة دار هذا الحوار بينه وبين كولس باشا مدير مصلحة السجون: ".. بدأ كولس باشا يتحدث إليه بالفرنسية قائلا: إنى أسعى للعفو عنك إذا وعدت بتغيير خطتك، فأجابه الفقيد إن ما تطلبه مستحيل. فعدل كولس باشا وقال: إنى لا أطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك، فرفض. فقال له كولس باشا: أنت تريد إذن قضاء ست شهور فى السجن، فقال الزعيم. وأزيد عليها يوما إن أردتم، فأدرك كولس باشا أن لا سبيل إلى مساومته وانصرف". (ط٣ ص ص٢٨٤، ٢٨٥)

وقد تصدى كثيرون من الكتاب لأسلوب الرافعى فى تجاهل الجوانب السلبية فى حياة الزعماء. يقول محمد صبيح فى كتابه: "كفاح شعب مصر" الذى يجابه فيه الرافعى - وقد كان حيا - بما أغفله فى مذكرات محمد فريد التى أطلع عليها. ويقول صبيح "إن تقدير الأستاذ الرافعى لزعيميه مصطفى وفريد، جعله يعطيهما فيما كتبه عنهما صفة العصمة فى كل رأى أو عمل قاما به .. وهو الأمر الذى تنكره طبيعة الأشياء والأحياء .. وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه المرحوم الأستاذ العقاد فى تأريخه لسعد زغلول".[٥]

(١٢)

وفـى يونيـة عـام ١٩٤٢ أصـدر الرافعـى كتابـه "مصـر والسـودان فى أوائل عـهد الاحتـلال. تـاريخ مصـر القومـى مـن سـنة ١٨٨٢ إلـى سـنة ١٨٩٢" - ٢٨٢ صفحـة مـن القطـع الكبـير - يعـرض فيـه للسـنوات العشـر الأولـى للاحتـلال الإنجلـيزى علـى مصـر، مشـيرا إلـى ضيـاع الإمبراطوريـة المصريـة حيث تـم شطر السـودان .. بعـد أن ضحـت مصر فـى سـبيل الوحـدة بعشـرات الألـوف مـن أبنائـها وملاييـن الجنيـهات مـن أموالـها وبجـهود عشـرات السـنوات مـن تاريخـها. ويذكـر الدعـائم التـى أرسـتها السياسـة البريطانيـة لإفسـاد العلاقـات الوثيقـة بيـن البلديـن الشـقيقين. ويـهتم الرافعـى بالإشـارة إلـى آثـار الاحتـلال فـى النفـوس ".. فـلا عجـب أن ظلـت الأمـة سـنين عديـدة تـتردى فـى هـوة الانحـلال الوطنـى، وهـو نتيجـة حتميـة لإخفـاق الثـورة الأهليـة ووقـوع الاحتـلال الأجنبـى". (ط٣ ص٢٠٩)

(١٣)

وفـى أبريـل سـنة ١٩٤٦ يصـدر الرافعـى مجلديـن عـن "ثـورة سـنة ١٩١٩". تـاريخ مصـر القومـى مـن سـنة ١٩١٤ إلـى سـنة ١٩٢١ - الجـزء الأول ٢٠٧ صفحـة والثـانى ٢٣٢ صفحـة مـن القطـع الكبـير - ويـترجم إلـى اللغـة الروسـية سـنة ١٩٦٧.

عرض فيهما المؤلف لحالة مصر أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم بواعث الثورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وسجل تطور الأحداث ووقائعها فى القاهرة والأقاليم ودور عبد الرحمن الرافعى فى المنصورة إبان اشتعالها. والإفراج عن سعد ثم استمرارها ومحاكماتها وتنتهى الدراسة بلجنة ملنر ومفاوضاتها.

يكتب الرافعى عن تفجير الثورة "لم يكد يترامى نبأ القبض على سعد وصحبه، حتى أخذت سمات الغضب ترتسم فى محيط العاصمة، وتسرى منها إلى الأقاليم. كانت روح السخط كامنة فى الجوانب، والنفوس مغيظة محنقة من تصرفات السياسة البريطانية، القديمة والحديثة، متحفزة للثورة على هذه التصرفات، وجاء هذا الحادث كالشرارة أشعلت النار فى النفوس المضطرمة. كان هذا الاعتقال جديرا بأن يهيج الخواطر، ويدفع الأمة إلى الثورة، لأنه حلقة من تصرفات جائرة اتخذتها السلطة البريطانية لإذلال الشعب، والحيلولة دون حقه فى الحياة. وقد بلغ التحدى لأمانيه غايته، بحيث يعد السكوت على ذلك رضاء واستسلاما، فجاءت الثورة معلنة أن الأمة لا ترضى بالذل والعبودية". (ج١ ط٢ ص١٧٠)

(١٤)

وفـى أول يوليـة سـنة ١٩٤٧ ظـهر "فـى أعقـاب الثـورة المصريـة" الجـزء الأول - ٣٣٦ صفحـة مـن القطـع الكبـير - وفـى نوفمـبر سـنة ١٩٤٩ يصـدر الجـزء الثـانى - ٣٨٦ صفحـة مـن القطـع الكبـير - وفـى أكتوبـر سـنة ١٩٥١ يصـدر الجـزء الثـالث - ٣٤٤ صفحـة من القطـع الكبـير.

يشـمل الجـزء الأول تـاريخ مصـر القومـى مـن أبريـل سـنة ١٩٢١ إلـى وفـاة الزعيـم "سـعد زغلـول" فـى ٢٣ أغسـطس سـنة ١٩٢٧، حيـث عـرض الانقسـام الداخلـى سـنة ١٩٢١ والموقـف السياسـى بعـد قطـع مفاوضـات عدلـى وتصريـح ٢٨ فـبراير سـنة ١٩٢٢. ثـم الـوزارات المتعاقبـة، ودسـتور سـنة ١٩٢٣ والانتخابـات العامـة والبرلمـان الأول وذكرياتـه وانتخابـه عضـوا فـى مجلـس النـواب عـن دائـرة مركـز المنصـورة. ثـم وزارة سـعد وحـوادث السـودان ومقتـل السـير لـى سـتاك سـردار الجيـش المصـرى وحـاكم السـودان العـام. واسـتقالة سـعد. وتـأليف وزارة زيـور والتسـليم بمطـالب الإنجلـيز. وتعطيـل البرلمـان وانتخابـات سـنة ١٩٢٥ وحـل مجلـس النـواب الجديـد يـوم انعقـاده، ثـم اجتمـاع البرلمـان مـن تلقـاء نفسـه بفنـدق الكونتننتـال يـوم ٢١ نوفمـبر سـنة ١٩٢٥ بعـد إغـلاق الحكومـة البرلمـان بقـوات الجيـش. وعـودة الحيـاة الدسـتورية. ثـم الـوزارات الائتلافيـة. ويعـرض فـى فصـل خـاص دراسـة عـن

شخصية سعد زغلول. وفصل عن الدستور والحكم المطلق. وقد أشاد بزعامة سعد - بالرغم من المآخذ التى عددها عليه - حين قال: "إن الزعامة هى قدرة الإنسان على أن يقود الجماهير وأن يجمع حوله أكبر ما يمكن من الأنصار والمؤيدين أو المعترفين بزعامته. ولاشك أن سعدا قد جمع حوله منذ أواخر سنة ١٩١٨ إلى أن توفى سنة ١٩٢٧ أكبر ما يمكن من الأنصار. وكانت له مقدرة عجيبة فى اقتياد الجماهير، وقد جمع حوله بغير منازع الغالبية العظمى من الأمة، على اختلاف طبقاتها وطوائفها، فزعامته أصبحت حقيقة من حقائق التاريخ القومى لمصر الحديثة". (ج١ ط١ ص٢٩٣)

ويعرض الجزء الثانى لتاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك أحمد فؤاد فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦، حيث يتحدث عن استمرار الائتلاف بعد وفاة سعد زغلول، ونقض الائتلاف وتعطيل الدستور. ومفاوضات محمد محمود وهندرسن، ووزارة إسماعيل صدقى والحوادث الدامية فى عهده فى الأقاليم، وإلغاء دستور سنة ١٩٢٣ وإعلان دستور آخر. ثم عودة الحياة الدستورية بعد إلغاء دستور صدقى، وشخصية الملك فؤاد. وإلمامه بالنهضة الاقتصادية والنهضة الاجتماعية.

ويشتمل الجزء الأخير على تاريخ مصر القومى (بعد ارتقاء الملك فاروق عرش مصر) من ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥١. ويتناول المؤلف الحالة السياسية

فـى أوائـل عـهد فـاروق، ثـم معـاهدة سـنة ١٩٣٦ ورأيـه فيـها باعتبارهـا وصمـة فـى جبيـن مصـر، وإلغـاء الامتيـازات الأجنبيـة. ثـم وزارة محمـد محمـود الثانيـة، ومصـر فـى الحـرب الثانيـة، ثـم حـادث ٤ فـبراير سـنة ١٩٤٢ ووزارة مصطفـى النحـاس الخامسـة. ثـم وزارة أحمـد مـاهر، ومصـر بعـد انتـهاء الحـرب الثانيـة. ويكتـب الرافعـى عـن اشـتراكه فـى وزارة حسـين سـرى الائتلافيـة سـنة ١٩٤٩ وزيـرا للتمويـن ثـم يتـابع الوفـد فـى الحكـم أو مـا يسـميه عـودة الحكـم المطلـق، وإخـراج المعـارضين مـن مجلس الشـيوخ وهـو مـن بينـهم. وترحيبـه بمـا أعلنـه مصطفى النحـاس بالبرلمـان مسـاء يـوم الاثنيـن ٨ أكتوبـر سـنة ١٩٥١ مـن قطـع المفاوضـات المصريـة البريطانيـة. وإلغـاء معـاهدة ٢٦ أغسـطس سـنة ١٩٣٦، واتفـاقيتى ١٩ ينـاير، ١٠ يوليـة سـنة ١٨٩٩ بشـأن إدارة السـودان. وتعديـل الدسـتور وجعـل لقـب الملـك "ملـك مصـر والسـودان". "ولا ريـب أن قطـع المفاوضـات التـى طـال أمدهـا، وإعـلان الحكومـة إلغـاء معـاهدة سـنة ١٩٣٦ واتفـاقيتى سـنة ١٨٩٩. هـو كسـب كبـير للقضيـة الوطنيـة، وهـو إعـلان باسـتئناف الجـهاد والكفـاح فـى سـبيل تحريـر الـوادى. وإننـا لـنرحب بـهذه الخطـوة فـى الجـهاد، ونغتبـط بـها اغتباطـا عظيمـا، ونؤيـد الحكومـة فيـها، وفـى خطـوات الجـهاد كافـة. ونسـاهم فيـها بكـل قوانـا وجوارحنـا، وندعـو إلـى تضـامن الشـعب والحكومـة فـى مراحـل هـذا الكفـاح، وفـق اللـه الـوادى فـى جهاده، وأمـده بـروح مـن عنـده فـى سـبيل تحقيـق أهدافــه". (ج٣ ط١ ص٣٣٥)

(١٥)

وفـى فـبراير سـنة ١٩٥٢ يصـدر ذكرياتـه تحـت عنـوان "مذكراتـى" فـى الفـترة مـن سـنة ١٨٨٩ إلـى سـنة ١٩٤١ - ١٦٠ صفحـة مـن القطـع الكبـير - واشـتمل الكتـاب علـى شـريط حياتـه العائليـة بسـرعة واهتمامـه الشـديد بأمـه، ثـم يتحـدث عـن أبيـه وإخوتـه وتعليمـه. وتلمذتـه لمصطفـى كـامل ومحمـد فريـد. وعرضـت المذكـرات لعملـه فـى المحامـاة بقـدر ضئيـل وصلتـه بـالحزب الوطنـى ومقالاتـه الصحفيـة الأولـى ومجموعـة كتبـه التـى أصدرهـا. وكذلـك عـن اعتقالـه وذكرياتـه عـن ثـورة ١٩١٩ وتحـدث عـن زوجتـه، ونشـاطه ومشـاركته فـى إنشـاء الجمعيـات التعاونيـة إبـان الحـرب العالميـة الأولـى. ثـم تحـدث عـن حياتـه البرلمانيـة سـنة ١٩٢٤ بمجلـس النـواب ثـم إبعـاده عـن النشـاط السياسـى منـذ عـام ١٩٢٦ إلـى ١٩٣٩ حيـث دخـل مجلـس الشـيوخ بالتزكيـة إلـى أن انتـهت مدتـه سـنة ١٩٥١. وروى كيـف أبعـد عـن الحيـاة السياسـية سـنة ١٩٢٦ واتجاهـه إلـى التـأليف.

حدثنـى الدكتـور عبـد العزيـز الدسـوقى أنـه فـى إحـدى الزيـارات التـى كـان يقـوم بـها لعبـد الرحمـن الرافعـى فـى مكتبـه، سـأله يومـا هـل كتبـت مذكـرات بخـلاف مـا أصدرتـه فـى كتـاب سـنة ١٩٥٢؟ فكـان رد الرافعـى أن أخـرج مـن درج مكتبـه مذكـرات مدونـة وقـال: لـه هـاهى ثـم أعادهـا إلـى مكانـها.

وتوكيدا لكلمة دكتور دسوقى سألت المستشار حلمى شاهين زوج ابنة الرافعى عن صحة وجود مذكرات خطية، فقال نعم طلبها منى صبرى أبو المجد ولم يردها بعد.

والتقيت بعدئذ بصبرى أبو المجد فى دار الهلال، وطلبت أن أطلع على المذكرات الموجودة بحوزته فقال أنه سيكتب عنها. واختاره الله وضاعت المذكرات!!

(١٦)

وفى سنة ١٩٥٢ يصدر مؤلفه "الزعيم الثائر أحمد عرابى" عن دار الهلال ولكن هذا الكتاب لا يقدر له أن يرى النور، فقد صادرته السراى، ولم يفرج عنه إلا بعد قيام ثورة ٢٣ يولية بموافقة قائدها اللواء محمد نجيب. وتصدر طبعته الثانية فى ذات السنة. وفى سبتمبر سنة ١٩٦٨ تصدر طبعته الثالثة عن دار الشعب - والأخيرة فى ٣٢٤ صفحة القطع المتوسط.

وتشتمل الدراسة على حياة عرابى وأعماله ونهايته وشخصيته. ويعد هذا الكتاب صورة مركزة لما نشره الرافعى فى كتاب "الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى" الصادر سنة ١٩٣٧. ولكن الجديد فى الكتاب أنه رفع كافة الفقرات الحادة التى كتبها وهو فى الثانية والأربعين والتى تدين عرابى بالخيانة والهروب من ميدان المعارك. حتى بدا كأنه اعتذار عما سلف. وبعد أن قوبل رأيه السابق بالإنكار وبعد

ما حفلت المكتبة العربية بدراسات عن عرابى من بينها كتاب محمود الخفيف "عرابى المفترى عليه". وكتابات الرافعى الجديدة وهو فى سن الثالثة والستين عن عرابى خير دليل لتعديله لموقفه على مر الأيام، فرفعه من الحضيض إلى السماء. وهكذا حاله أيضا عندما ارتد من الثورية سنة ١٩١٩ إلى حد إنكاره للاغتيالات التى قام بها أبطالنا المجهولون حين كتب عن هذه الفترة فى كتب "ثورة سنة ١٩١٩ - فى أعقاب الثورة المصرية - مذكراتى".

والكتاب يشتمل على أحد عشر فصلا منها على سبيل المثال "عرابى الزعيم القومى" و"الزعيم فى المنفى". ومقارنة بين كتاباته سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٥٢، نراه فى الأولى يكيل التهم وفى الثانية يتحدث برقة. يكتب مثلا (عام ١٩٣٧) "فإن الحرص على الحياة كان رائده - أى عرابى - فى كل هذه الأحداث، وقديما قالوا (أذل الحرص أعناق الرجال)".[٦] أما فى عام ١٩٥٢ فتتحول هذه الفقرة إلى "فشخصية عرابى كانت تجمع بين المحاسن والأضداد، حقا إن الرأى فى شخصيته قد يتغير لو كتب له الفوز والنجاح .. فلو أن الثورة قد انتصرت لتضاءلت عيوبه إلى جانب مزاياه ومحاسنه، وهكذا شأن الحوادث والأحداث لها دخل كبير فى تقدير الرجال والأشخاص".

والناس من يلق خيرا قائلون له

ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل[٧]

(١٧)

وفـى عـام ١٩٥٤ يصـدر عبـد الرحمـن الرافعـى كتابـه "شـعراء الوطنيـة" - ٣١٦ صفحـة مـن القطـع الكبيـر - ويعـرض لرفاعـة رافـع الطـهطاوى وعبـد اللـه نديـم ومحمـود سـامى البـارودى وإسـماعيل صـبرى وأحمـد شـوقى وحـافظ إبراهيـم وخليـل مطـران وأحمـد محـرم وأحمـد نسـيم وأحمـد الكاشـف ومحمـد عبـد المطلـب والدكتـور أحمـد زكـى أبـو شـادى وعبدالحليـم المصـرى وعزيـز فـهمى ثـم أخـيرا علـى الغايـاتى.

ومـع أن موضـوع الكتـاب لـه صلـة بشـكل غـير مباشـر بالتـاريخ والوطنيـة، الجـانب الأثـير عنـد الرافعـى .. إلا أن القـارئ ربمـا يدهـش لاهتمـام مؤرخنـا بالشـعر. ولكـن الـدارس لحياتـه يعـرف أنـه كـان فـى شـبابه شـديد العشـق للشـعر العربـى القديـم بـالذات.

(١٨)

وفـى أكتوبـر سـنة ١٩٥٥ يظـهر كتـاب "أربعـة عشـر عامـا فـى البرلمـان" - ٥٥٢ صفحـة مـن القطـع الكبـير - يعـرض فيـه للفـترة التـى قضاهـا عضـوا بمجلـس النـواب سـنة ١٩٢٤ والفـترة التـى قضاهـا عضـوا بمجلـس الشـيوخ مـن سـنة ١٩٣٩ إلـى سـنة ١٩٥١، مـن واقـع مضـابط المجلسـين البرلمـانيين، وكـان الرافعـى يـوزع كتابـه بالمجـان.

ومن المعروف أن الحديث عن الفترة الأولى سبق أن طبعها سنة ١٩٢٥ فى كتيب "أعمالى فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ فى دور الانعقاد الأول".

(١٩)

وفى مارس سنة ١٩٥٧ يصدر الرافعى كتابه "مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢" - ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير - يشير فى مقدمته إلى أن هذا الكتاب هو فى سلسلة التاريخ القومى حلقة جديدة تبدأ حيث انتهى الجزء الثالث من كتابيه "فى أعقاب الثورة المصرية"، "ثورة سنة ١٩١٩" وهو يتناول الكفاح فى منطقة القنال وحريق القاهرة ووزارات الموظفين وأسباب الثورة وفاروق يمهد للثورة. وقد عرض الرافعى جوانب كثيرة سبق أن نشرها بالحرف الواحد فى مجلداته السابقة.

والانطباع الذى يخرج به القارئ فى هذا المؤلف، أنه ما كان يجدر بالمؤرخ الكبير أن يدون شيئاً عن ثورة ١٩٥٢! والسبب أنه كان صحيا فى حالة لا يقوى فيها على الكتابة الممتازة، ولذلك اعتمد الكتاب على النقل من الصحف والمجلات!

وقد توقف عبد الرحمن الرافعى باهتمام عند حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، وكان له رأى يخالف

الكثيرين وهو ينفى مسئولية الإنجليز والقصر فى الحريق!
يقول: "قرأت فى بعض الصحف والمجلات تلميحات إلى أن الإنجليز هم الذين دبروا حريق القاهرة. مثلما دبروا مذبحة الإسكندرية التى وقعت يوم ١١ يونية سنة ١٨٨٢. وزعم اخرون أن لفاروق يدا فى هذا التدبير. وكنت أود أن يسفر البحث والاستقراء عن تدبير الإنجليز أو فاروق حريق القاهرة. ولقد مضت عدة سنين وأنا أعاود البحث لعلى أصل إلى بينات أو مجرد قرائن تثبت هذا التدبير، مثلما انتهى بى البحث والتحقيق إلى ثبوت تدبير الإنجليز لمذبحة الإسكندرية سنة ١٨٨٢. ولكن الأمر فى حريق القاهرة جاء على خلاف مذبحة الإسكندرية، وتبين لى مع شديد الأسف أن حريق القاهرة كان عملا محليا قامت به العناصر الرديئة من الشعب". (ط٢ ص١٢٢)

(٢٠)

وفى أكتوبر عام ١٩٥٩ وعبد الرحمن الرافعى فى سن الواحدة والسبعين يصدر "ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢-١٩٥٩" يقول فى مقدمته: "فى هذا الكتاب تأريخ لثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢، أؤرخها فى سبع سنوات منذ عام قيامها إلى سنة ١٩٥٩. وبذلك يتاح لى أن أؤرخ الثورات التى تعاقبت على مصر فى تاريخها الحديث، خلال نيف ومائة وخمسين عاما". (ط١ ص٣)

والكتاب خفيف للغاية فى مادته وحكمه على الأشياء .. حيث جامل السلطة الجديدة التى كرمته، وكان من أبرز عيوبه فيه تجاهله الكامل لدور محمد نجيب!

ويقول الدكتور وحيد رأفت فى كتابه "فصول من ثورة ٢٣ يوليو": "وللأستاذ عبد الرحمن الرافعى وأمثاله من الكتاب والمؤرخين أن يشيدوا بذلك النصر (يشير إلى كتابة الرافعى عن قرارات مارس سنة ١٩٥٤، متخذا جانب السلطة) بلا تحفظ ويتغنوا بكل ما فى ذلك العهد، ويحرقوا للسلطة البخور، ويؤلهوا الحاكم الذى حولوه بخنوعهم وسكوتهم إلى طاغية، فإنهم قوم كانوا قد فقدوا الوعى فوجدوا حسنا ما ليس بالحسن، وعميت أبصارهم عن رؤية السلبيات والسيئات".(٨)

(٢١)

وأصدر فى مايو سنة ١٩٦٣ كتاب "تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة من فجر التاريخ إلى الفتح العربى" - ٣١٣ صفحة من القطع الكبير - بلغت فصوله خمسة عشر، تناول فيها: الوحدة القومية والدولة القديمة، الثورة الاجتماعية فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، الدولة الوسطى، ثورة الشعب على الهكسوس، الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الثلاثين. أوج المجد. مصر فى عصر تحوتمس الثالث، اخناتون وثورته الدينية، رمسيس الثانى وحروبه الدفاعية، الدفاع عن كيان مصر فى عهد

حلفاء رمسيس الثاني، وتحرير مصر من الاحتلال الأشوري، الغزو الفارسي وثورات الشعب عليه. الأسرات الملكية في مصر القديمة، الإسكندر الأكبر في مصر. جلاء الفرس سنة ٣٣٢ ق.م، البطالمة في مصر وثورات الشعب عليهم، مقاومة مصر للاستعمار الروماني وعصر الشهداء، الفتح العربي لمصر وحالة البلاد قبله.

والكتاب في مجموعة لا يعدو إلا أن يكون مدرسيا وموجزا أيضا. يكتب عن أحمس محرر مصر من الهكسوس ثلاثة سطور! "هو ابن سفنن رع وأخو كامس. وقد خلفه في قيادة حرب التحرير. واستمر يحارب الهكسوس حتى قضى عليهم واستولى على عاصمتهم (أواريس). وتعقبهم في فلسطين. وقضى على فلولهم في (شاروهين) وفروا إلى سوريا". (ص٧٧)

(٢٢)

وبعد سبعة أيام من وفاة مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الرافعي يصدر كتابه "جمال الدين الأفغاني باعث نهضة الشرق" في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٦٦ في سلسلة "أعلام العرب" - ١٨٦ صفحة من القطع المتوسط.

يعرض فيه نشأة الزعيم الإسلامي الكبير، ومجيئه لمصر وفكره ثم عمله في أوروبا بعد نفيه من مصر إبان حكم

توفيق. ومقالاته فى "العروة الوثقى" التى أصدرها فى منفاه فى باريس ونشاطه فى بلاد الشرق وأوروبا. وصفاته وأخلاقه وشخصيته. ويعده الرافعى ملهما للثورة العرابية بأفكاره وتعاليمه التقدمية بمقياس عصره، والتى حفز بها النفوس إلى الحرية والتمسك بها. وفى ذلك يقول: "فجمال الدين هو من الوجهة الروحية والفكرية أبو الثورة العرابية، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه، وحسبك أن خطيب الثورة العرابية عبد الله النديم كان تلميذا له. ومحمود سامى البارودى رئيس وزراء الثورة كان من أصدقائه ومريديه. والشيخ محمد عبده هو تلميذه الأكبر، والثورة فى ذاتها هى استمرار للحركة السياسية التى كان لجمال الدين الفضل الكبير فى ظهورها فى عهد إسماعيل". (ط١ ص٤٧)

(٢٣)

ويشير الرافعى فى مقدمة كتابه "الحركة القومية فى مصر القديمة من فجر التاريخ حتى الفتح العربى" عن رغبته فى أن يستكمل كتاباته عن الفترة من الفتح العربى حتى قبيل الاحتلال العثمانى سنة ١٥١٧ أو بالأحرى الحقبة الأخيرة التى لم تغطها كتاباته القومية. وبدأ مؤرخ مصر الحديثة يعد مسودات هذا الكتاب ولكن لم يطل به الأجل ليعده للمطبعة، وحقق آله من بعده رغبته ودفعوا بالمسودات لصديقه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة،

الذى أصدره فى طبعته الأولى سنة ١٩٧٠ مقدما اسم الرافعى على اسمه - ٥٢٨ صفحة من القطع الكبير - تحت عنوان "مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى".

وقد عالج دكتور عاشور العناصر التى خططها الرافعى لإعداد كتابه بقوله فى المقدمة "على أننى أجد لزاما على أن أعتذر لعشاق كتابات الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ومقدرى علمه وفضله، لما سيجدونه فى هذا الكتاب من اختلاف فى المنهج والأسلوب وطريقة العرض عما لمسوه وعهدوه فى مؤلفات الفقيد الكبير. ذلك أن لكل كاتب منهجه وأسلوبه وذوقه، وهذه كلها نواح تتفق وعقلية المؤلف ونفسيته وبيئته وعصره .. وخلاصة القول أنه كان على أن أقدم للقارىء فى هذا المؤلف خلاصة عديد من المصادر والمراجع، ولذا حرصت دائما خلال صفحات هذا الكتاب على أن أعطى القارئ صورة واضحة موجزة للعصر الذى أقدمت على علاجه من مختلف جوانبه الرئيسية، دون الدخول فى التفصيلات التاريخية والحوادث الثانوية، التى ربما تفسد عرض التاريخ فى كتاب مجمل من هذا النوع أكثر مما تخدمه". (ط١ ص٧)

ولم يشأ الدكتور عاشور فى أن يحجب عن القارئ المقدمة التى كان قد أعدها الرافعى لآخر كتاباته فنشرها.

والكتاب يشتمل على ستة أبواب تعددت فصول كل باب. وتناولت بصورة أكاديمية ممتازة. مصر ولاية عربية، مصر فى عهد الطولونيين، الدولة الأخشيدية، الدولة الفاطمية، الدولة الأيوبية، دولة المماليك.

(٢٤)

وبالإضافة إلى الكتب السابقة، فقد رغب وزير التربية والتعليم كمال الدين حسين سنة ١٩٥٨ فى أن يقدم لطلبة المدارس كتبا قومية فى متناول أيديهم، فكلف عبد الرحمن الرافعى بتقديم هذه الطبعة المبسطة، فكان أن ابتدأ اعتبارا من أغسطس سنة ١٩٥٨ فى تقديم سلسلة "مصر المجاهدة فى العصر الحديث" بلغت ستة كتيبات وهى:

١- من عهد الحكم العثمانى المملوكى إلى ثورة الشعب على الوالى التركى سنة ١٨٠٥ - ١٧٥ صفحة من القطع الصغير.

٢- من ولاية محمد على سنة ١٨٠٥ إلى نهاية حكم سعيد سنة ١٨٦٣ - ١٧٧ صفحة من القطع الصغير.

٣- من بدء حكم إسماعيل إلى مقدمات الثورة العرابية سنة (١٨٦٣-١٨٨٢) - ٢١٩ صفحة من القطع الصغير.

٤- الثورة العرابية والاحتلال وإخلاء السودان - ١٧٧ صفحة من القطع الصغير.

٥- التراجع والانتكاس فى السنوات العشر الأول للاحتلال ومراحل البعث الوطنى إلى نهاية ثورة ١٩١٩ - فى ٧١٢ صفحة من القطع الصغير.

٦- من نهاية ثورة سنة ١٩١٩ إلى بداية ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ - سنة ١٩٥٩ فى ١٨٥ صفحة من القطع الصغير.

وقد أعادت هيئة الاستعلامات المصرية فى عامى ١٩٧٩. ١٩٨٠ إصدار بعض هذه الكتب الستة فى سلسلة "دراسات قومية" تحت عنوان جديد هو "الرباعية الكبرى فى تاريخ مصر القومى" لعبد الرحمن الرافعى. وقد جاءت الطبعة الجديدة على النحو التالى:

١- مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية - ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط - الذى حمل فى الطبعة السابقة اسم "من عهد الحكم العثمانى المملوكى إلى ثورة الشعب على الوالى التركى سنة ١٨٠٥".

٢- مصر والثورة العرابية - ٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط - وحمل قبلا عنوان "الثورة العرابية والاحتلال وإخلاء السودان".

٣- مصر البعث الوطنى - ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط - وهو بذاته "التراجع والانتكاس فى السنوات العشر الأولى للاحتلال ومراحل البعث الوطنى إلى نهاية ثورة ١٩١٩".

٤- مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليه ١٩٥٢ - ٢٠٨ صفحة من القطع المتوسط - وسبق أن حمل عنوان "من نهاية ثورة سنة ١٩١٩ إلى بداية ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢".

المراجع

١- إسماعيل صدقي: مذكراتي ط١ ص١١٩.

٢- عبد الرحمن الرافعي: مذكراتي ط١ ص ص٧١، ٧٢.

٣- محمد فريد: مذكراتي بعد الهجرة (١٩٠٤-١٩١٩) ط١ ص٥٧.

٤- أحمد شفيق: مذكراتي في نصف قرن ج٣ ط١ ص٣٣، ٦٧، ٦٩، ٧٢.

٥- محمد صبيح: كفاح شعب مصر ط٢ ص١٢.

٦- عبد الرحمن الرافعي: الثورة العرابية ط١ ص٥١٧.

٧- عبد الرحمن الرافعي: أحمد عرابي ط٣ ص٢١٦.

٨- دكتور وحيد رأفت: فصول من ثورة ٢٣ يوليو ط١ ص١٩٠.

شخصيات فى حوار

كان عبد الرحمن الرافعى واحداً من أعلام مؤرخينا الكبار الذين ساهموا بإخلاص فى كتابة تاريخنا فى مختلف العصور .. مشاركاً فى المسيرة التى سبقه إليها ابن إياس والمقريزى وابن أبى السرور البكرى وعبد الرحمن الجبرتى وعلى مبارك وأحمد شفيق وغيرهم. وكانت عظمة الرافعى أنه تصدى لهذه المهمة المقدسة فى وقت كان المسرح يخلو تماماً من مؤرخ مصرى صميم! ونلتقى فى عدة لقاءات شخصية مع بعض أصحابه ومعاصريه.

مصطفى أمين

يقول الأستاذ مصطفى أمين:

"صلتى قديمة جداً بعبد الرحمن الرافعى منذ كنت طفلاً، نسكن فى دمياط. فقد كان شريكاً لوالدى فى مكتبى المحاماة اللذين أنشأهما معاً فى دمياط والمنصورة! وكانت لافتة كل من المكتبين، تحمل الاسمين عبد الرحمن الرافعى

ومحمد أمين يوسف. واستمرت شركتهما حتى عودة أبى إلى القاهرة، ومن هنا كنت أشاهد الرافعى فى بيتنا كثيراً عندما يجىء من المنصورة ويزور دمياط.

ومما أذكره أن سعد زغلول عرف عبد الرحمن الرافعى وشقيقه أمين الرافعى الصحفى المشهور، عن طريق أبى. وكان والدى متحمساً جداً للأخوين ويؤمن بوطنيتهما إيماناً كبيراً، واجداً فيهما عنصرين ممتازين للعمل مع سعد زغلول. وقد كان .. ولذلك عندما رشح زعيم ثورة ١٩١٩ نفسه لانتخابات الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ عن دائرتى السيدة زينب وبولاق معاً، ساعده الأخوان مساعدة عظيمة وانضم إليهما فى ذلك شباب الحزب الوطنى نفسه! ومن الطريف أن والدى كان عضواً مع الأخوين فى الحزب الوطنى!

وكان بين سعد والأخوين صداقة قوية جداً .. وأتى حين من الدهر، كان لسعد توجيه كبير للكتابات التى يسطرها أمين الرافعى. وعند تأليف الوفد المصرى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ - لحضور مؤتمر الصلح فى باريس بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى للمطالبة بتقرير مصير مصر - رشح أبى الشقيقين عنصرين فى الوفد. ورحب سعد زغلول بهذا الترشيح، كما رحب عبد الرحمن الرافعى وشقيقه أمين كل الترحيب بالانضمام، على أن يحصلا على موافقة حزبهما. ولكن اللجنة الإدارية للحزب الوطنى رفضت! وأبلغ الأخوان سعدا بهذه النتيجة. وإن أبديا استعدادهما للعمل

تحت إمرته. وهكذا اختار سعد زغلول أمين الرافعي سكرتيراً للجنة المركزية للوفد كما اختار عبد الرحمن الرافعي عضواً بالمجلس الأعلى للعمليات السرية. وكان كل من الاختيارين بلاشك أعظم وأخطر من عضوية الوفد التي رغب فيها الأخوان.

"ثم حدث خلاف بين سعد زغلول وعبد الرحمن الرافعي الذي يرجع إلى أكثر من عامل. أولها تمسك الرافعي بآراء الحزب الوطني، ولذلك في انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٣. أراد أبي إقناع سعد بترشيح عبد الرحمن كوفدي أو يترك له دائرة مركز المنصورة، ولكن الزعيم رفض الاقتراحين. ويرشح عبد الرحمن الرافعي نفسه، ضد علي عبد الرازق أحد أغنياء المنصورة ومرشح الوفد. وبالرغم من أن أبي كان مرشحاً عن الوفد في دائرة كفر صقر إلا أنه وجد من واجبه أن يساعد صديقه الرافعي لاعتقاده بأهمية وجوده في الحياة البرلمانية. وكان سعد يثور على أبي الوفدي الذي يؤيد مرشحاً للحزب الوطني على حساب مرشح الوفد! على أية حال ينجح الرافعي في هذه الانتخابات بزيادة صوت واحد على منافسه!

"وأحد أسباب الخلاف بين سعد والرافعي أيضاً، كان أحمد عرابي، لأن رأي عبد الرحمن طبقاً لرأي الحزب الوطني أنه .. خائن! ولما كان سعد زغلول يعتبر نفسه ممثلاً للشبان في الثورة العرابية التي سجن من أجلها، فقد

ألمه أن يتهم زعيمه بالخيانة. ودارت بين الاثنين مناقشات طويلة فى هذا الشأن، ومن الغريب أن الطبعة الأولى من كتاب "الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى" للرافعى حملت هجوما عنيفا جدا من صاحبه على عرابى، ولكن الطبعة التى ظهرت قبل وفاته عن "الزعيم الثائر أحمد عرابى" خفف فيها صاحبها هذا الهجوم.

وترجع مهاجمة الرافعى للوفد إلى ما أصابه من جرح منه، فهو أحد رجال ثورة سنة ١٩١٩ ومع ذلك لم يذكر له أحد دوره فيها .. فكان متألما للأمر جدا. وفى جلساتنا الكثيرة شعرت بأحاسيسه. والحقيقة أنه لم يستطع أن يغفر محاربة سعد له فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٦ - وكان ذلك ردا على ما أثاره الرافعى عضو مجلس نواب سنة ١٩٢٤ من معارضة شديدة ضد حكومة سعد زغلول، رآها الزعيم إضعافا للقوى الوطنية والاحتلال جاثم على البلاد. فسعد زغلول كان يرى بوصفه قائدا للثورة أن الثورة لا تحتمل الخلافات بين صفوفها، وعلى الجميع أن يمشوا صفا واحدا حتى تحصل البلاد على الاستقلال .. إن الخلاف هنا بين عبد الرحمن وسعد هو خلاف بين رجل يريد أن يستقل برأيه، وزعيم ثورة يجد أنها تفرض على كل من فيها أن يترك رأيه الشخصى ويحترم رأى الأغلبية.

"وبالمصادفة اكتشفت أن سعد زغلول كان محتفظا بين أوراقه بتلغراف واحد - وهذه ليست عادته - من

عبدالرحمن الرافعي، أرسله إليه أثناء وجود الزعيم في جبل طارق أو بعد الإفراج عنه. يقول فيه "أنا منضو تحت لوائك وأنا معك وإني أؤيدك" ولست أدري ما هو قصد سعد في الاحتفاظ بهذا التلغراف الوحيد.

ويختتم مصطفى أمين حديثه قائلاً .. ولي رأي في عبدالرحمن الرافعي كمؤرخ، إنه لم يكن كذلك بل كان رجل حزب وطني يكتب التاريخ برأيه الحزبي، كما أنه اعتمد على الصحف ولم يعتمد على ما يعرفه هو. وفقد بذلك دلالة الكثير من الأحداث الهامة التي لم تنشر، إما لأن الرقيب شطبها أو لأن الصحفي نفسه لم يجرؤ على نشرها. وهكذا لم يأت تاريخه محايداً أو دقيقاً كما يجب، مع أن الرافعي رجل مخلص ومؤمن.

"ولما كان عبد الرحمن الرافعي ليس رجلاً سياسياً، فهو لم يقو على كتمان عواطفه أبداً. كان يقول ما يؤمن به عندما كان يغضب يزيد احمرار وجهه وهو أحمر من الأصل.

"وأصدقاؤه جميعهم من رجال الحزب الوطني وكذلك الشعراء. وكان يكره مكرم عبيد وينتقد الوفد طالما أن مكرم بالحزب! ولما خرج منه أصبح يعطف على الوفد ولا أعرف السبب!

فكرى أباظة

حدثنى الأستاذ فكرى أباظة قائلا:

"ذكرياتى عن الرجل العظيم عبد الرحمن الرافعى ذكريات طويلة ألخصها بقدر ما فيها عناء، تخرجت من مدرسة الحقوق سنة ١٩١٧، وكنت أعرف عنه أنه من رجال الحزب الوطنى الكبار. وعاصر مصطفى كامل ومحمد فريد وتحمل مسئوليات كبيرة فى الحزب .. فأحببته. وعندما دخلت اللجنة الإدارية للحزب سنة ١٩٢٣ وجدته الرجل الثالث بعد حافظ رمضان رئيس الحزب ومحمد زكى على سكرتير الحزب. وكنت معجبا به كمحام حيث ابتدأ عمله فى الزقازيق والمنصورة وكان من كبار المحامين. وعرف بصوته الهادئ ذى الرنين الجميل، وأنه فى غاية الدقة والأمانة فى سرد الوقائع وفى الاستناد إلى الكتب الفقهية الفرنسية وغيرها. وما من قضية وطنية كبيرة تنظرها المحاكم إلا وتجده مرافعا فيها، وعندما اختلفنا فى الحزب حول فكرة دخول حافظ رمضان الوزارة سنة ١٩٣٧ وانقسمنا فريقين، انضممت إلى معسكر الرافعى.

"وحدث أن قتل أحمد ماهر - رئيس الوزراء فى سنة ١٩٤٥ - عقب استجواب تكلمت فيه فى مجلس النواب ضد الحكومة عندما كان فى طريقه إلى مجلس الشيوخ. وظهر أن قاتله هو محمود العيسوى المحامى بمكتب الرافعى. وقد

حدث أمر مستغرب أثناء انعقاد لجنة إدارة الحزب صباح ذات اليوم برئاسة عبد الرحمن الرافعي، وهو دخول العيسوى علينا وهو في غاية التهيج. ودهشنا كل الدهشة حين تكلم في موضوع كيف تدخل مصر الحرب مع الحلفاء، فأفهمناه أن هذا الرأى يبديه أحمد ماهر وهو رأى له أنصار وله منطق. ولم نفهم أبدا أو نتصور أو نتنبأ بأنه سيرتكب جريمته في الطريق الفرعوني بين مجلسي النواب والشيوخ! وبعد ذلك ساء موقفنا جدا كأفراد حزب وطني بالنسبة لأن هذا الشاب كان منتسبا لمكتب الرافعي بالذات، بالرغم من أنه لم تتسرب أية فكرة بأن الحزب ضالع في هذه المسألة الخطيرة.

"وقد استطاع عبد الرحمن أن يحرر ويبحث ويصدر سلسلة مجلداته القومية للتاريخ المصرى من زمن بعيد من أيام الفراعنة إلى الثورة المصرية سنة ١٩٥٢. وكان مدهشا، ولكن الأدهش من هذا أنك لا تجده يسطر رأيه. ونجده يشير إلى المراجع الإنجليزية والألمانية المترجمة فكانت وثائق مستندات لا يصل إليها الشك. وهذه قدرة عجيبة جدا وجهد بشرى لم اشهد له مثيلا. وقد كانت لى مع الرافعي معاملات شخصية، فهو رجل أمين وصديق للجميع".

محمد إبراهيم جمعة

ويتحدث محمد إبراهيم جمعة عن ذكرياته مع الرافعى قرابة الثلاثين عاما، منذ عرفه بالمنصورة حتى وفاته. ويقول: "إن أهم شيء فى حياة الرافعى هو الاستقامة وتنظيم الوقت. فهو يقرأ القرآن قبل الفجر وعقب الصلاة يبدأ فى كتاباته حتى تبزغ الشمس. وفى السابعة يتناول إفطاره ثم يذهب إلى مكتبه سيرا على الأقدام من الدقى لشارع عدلى، ثم يذهب إلى المحاكم وإن لم يكن لديه مرافعات نجده يطالع الصحف والمجلات ويحتفظ بها للاستفادة بها فى كتاباته ولا يجلد كتابا قبل قراءته. وبعد ذلك يعد مذكرات قضاياه. وفى الحادية عشرة ظهرا يطوف فى الأماكن المجاورة لمكتبه ويلتقى بأصدقائه فى قهوة سفنكس ويتناول بها القهوة أو الكوكاكولا. وبعدها يعود لمكتبه، ولا يبرحه إلا فى الثانية إلى منزله. وعقب تناول غذائه ينام حتى الخامسة ويصحو للمطالعة. وكان يجيد من اللغات الفرنسية ويهبط مكتبه بسيارته ويعود لمنزله قبل العاشرة حيث لا يسهر بعدها".

"وقد سهل له أصدقاؤه بدار الكتب بالقاهرة إمداده بكافة المراجع ولا سيما فى الفترة التى كان فيها منصور فهمى رئيسا للدار. وكان محمود العمرى رئيس قسم الترجمة بدار الكتب، زميل الأديب الكبير والمترجم المشهور محمد السباعى فى مكتب واحد للترجمة، وقد ترجما لعبد الرحمن كل ما طلبه فى ذلك الحين من الإنجليزية للعربية. وبالرغم من إصابة الرافعى بالشلل بيده اليسرى إلا أنه لم ينقطع عن الهبوط إلى مكتبه بالدور الأول بڤيلته

بمساعدة ابنته الكبرى للاطلاع والكتابة وقد كان يشكو فى الفترة الأخيرة من برودة الليل.

أما كيف يقضى الرافعى أوقات فراغه: "ففى أيام الجمع والعطلات كان يقضيها فى عدة أماكن، إما أن يصطحبنى مع محمود سويلم العمرى ونذهب صباحا بالقطار إلى حلوان ونلتقى بأصدقائه فى الحديقة اليابانية، أو نزور صديقه شميس حيث يلعب الطاولة ونعود بعد صلاة الجمعة. وفى الأيام الأخرى كنت أذهب معه صباحا إلى قهوة تريومف بمصر الجديدة. ولم يقتصر برنامج الرافعى فى فراغه على الزيارات بل كان يتصل بى تليفونيا لنشاهد بعض الأفلام التاريخية فى سينما ريفولى أو مترو بعد أن يكون قد حجز لنا سويا.

"وكان عبد الرحمن يصطاف إبان عمله بالمنصورة بمصيف رأس البر، وكنت ألقاه عندما أكون بالمعسكرات المقامة هناك، فى الساعة الحادية عشرة صباحا ونسير طويلا على الشاطئ. وعندما انتقل مع أسرته للقاهرة سنة ١٩٣٢، اتخذ من الإسكندرية مصيفا جديدا. وكان يستضيفنى أسبوعا قبل أن تصل عائلته وعقب إفطارنا ننزل للشاطئ وبعد سيرنا الطويل، يعكف على قهوة بترو ليلتقى بأصدقائه مصطفى فهمى وتوفيق الحكيم ومحمود الدسوقى وآخرين.

ويختتم محمد جمعة حديثه بقوله: إن الرافعى كثيرا ما كان يتساءل هل سيأتى من يكتب عنى؟!!".

الدكتور مصطفى الحفناوى

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوى المحامى ورجل الأعمال:

"كنت طالبا بكلية الحقوق، عندما التقيت بعبد الرحمن الرافعى بمكتب داود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام. وقد سعيت إليه لنشر مقالة عن مصطفى كامل فى ذكرى مرور ربع قرن على وفاته. ومن يومها بدأت صداقتنا. وعقب تخرجى سنة ١٩٣٩ عملت بمكتبه محاميا تحت التمرين لمدة عام، كنت أباشر خلالها قضايا بنك التسليف. وكنت عقب إعدادى لمذكراتى أعرضها عليه لمراجعتها ثم أدفعها لكتابتها على الآلة الكاتبة.

"وقد زاملنى بمكتبه مجموعة كبيرة من المحامين تحت التمرين منهم مصطفى المنزلاوى وزهير جرانة، وآخرون. وكان الرافعى يباشر قضاياه بنفسه ويعد مذكراتها دون الاستعانة بأحد. وعندما افتتحت مكتبا مستقلا كنت أطلب منه الاشتراك معى فى القضايا، وكان شديد الإيمان بالله".

الدكتور عبد العزيز الشناوى

ويقول الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى:

"لقد ابتعد عبد الرحمن الرافعى عن الصغائر وأرخ لمصر الحديثة وكتب كثيرا، وكتبه معروفة فى كل أنحاء العالم العربى. وهاجم كل الأحزاب وعلى رأسها الوفد .. وأشاد بالحزب الوطنى ووظيفته كمؤرخ تلزمه أن يكون

محايدا. وقد عارض الملك فؤاد والملك فاروق وكتاباته قبل الثورة كانت صريحة مهاجمة. أما كتاباته بعد الثورة فكانت مستكينة وممالئة. لأنه فى كتاباته عن الثورة غير منهجه القديم وليته لم ينشرها. وهو لا يعد مؤرخا، لأنه اعتمد على سرد الحوادث أو نقل الأحداث، ويمكن أن نعتبره فقط جامع أحداث .. ويأخذ عليه عداوه للوفد بلا مبرر.

مصطفى المنزلاوى

وأسأل مصطفى المنزلاوى المحامى عما إذا كانت مرافعته فى قضية الحزب الوطنى الجديد التى رفعها عبدالرحمن الرافعى ضد فتحى رضوان قد أثرت فى علاقتهما الشخصية؟ أجاب: "بعد أن حلت الثورة الأحزاب سنة ١٩٥٣ وبعد فترة لا تزيد على سنة، رأيت أنه من الواجب أن أزور أستاذى فذهبت إليه مع صديقى محمد إبراهيم جمعة. وقلت له إن القضية أمرها قد انتهى وهذا اختلاف فى وجهات النظر وأنا أكن لك كل تقدير واحترام ولا أنسى الأيام الجميلة التى قضيتها فى مكتبك حيث تعلمت من المحاماة الشىء الكثير على يديك.

"وعبد الرحمن الرافعى شأنه شأن غيره من السياسيين، ترك السياسة بعد قرار ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ بحل الأحزاب. ولكن لم يفته هو وزملاؤه أن يكتبوا بيانا يعارضون فيه

اتفاقية السودان الموقعة فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣، التى جعلت للسودان حق تقرير المصير إما الاستقلال وإما الوحدة مع مصر. وكان رأيهم أنه لا يجوز أن يقرر السودان مصيره، لأن شأنه شأن محافظة أسيوط ومحافظة الغربية. فهل يجوز أن نقول لمحافظة أسيوط قررى حق الانفصال أو الوحدة، فاعترضوا فى البيان على الاتفاقية لإثباتها من الناحية التاريخية. ولما كان عدد من أعضاء الحزب الوطنى الجديد بالوزارة فلم يسمح بإصدار هذا البيان. وإن كنت أنا ضد هذه الاتفاقية.

"وكنا إذا التقينا عادة، فحديثنا فى مسائل تاريخية أو اجتماعية، وكان الحديث عن الحالة السياسية اليومية هو أقل الحديث! لأن النفوس أصبحت وقتها فى ضيق ولا نجد ما نقوله لأن النشر فى الصحف محجوب كما منع عقد الاجتماعات السياسية".

حلمى شاهين

والقضية التى يرويها حلمى شاهين تعكس ما كان يحمل مؤرخنا الكبير من مبادئ. يقول: "كان عبد الرحمن الرافعى يتولى قضايا البرنس محمد على توفيق ولى العهد، وقد وزع الأخير يوما على جميع موظفيه قطع أرض بسيدى بشر بالإسكندرية، وخصص لعبد الرحمن قطعة. وقدم من حمل العقد للرافعى لتوقيعه وفرحت، لأنه سيكون لنا قطعة أرض

بالإسكندرية، نقيم عليها عشة وشروط البيع دفع خمسين جنيها مقدما وبقية الثمن سيصدر به فرمان بإعفاء الجميع من السداد. ولكن الرافعى رفض التوقيع وكان الثانى بعد سعيد لطفى السكرتير الخاص للأمير، وعندما سألته عن سبب رفضه قال: "إزاى يا أستاذ نقبل حاجة زى كده نأخذ أرض علشان يقول الناس إن عبد الرحمن الرافعى اللى بيهاجم أسرة محمد على الحاكمة، يأخذ من حفيدها أرض شبه هدية!

فى مرآة معاصريه

حظ المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى دراسة أعماله وتكريم ذكراه، حظ الكثير من نابغينا .. التجاهل إن لم يكن الجهل أيضا بنواحى عظمتهم. وهكذا بينما توفر المؤرخ الكبير لأكثر من خمسين سنة على كتابة تاريخ مصر القومى، حتى بلغت مؤلفاته .. اثنين وعشرين كتابا. تتناول الفترة من العصر الفرعونى إلى السنوات السبع الأولى من ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .. لم يحظ الرجل العظيم بكتاب واحد يعرض لشخصيته العصامية ومنهجه وأسلوبه وما قدم من عشرات الآلاف من الصفحات. ويكون كل الذى كتب عنه مقالات متفرقة، أغلبها سريع لا يتعمق حياة وتاريخ عبدالرحمن الرافعى.

وفى السطور التالية بعض ما قيل عن الرافعى عند وفاته.

يقول محمد زكى عبد القادر

"كثيرا ما تساءلت ماذا كان يكون تاريخ مصر الحديثة لو لم يكن عبد الرحمن الرافعى، ولم تكن كتبه التى سجلت هذه الحقيقة بأمانة وإفاضة وشمول؟ وصحيح أنه - رحمه الله - جرى على تسجيل الوقائع المادية وقصرها على الجانب السياسى دون أن تشمل دراسته النواحى الاجتماعية والاقتصادية. ولم يعمد إلى التحليل إلا فى مواضع قليلة، ووسم تحليله فى بعض الأحيان بميوله وأحكامه الشخصية، فإنه مع ذلك قام بعمل وطنى جليل، وقام بخدمة كبرى للتاريخ عامة ولتاريخ وطنه خاصة.

واقتضاه هذا العمل دأبا وبحثا ووقتا وموازنة واستخلاصا للحقائق .. وليس أشق من مهمة المؤرخ يسجل حوادث عاشها وكان طرفا فيها، وغبار المعارك والمواقع أمام عينيه. إلا أن المرحوم عبد الرحمن الرافعى استطاع وسط هذه الظروف جميعا أن يقدم كتبا جديرة بالاحترام وسردا للحوادث يشعر القارئ له بأمانة الكاتب وحرصه الشديد على تحرى الحق، جهد ما يستطيع إنسان أن يفعل.

"لقد تساءلت فى أول هذه الكلمة ماذا يكون تاريخ مصر الحديثة لو لم يكن عبد الرحمن الرافعى؟ وأجيب هنا أنه كفاه فخرا أن لم شتاته وجمع أطرافه وصاغه فى كتب تعطى من يأتون بعده من المؤرخين مادة صالحة جدا لدراسة أعم

وأشمل. فله فضل الرائد الذى مهد الطريق وفتت الصخر وأضاء الكثير من الظلمات، وتحمل العنت والاضطهاد وهو بعض الثمن الذى يدفعه المؤرخ الصادق حينما يكتب عن جيل عاشه.

"ولقد أفدت من كتب عبد الرحمن الرافعى، كما أفاد غيرى منها وكما يفيد كل جيل قادم. فله فى أعناقنا جميعا فضل لا يقدر ومكانة من الاحترام عالية. أجزل الله ثوابه وعزى فى فقده الوطن وأجياله".

(الأخبار - ٥ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب الدكتور حسين فوزى: "عاش الأستاذ الرافعى حياة خصبة منتجة، حافلة بالنضال الوطنى والذهنى فأسهم فى الحياة السياسية بدور مشرق. كما كتب موسوعته التاريخية الكبرى فى ستة عشر جزءا، فكانت المرجع الأول لدراسة تاريخنا الحديث، ونقطة الانطلاق لدراسات المتخصصين والباحثين.

"كان للأستاذ الرافعى منهجه فى دراسة التاريخ، وهو منهج يقوم على جمع التفصيلات والاهتمام بالنواحى الفكرية والاجتماعية إلى جانب الاهتمام بالأحداث، والتعليق على الأشخاص والمواقف من وجهة نظر منصفة سديدة".

(الأهرام - ٩ ديسمبر ١٩٦٦)

ويقول الدكتور حسين فوزى النجار: "إحياء المآثر التاريخية من تاريخ الوطن، أو ما يثير الطموح فى الأمة المصرية من تاريخ الأمم الأخرى، كان بعض ما قامت به مدرسة مصطفى كامل لإثارة الوعى القومى فى الأمة، وآمن الرافعى بهذا الاتجاه.

"أقدم عبد الرحمن الرافعى على ما لم يقدم عليه المؤرخون المدرسيون ممن احترفوا تدريس التاريخ فى الجامعة وفى غير الجامعة، فحين قصرت جهود هؤلاء على المحاضرات الجامعية حمل وحده الجهد.

"وقد نجد الرافعى متأثرا إلى حد ما بالنظرة الأخلاقية للتاريخ، وهى النظرة التى سادت فى القرن التاسع عشر ممثلة للقيم الأخلاقية للمذهب الفردى، إلا أن الرافعى لا يتصدى للتاريخ كفيصل بين القيم الأخلاقية بل يتخذه أحيانا منبرا للوعظ والإرشاد".

(الفكر المعاصر - ١ فبراير ١٩٦٧)

ويقول أحمد بهاء الدين

"عاش الرافعى فترة حافلة وفاصلة فى حياة مصر، وشهد تحولا هائلا فى تاريخها. فقد ولد بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر بقليل. وشب على مشاهد خيانة الحكم الملكى وبطانته بعد هزيمة الثورة العرابية. ثم عاش وسجل

انتفاضات مصطفى كامل ومحمد فريد، كما عاش وسجل ثورتين: ثورة ١٩١٩ التى خاض أحداثها وساهم فيها. ثم ثورة ١٩٥٢ التى سجل أحداثها وإن كان قد تقدمت به السن وعزلته عن مجرى الأحداث.

"لقد اشتغل المرحوم الرافعى بالحزبية والمحاماة. والثورة والوزارة. وقد عرف السجن والانتخابات والنجاح والفشل. ولكنه سوف يذكر فى التاريخ بشىء واحد عظيم هو هذه الأجزاء الستة عشر لكتاب "تاريخ الحركة القومية".

"كذلك لم تكن مهمة عبد الرحمن الرافعى سهلة. كانت هناك صحف، وتعليم وحياة أكثر تحضرا، وكان كتابه أقرب إلى مناهج كتابة التاريخ العصرية، ومع ذلك فقد واجه فى تأليفه صعوبات هائلة .. خمس سنوات من هذا الجهد الهائل، حتى استطاع أن يكتب لنا جزأين من الستة عشر جزءا عن ثورة ١٩١٩ هكذا، كان عبد الرحمن الرافعى يعمل، بجهد مؤسسة نشر كاملة، لكى يدون لنا تاريخه العظيم.

"ولا أعرف بالضبط ماذا يا ترى يكون وقع كتاب مثل كتاب الرافعى على شاب عمره خمس عشر سنة مثلا يقرؤه لأول مرة اليوم. قد يستطيع أن ينظر إلى الكتاب نظرة ناقدة، لأنه قد يرى فيه أشياء كثيرة عادية. ولكن هذا لم يكن شعورى وشعور غيرى عندما كنا فى سنه الخامسة عشرة، قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

"كثيرا ما كان الرافعي هذا واحة في صحراء النفاق الهائلة التي كانت سائدة. فهو الوثيقة الوحيدة المتكاملة التي كانت لدينا، تدين الملكية بالخيانة والتبعية للإنجليز، وتحمي ثقتنا بأنفسنا وبشعبنا وبقدرته على المقاومة والانتصار.

"فالأجزاء التي كتبها في سنوات الشباب "أسخن" من الأجزاء التي كتبها في سنوات الشيخوخة".

"ولا أريد أن أفتعل وجود شبه بين الرافعي والجبرتي .. ولكن الرافعي، بعد مائة وخمسين سنة من الجبرتي، كان مثله لا يأخذ بفلسفة معينة أو مدرسة معينة في كتابة التاريخ. وهو مثله في أنه يؤرخ للوطنية المصرية دون نظر لأي تحليل اجتماعي. وهو مثله في أنه لم يعط أثر الطقس العالمي والأحداث العالمية على الأحداث المحلية نصيبها الحقيقي. وقد انتهى من كتبه إلى عبرة عن علة البلاد، هي في الواقع أمر شخصي غير موضوعي .. إذ لخص الداء في انعدام ما سماه "بالاستقامة السياسية" بين رجال الحكم والسياسة في مصر .. قال هذا وركز عليه وهو يحلل التفسخ العام في سنوات ما قبل الثورة مباشرة، واضعا في المؤخرة ما كان يجب أن يوضع في المقدمة من ظروف موضوعية وتحليل اجتماعي، هو العلة الحقيقية، لا "الأخلاقية الشخصية" التي ركز عليها.

"وإذا كان الرافعى رحمه الله قد أخذ بالمنهج الأخلاقى فى تفسير التاريخ، فقد أخذ بالمنهج الأخلاقى فى حياته أيضا. فقد كان على الدوام، وسط تيارات السياسة المحملة بشتى أنواع العشب السام، جزيرة من الصفاء والنقاء والأمانة. مؤمنا فى قرارة نفسه بأن شيئا واحدا يجب أن يتم قبل أن يمكن عمل أى شىء وهو: الجلاء .. جلاء الإنجليز.

"ولا أعرف إذا كان عبد الرحمن الرافعى قد ترك أوراقا خاصة، ومسودات، غير ما استخلصه وسجله فى كتبه المنشورة أم لا. ولكننى أعتقد أن كل ما كتبه الرافعى ولم ينشره لابد أن تكون محل دراسة. فحتى الوقائع اليومية البسيطة يمكن أن تكون مادة لفهم الجو الاجتماعى والعقلى والنفسى العام فى الحقبة التى اكتفى بأن يؤرخ لها سياسيا.

"وقد كتب الرافعى منذ سنوات، معبرا عن شعور دفين بالأسى وعدم عرفان من الناس بفضله، ولكن نفسه رضيت حين كرمته الدولة بجائزتها التقديرية منذ سنوات. ورضيت نفسه رضاء أكبر حين رأى أحلام الجلاء والاستقلال الوطنى تتحقق بعد أن ظل يكتب من أجلها ما يقرب من نصف قرن".

(المصور - ٩ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب أنيس منصور

"رأيت عبد الرحمن الرافعي لأول مرة في حياتي في الصيف الماضي. ذهبت وفي نيتي أن أترافع أمامه عن قضية: وهي أن يظهر في التليفزيون رغم مرضه. لكي يراه الناس في صورة حياة واضحة. وقد أعفاني المحامي المؤرخ عبدالرحمن الرافعي من المرافعة. لأنه موافق. أما أقاربه فقد اعترضوا خوفا على صحته. ثم أقنعوا وظهر في التليفزيون. وقد ظن الكثيرون أنه مريض جدا، وأنه عاجز عن الكلام. وخيل إلى بعض الناس أنه كان قد مات.

"وجلست إلى عبد الرحمن الرافعي ساعات طويلة أتحدث إليه. أما هو فكان يخطب. كلامه كله ما يزال يحتفظ بلهجة الرجل الذي يخطب أو الذي ينفعل أثناء الكلام. ولم يكن واضحا على وجهه شيء مما يقول. فصوته نحيف ووجهه شديد الاحمرار وابتسامته حلوة صافية. وتحس لأول لحظة أن هذا الرجل: هو أبوك أو جدك. أو تربطه بك صلة قوية جدا وتتحول بسرعة إلى أحد أقاربه. وتخاف عليه أن ينتقل من هذا المقعد إلى السيارة إلى التليفزيون .. وأن يجيء وأقنعه هو بالعدول عن الذهاب إلى التليفزيون .. وأن يجيء إليه التليفزيون كما فعل مع العقاد وطه حسين. ولكنه أكثر حماسة وأكثر حرصا على أن يذهب وأن يتحدث وأن يخاطب وأن يضحك. فهو رجل عاش طول عمره في زحام الناس وضوضاء التاريخ. وأطال الاستماع

فى صبر وفهم وعبر فى عشرين كتابا هى مراجعنا الأولى فى دراسة التاريخ المصرى الحديث.

"ففى كتب عبد الرحمن الرافعى قرأنا جميعا تاريخنا وبعينه نظرنا جميعا إلى ماضينا القريب.

"وكانت لعبد الرحمن الرافعى طريقة خاصة فى كتابة التاريخ. هى طريقته هو. وأسلوبه هو. فهو يعتمد على الوثائق التاريخية فى الدرجة الأولى، ويعتمد على المنهج الأخلاقى فى تفسير التاريخ وهو لاشك رجل مثالى. يريد أن يرى كل شىء جميلا صادقا مخلصا. ويضيق بكل ما هو قبيح زائف شائن.

"وفى حياته الخاصة كان رجل أخلاق. وعندما كنت أداعبه وأسأله: ما رأيك فى الحب؟ كان يتعجب ويقول: كلام فارغ! وعندما أستطرد فى المداعبة وأسأله: وكيف تزوجت؟ كان يرد بقسوة أب على تلميذ شقى فيقول: مش ضرورى حب. يكفى أن تكون الزوجة واعية ووطنية.

"وهو ولاشك يختلف فى أسلوبه عن زميله المؤرخ الكبير توينبى الذى ولد معه فى نفس السنة. فتوينبى يرى أن الدين أو الإيمان بشىء قوى هو الأساس الحقيقى لكل حركات التاريخ المتدفقة والمترددة والمضادة.

"وعندما قابلت عبد الرحمن الرافعى وجدته يقول نفس العبارة التى قالها لى الأديب سومرست موم: لم يعد عندى

شىء: قلت كل ما أستطيع. والبركة فيكم أنتم!

"لقد عرف عبد الرحمن الرافعى متى يتوقف عن الكلام. والذى قاله لنا قبل ذلك كان كثيرا ومشرقا وصادقا .. يرحمه الله".

(الأخبار - ٥ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

"فقدت مصر أحد أعلام الوطنية وأحد التلاميذ المخلصين للزعيمين الكبيرين مصطفى كامل ومحمد فريد. عنهما أشرب حب مصر والتفانى فى سبيل استقلالها ورفعتها، وعنهما تلقن أهمية التاريخ بالنسبة إلى الحركات الوطنية والقومية، ومنهما استمد وحيه وإلهامه، ولذكراهما ظل وفيا حتى آخر أنسام حياته. هذا الحب الكبير لمصر، وهذا الوفاء لذكرى أستاذيه وزعيميه، هما اللذان ألهما عبد الرحمن الرافعى وزوداه بالطاقة الدافعة التى مكنته من تغطية تاريخ مصر الحديث وكذلك تاريخها المعاصر من زاوية نضالها فى سبيل الحرية والاستقلال والتقدم.

"فقد جعل شغله الشاغل أن يدرس تطور الشعب ونمو الحركة القومية، مع الأهتمام بنواحى التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى. وهو يمثل مدرسة التاريخ الوطنى المصرى التى نمت فى إبان الكفاح للحصول على الاستقلال،

وهـى المدرسـة التـى جمعـت بيـن النضـال السياسـى وبيـن الاهتمـام بالدراسـات المتصلـة بالكفـاح الوطنـى. فالقـانون الدولـى والتـاريخ والاقتصـاد - وغـير ذلـك - خاصـة وأن كثـيرين ممـن كتبـوا التـاريخ فـى هـذه الفـترة قـد تخرجـوا فـى مدرسـة الحقـوق الخديويـة.

"ولمـا كـان الرافعـى مـن تلامـذة الحركـة الوطنيـة التـى ركـزت اهتمامـها فـى الحصـول علـى الاسـتقلال، فإنـه برغـم عنايتـه بـالنواحى الاقتصاديـة والثقافيـة والاجتماعيـة، إلا أنـه لا ينتمـى إلـى المدرسـة الاجتماعيـة فـى تفسـير التـاريخ، التـى لـم تعرفـها مصـر إلا بعـد أن انفتحـت معـالم التناقضـات الاجتماعيـة التـى كادت تفتت الحركـة الوطنيـة مـن أعلـى لـولا يقظـة الشـعب.

"وممـا يـدل علـى شـدته فـى الاسـتقلال بـالرأى، أنـه لـم يشـأ أن يلجـأ إلـى السـراى فـى جمـع المـادة الأوليـة عـن عصـر إسـماعيل - فقـد رأى أنـه إذا أحكـم الصلـة بينـه وبيـن هـذه الجـهات وأكـثر مـن الـتردد علـى مكتبـة القصـر الملكـى، صعـب عليـه أن يكتـب عـن عصـر إسـماعيل كتابـة نزيهـة. ولكـن هـذا الاتجـاه منـه إنمـا هـو مـن قبيـل الـتزمت العلمـى - إذ لا ضـير فـى أن يجمـع المؤلـف مادتـه مـن شـتى المصـادر مـادام يزمـع فـى نهايـة الأمـر أن يكتـب بمـا يرضـى ضمـيره العلمـى. واتجـاه الرافعـى هـذا هـو الـذى يفسـر عـدم اعتمـاده علـى الوثـائق غـير المطبوعـة، خاصـة وأنـه أقنـع نفسـه بـأن الوثـائق الجديـدة لا يمكـن أن تغـير مـن الخطـوط الرئيسـية للتـاريخ. وهـذا بطبيعـة

الحال يتضمن إسرافا فى حسن الظن بالمادة التاريخية المطبوعة التى قد لا تخلو من الميول والأغراض الخاصة، حتى وإن كانت وثائق منشورة.

"ورغم أن منهج الرافعى يتصف بالأمانة والصدق والصراحة فى الحكم على أحداث التاريخ وشخصياته - وهى كلها أركان لا غنى عنها بالنسبة إلى البحث التاريخى العلمى - إلا أن تاريخه يتصف بالاستطراد وعدم الترابط وإن يكن من ناحية أخرى من القليلين الذين حاولوا تسجيل تاريخ الشعب المصرى واطراد نموه وتقدمه على تعاقب السنين والأجيال.

"إذ أن المؤلفات الأخرى التى عاصرت موسوعته كانت تهتم اهتماما كبيرا بالحكام والانقلابات السياسية والوزارية، وبالشخصيات الكبرى التى عرفها التاريخ المصرى الحديث. وهو يهتم بالشخصيات البارزة التى كثيرا ما توجه سير الأحداث، بادئا بالفرد الصالح والقلة الموجهة، لهذا تجده يهتم اهتماما خاصا بالمقومات الأخلاقية بإعتبارها الأساس والمنبع.

"ولهذا فإننا حين ننعى عبد الرحمن الرافعى، ونسجل أهميته البالغة بالنسبة إلى تاريخ مصر الحديث، نسجل فى نفس الوقت حاجتنا إلى مدرسة جديدة تعيد كتابة تاريخ مصر الحديث، على أساس الفهم الواعى لتطور البلاد

الاقتصادى والاجتماعى الذى بدونه لا يمكن فهم أحوالها السياسية أو الثقافية. فتاريخنا ليس سجلا للبطولات الفردية، وإن كان زاخرا بالبطولات التى ارتبطت ارتباطا عضويا بتطور البلاد".

(الهلال - يناير ١٩٦٧)

ويقول فتحي خليل

"هو أقرب الناس إلى شاعر الربابة .. أما سيرته التى رواها فكانت حركتنا القومية .. كل مؤرخ يقول عادة إنه سيروى التاريخ بروح محايدة وموضوعية وذلك بالطبع أمر مستحيل .. ورواية تاريخنا القومى لم تخرج عن هذه القاعدة، أعلن عن نيته فى رواية موضوعية محايدة - وخرج كما هى العادة - عن المنهج الذى تمناه.

"كان عبد الرحمن الرافعى رجلا حزبيا، وقد تركت الحزبية بصماتها على صورة السيرة التى رواها، فقد كان شخصية مرموقة فى الحزب الوطنى وظل على رأس فرقة منه حتى صدر قرار الثورة بحل الأحزاب. وقد كتب عن الثورة العرابية تحت تأثير نظرية الحزب القديمة عن الثورة باعتبارها مأساة تسبب فى وقوعها رجل مغرور، عسكرى ليس من رجال السياسة.

"وقد روى الرافعى ملحمة الثورة العرابية وهو يتمنى فى كل فصل من فصولها لو كان على رأس الأحداث رجل اخر. بل لقد بحث الرافعى فعلا عن بديل لعرابى ووجده، شريف باشا، وتصور أن التاريخ كان يمكن أن يغير مجراه لو تغير الرجال.

"كذلك تبنى الرافعى رأى حزبه فى الحكم على ثورة ١٩١٩، ويمكن أن نعتبر روايته عن الثورة وأعقابها نقدا حزبيا مريرا للوفد .. ولكنه فى الثورتين لم يبخس الشعب حقه، فروى التضحيات بحرارة وبكى على الشهداء بحزن عميق.

"ويمكن أن نرى ملامح الحزبية حتى روايته لأحداث السنين السبع لثورة ١٩٥٢ .. هو يعدها تحقيقا لبرنامج الحزب بلا زيادة ولا نقصان، وحين تجاوزت الثورة أقصى أحلامه الحزبية .. عاد ليؤرخ فترة قديمة عابرة.

"وعميد رواة سيرتنا القومية، وطنى تقليدى بكل معنى الكلمة .. يتوجس من الأجنبى إلا نادرا .. ولا تتعدى أحلامه عن العدل الاجتماعى حدود الملكية الزراعية وتحديد أرباح الرأسماليين دون التعرض لأساس النظام وخاصة النظام الرأسمالى .. وهو يطمح فى حياة برلمانية نظيفة أغلبية وأقلية وبينهما احترام متبادل، وفرقة تؤيد بحكمة وأخرى تعارض فى شجاعة مهذبة.

"ولـو كـان لـه الخيـار فـى أحـداث التـاريخ لتمنـى أن يكـون راويـة لا تـرد علـى لسـانه واقعـة عنـف ولا تئـن أحشـاؤه علـى شـهيد، هـو وإن كـان مـؤرخ الثـورات إلا أنـه فـى أعماقـه لا يعشـقها ويفضـل عليـها التـدرج والتطـور بمـا هـو قـائم فـى جـو مـن المناقشـات الشـريفة.

"ومـن هنـا كـانت الثـورات تفاجئـه علـى غـير موعـد، لأنـها لـم تكـن تـراود أحلامـه بـل تفـرض نفسـها عليـه فيحبـها علـى مضـض وهـو يرويـها. ويـدور علـى البيـوت المجهولـة والسـجون والدواويـن ليبحـث عـن أسـماء الشـهداء والسـجناء ليسـجلوا واحـدا واحـدا فـى روايتـه .. وهـو يـروى عـن التضحيـات بحـزن وعـن المنجـزات العمرانيـة بسـعادة وفـرح طفولـى ومـن التضحيـات والمنجـزات ينسـج السـيرة ويـروى فـى هذيـن العنصريـن مـادة الحيـاة لتاريخنـا الوطنـى.

"وهـو صـاحب منـهج مثـالى فـى روايتـه .. يتصـور دائمـا أن الأحـداث كـان يمكـن أن تتغـير مـن جذورهـا لـو تغـير الرجـال. وكـان راويـة سـيرتنا الشـعبية شـجاعا".

(روز اليوسـف - ١٢ ديسـمبر ١٩٦٦)

وينصفه طارق البشرى وهو يقول:

"لعل مؤرخا معاصرا لم يحظ بمثل ما حظى به عبد الرحمن الرافعى من تقدير واهتمام. فالرافعى استطاع بجهد متواصل ودأب نادر أن يقدم للمكتبة العربية دراسة متكاملة لتاريخ مصر الحديث. بل لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه قد قدم الدراسة الوحيدة المتكاملة حول هذا الموضوع. ومن هنا يصبح استطلاع النوازع الفكرية والسياسية للرافعى ودراسة منهجه فى دراسة التاريخ ضرورة ملحة، ذلك أن كتاباته تمثل - بالرغم من كل شيء - أحد المحاور الأساسية التى تشكل فكرة المثقف العربى عن تاريخ مصر الحديثة.

"وإذا كانت أجيال الحاضر المعايش ترى فى كتابات الرافعى - رغم الاقتناع بنزعته الوطنية والتقدير البالغ لهذه النزعة فى جميع ما كتب - ترى فيها قدرا من "التبسيط" للمشاكل والتيارات، ونظرة "محدودة الجوانب" فى تحليل الأحداث التاريخية. فإن هذه الأوصاف لا تلحق فكر الرافعى وحده، ولكنها تشير أيضا إلى اختلاف الصياغة السياسية لعقلية الأجيال الحاضرة على اختلاف تياراتها، من الصياغة المماثلة لجيل هذا المؤرخ الكبير. وذلك نتيجة اختلاف المشاكل وتطور الأوضاع السياسية والأجتماعية. فإذا كان الفكر السياسى للرافعى ما يزال مقروءا للآن، فتلك ميزة امتاز بها الرجل لتأليفه التاريخية، ولكن هذه الميزة أردفت فى ركابها شيئا من سوء الحظ، إذ نظر جمهور الحاضر فى فكره كعنصر فى الحياة السياسية المعيشة لا كفكر ينتمى إلى الجيل السابق، وتطرف كثيرون فقيموه بميزان الحاضر فطفت كفة الرجل ظلما.

"وإن من أفضل ما نثبته مدرسة التاريخ المصرى للرافعى المؤرخ، أن مجموعته التاريخية تكاد تكون أجمع مجموعة صدرت فى عصره وإلى الآن تغطى حقبة التاريخ المصرى الحديث كاملة .. كما تثبت ما قدر للرافعى من أن يضع نقطة البداية للحركة الوطنية فى العصر الحديث، وهى المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية التى غزت مصر فى نهاية القرن الثامن عشر. وكان تعيينه لهذه البداية تعيينا علميا ذكيا يشير إلى حاسة سياسية تاريخية مرهفة. كما تثبت له أن صاغ تاريخ هذه الفترة على مدى مائة وستين سنة صياغة وطنية تتسم بالأصالة رغم ما يظهر فيها من نواحى القصور".

(الطليعة - ديسمبر ١٩٧١)

ويقول أحمد صالح

"وقد عرفت أستاذنا الرافعى من خلال ١٦ جزءا كتبها عن تاريخنا القومى .. ومن خلال لجان كثيرة فى مجلس الفنون لمست أثناءها صلابة رأيه رغم طيبة قلبه .. وإصراره فى الحق رغم بساطة حديثه .. لقد عاش الرافعى يبحث فى كتبه عن الحقيقة .. وكان يقول: إن الحقيقة الوحيدة فى هذه الحياة هى الموت".

(آخر ساعة - ١٤ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب محرر فى "صباح الخير" عن ذكرى لقاء قديم بالرافعى، قائلا قلت له لك طول العمر. قال الرافعى: صدقنى يا ابنى، إن المؤرخ لا يخاف الموت، بل إن الإنسان ذا الرسالة والهدف السامى يربح بالموت، إن الموت هو الحقيقة الوحيدة فى هذه الحياة .. وأنا عشت عمرى .. لقد كنت من جيل كان يلهو ويبكى! دعنى أقول لك، يوم أموت، اكتب عنى، خذ كتبى الأن، واقرأها . وتأملها واستوعبها. طالع يا بنى تاريخ ملوك .. قف عند كل حادثة .. استنبط منها شيئا. ما يعز على أن أبناء بلدى الشباب، هؤلاء الذين فى عمرك .. لا يعرفون عن تاريخهم سوى اليسير! هذه القطرات التى شربتها بمرارة من مدرس التاريخ. آه من مدرس التاريخ! أرجوك لا تكتب هذا الكلام لا أريد أن أغضب أحدا! بينى وبين القبر سنوات، لا أريد أن أبدو عنيفا. علمتنى الأيام الاعتدال .. أهو من سمات المؤرخ؟ لا أدرى. ولكنى أستطيع أن أقول لك إن المؤرخ إنسان محايد .. أسجل الأحداث فى حينها حتى لا تفقد نبضها الحى! ..

قلت للرافعى .. إن حديثى معك حول التاريخ وعمل المؤرخ. قال: التاريخ؟ مجموعة حوادث وتفاصيل يومية لها اهمية .. وهى فى متناول كل يد. وعمل المؤرخ .. تدوين هذه الحوادث .. أنا شاهد الرؤية أمام التاريخ. ولابد لشاهد الرؤية أن يكون أمينا، دقيقا وإلا كان شاهد زور!!!

قلت للرافعي .. إن حديثك العفوى هنا يغريني بالتحقيق الصحفي. قال: صدقني، لن تجد عندى جديداً. اقرأ كتبي تصل إلى مرادك .. قلت مرادي، أن أسجل بعضاً من مذكراتك! قال: مذكراتي أو تاريخي كما تقول: مجموعة خواطر نفسية، ليست قصة تشغل بها قراءك!

وأمسكت بقلمي وكانت هذه السطور مدخلي ومرت السنين، وفتحت عيني هذا الأسبوع على خبر وفاة عبدالرحمن الرافعي .. وتذكرت كلماته. فجاءت "حاضرة" وأصبح الرافعي "خبراً" يدونه التاريخ من بعده!

(صباح الخير - ٨ ديسمبر ١٩٦٦)

ويقول **أنيس منصور** "والرئيس السادات له رأى في هذا المؤرخ أنه رجل منصف .. فعلى الرغم من أن له لوناً سياسياً معروفاً فإنه كان يعرض وجهة نظره الحزبية الخاصة. وفي نفس الوقت يعرض وجهات النظر الأخرى بمنتهى الأمانة. ولذلك فعبد الرحمن الرافعي هو رجل معتدل. وهو ينقل التاريخ والأحداث كما هي .. ويعلق عليها برفق.

وأهمية هذا الموقف الفكرى من عبد الرحمن الرافعي، أنه ليس صاحب فلسفة معينة. هذه الفلسفة تفرض عليه أن يلوى أحداث التاريخ وأشخاصه ليتفقوا مع وجهة نظره.

فكأنه بذلك قائد كبير، وأحداث التاريخ جنود يرتبهم ويجمعهم على هواه. وبذلك يكون التاريخ القوى، ليس إلا التاريخ الذى يراه هو وليس تاريخ مصر.

ولكن عبد الرحمن الرافعى يبرأ من هذا العيب المذهبى الضيق.

وأذكر أننى قدمت المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى برنامج تليفزيونى وجلست إليه ساعات قبل أن يظهر على الشاشة. أما الذى بهرنى فى هذا الرجل فهو هذا القدر الهائل من الصفاء الروحى والمثل الأخلاقية العليا.

ومعنى ذلك أن ما كتبه عبد الرحمن الرافعى لم يقصد بأن يحكى لنا حكاية وإنما يقدم لنا عبرة وعظة من أجل مجتمع أفضل وأكرم.

(الأهرام - ٢٨ أكتوبر ١٩٨٢)

ويقول الدكتور عبادة كحيلة

"وقد يأخذ البعض على الرافعى رؤياه الخاصة للحركة القومية، لكن هذه الرؤيا كانت تصدر عن ذاته وكان مقتنعا بها، ولم يوظفها من أجل خدمة غرض شخصى. ولذا كان معتدلا فى أحكامه، هذا إذا استثنينا ما يتصل منها ببعض خصومه الوفديين، وكلما ابتعد العصر الذى يؤرخ له، كان هذا أدعى إلى اعتداله، وهو فى كتابه الثانى يؤكد حقيقة أن

الشعب المصرى هو صاحب الفضل الأول فى تولية محمد على. وقد جاء هذا ثمرة من ثمرات الحركة الوطنية التى نضجت فى عهد الحملة الفرنسية. وأنه إذا كان هناك رأى ينسب قيام النهضة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى محمد على وحده، فإن مؤرخنا يؤكد أيضا "مواهب الأمة المصرية، وحسن استعدادها للتقدم، وماضيها فى الحياة القومية". بل يذهب إلى أنه لولا هذا لكان محمد على واليا كغيره من الولاة العثمانيين الذين نسيهم الناس ونسيهم التاريخ.

لقد كان عبد الرحمن الرافعى رائد تيار جديد فى كتابة التاريخ، وكان من الممكن أن تكون توقعات هذا التيار أكثر تقدما واطرادا. لكن حركة الكتابة التاريخية لم تنم كثيرا بعد الرافعى، ولا يعيب هذا الرائد نفسه، وإنما يعيب هؤلاء الذين جاءوا بعده ... لقد كان الرافعى رائدا .. وكفى!".

"هوامش على دفتر الزمان" ط١، ص ص ٢٣، ٢٤

يقول الدكتور عبد العظيم رمضان فى محاضرته التى ألقاها فى الندوة التى أقامها المجلس الأعلى للثقافة عن "عبد الرحمن الرافعى": "الرافعى والمنهج السياسى فى كتابة التاريخ"

المؤرخ الأكاديمى غير متورط فى الأحداث، وغير مرتبط

سلفا بتفسير معين لها ينطلق من انتماء سياسى حزبى، فى حين أن عبد الرحمن الرافعى كان مرتبطا - فى قسم كبير من الوقائع التاريخية التى كتبها - بتفسير حزبى مسبق هو تفسير الحزب الوطنى الذى كان ينتمى إليه.

وفى هذا الضوء فإن كتابات الرافعى التاريخية تنقسم إلى قسمين: قسم يسبق ظهور الحزب الوطنى ويسبق تفسيرات هذا الحزب للوقائع التاريخية التى أدت إلى ظهوره، وهى الوقائع التى دفعت بريطانيا إلى احتلال مصر، وتفسيرات الرافعى فى هذا القسم تفسيرات موضوعية، وقسم يحتوى على الوقائع التاريخية التى ترتبط بنضال الحزب الوطنى، وتفسير الرافعى لهذه الوقائع متأثر كل التأثر بنظرة الحزب الوطنى ومتأثر بنشاط هذا الحزب وسياسته.

وهو ما أوجد اختلالا خطيرا فى التوازن فى سوق الوقائع التاريخية ووزنها وتقييم القوى السياسية وعلى سبيل المثال فلا نجد فيما كتبه الرافعى ... "محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية"، شيئا عن نضال سعد زغلول الوطنى ضد سيطرة الاحتلال على التعليم أثناء تولية منصبه كناظر للمعارف، وصداماته مع دانلوب مستشار النظارة ...

كان منهج الرافعى فى رسم صورة الزعيم مصطفى كامل، فقد صوره فى صورة صانع الحركة الوطنية، وأهمل تماما ربطه بنضال الخديو عباس حلمى ضد الاحتلال، الذى هو

الأصل فى نضال مصطفى كامل وبدونه لا يقوم دور مصطفى كامل أصلا!

وهذا الذى فعله عبد الرحمن الرافعى مع مصطفى كامل فعله أيضا مع الزعيم محمد فريد، وهو تحويل كل ما يصدر عنه من فعل البطولة المطلقة والزعامة المبكرة.

والمهم أن الرافعى يصور تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١١ باعتباره تاريخ الحزب الوطنى وحده وتاريخ نضاله، ويغفل تماما دور القوى السياسية الأخرى، التى كانت لها سياساتها الأخرى فى مقاومة الاحتلال البريطانى، وفى الوقت نفسه، وفى إطار مفهومه للبطولة المطلقة المبرأة من الهوى والأخطاء فإنه لا يتردد عند استعانته بمذكرات محمد فريد، التى استعارها لعدة سنوات، فى أن يقوم بتغيير بعض الألفاظ، وشطب بعض العبارات التى وردت بالقسم الأول على وجه الخصوص، والتى ضمنها محمد فريد ما يشير إلى استحسانه الإصلاحات الإدارية والمالية التى أدخلها الإنجليز فى تلك الحقبة المبكرة من حياة محمد فريد.

والدكتور رءوف عباس فى تحقيقه للقسم الأول من مذكرات محمد فريد التى أطلق عليها اسم: تاريخ مصر ابتدأ من سنة ١٨٩١ مسيحية. فقد ذكر أن الرافعى راح يعدل بعض العبارات أو يشطبها، وأضاف بعض الكلمات المساعدة

لتستقيم عبارته، وصحح بعض الأخطاء النحوية التى وردت بها، وهذا كله - كما هو واضح - مما لا يفعله مؤرخ أكاديمى غير متورط فى الأحداث.

كذلك عندما كتب عبد الرحمن الرافعى عن عودة الوفد إلى الحكم فى ١٢ يناير ١٩٥٠ بعد انتخابات حرة، وبعد نضال وطنى طويل دام ست سنوات ضد الحكم المطلق، جعل الرافعى عنوان هذا الفصل "عودة الحكم المطلق"! بما أعطى الإيحاء بأن حكم القصر الذى استمر من ٨ أكتوبر ١٩٤٤ حتى ١٢ يناير سنة ١٩٥٠، كان حكما دستوريا! ...

وفى المقابل فإنه لم يوجه أية إدانة لثورة يوليو فى كتابه: "ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ / ١٩٥٢-١٩٥٩" أى فى الفترة التى حطمت فيها الحياة الليبرالية والدستورية، ونكلت بالقوى الوطنية الديمقراطية والتقدمية، وفرضت دكتاتورية ثقيلة على البلاد، وفتحت أبواب المعتقلات للوطنيين، وألغت الأحزاب وفرضت التنظيم السياسى الواحد.

بل نراه تغزل فى رجال الثورة ونسب إليهم ما لم يسجله التاريخ لهم أو سجلته مذكرات رجال الثورة. فقد وصفهم بأنهم "رجال ذوو عقيدة وإيمان، يدينون بمبادئ وطنية واحدة، وقد استمروا فى اتحادهم وتضامنهم لم تفرق بينهم الأحداث والنزعات الشخصية، ولم يقع بينهم انقسام أو انشقاق مثل الذى حدث فى الثورة العرابية أو ثورة ١٩١٩،

وبقيت كتلتهم سليمة، وقال: إنهم ساروا فى الثورة سيرة قومية، ولم يتأثروا بالأهواء السرية أو العصبية"!

وكان فى وسع الرافعى الامتناع عن نقد الثورة ورجالها، ويكون له عذره بسبب الحكم الدكتاتورى الذى فرضته الثورة. أما الإشادة بهم على هذا النحو، ونسبه أوصاف لهم غير صحيحة تاريخيا، فى الوقت الذى وصف حكم الوفد بأنه "حكم مطلق"، فإن ذلك يوضح اختلال موازين الحكم التاريخى، وفشل "المنهج السياسى فى كتابة التاريخ" فى تقديم تاريخ صحيح غير مبرأ من الهوى.

وينقد الدكتور **أحمد عبد الحميد يوسف** فى محاضرته "الرافعى مؤرخا للتاريخ القديم"، التى قدمها فى ندوة "عبد الرحمن الرافعى" وأقامها المجلس الأعلى للثقافة .. ينقد منهج الرافعى فى "تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة منذ فجر التاريخ حتى الفتح العربى" بقوله:

"أورد أقسام التاريخ المصرى القديم - فى عصوره - على خلاف عرف المؤرخين أقساما ثلاثة ليس غير ... ومهما يكن من شىء، فقد استهل الرافعى تاريخه أو تأريخه بوحدة مصر أو اتحادها أى فى صبح التاريخ لا فجره على يد من سماه واشتهر باسم منا. وهو بذلك لم يبدأ بما ينبغى البدء به من تاريخ الحركة وجهود الشعب المصرى منذ فجر التاريخ ... وظاهر أن الرافعى إنما اقتصر على ما

روى برستد عام ١٩٠٥ - أى زهاء نصف قرن من قبله - ... فإن المؤرخ إنما يستقى دراسته قبل كل شىء من المنابع والأصول .. فهل فعل الرافعى ذلك؟! وإن المؤرخ ليستخلص الخبر كما يستقطر الصيدلانى من الدواء لعقات من طن من النبات، وإلا كان التاريخ عنعنة خلف عن سلف، وقبسا من لبس. فما بالنا أن جاء ميحا من وشل مما نجرعه طلاب التاريخ فى مراحلهم الباكرة .. وفى منابع التاريخ المصرى القديم عن الشعب المصرى القديم – بشرط العناء – رى وغناء .. ثم كلمة أخيرة أسوقها فى ختام هذا الحديث من تعلم لغة قوم أرخ لهم".

ويقول الدكتور رفعت السعيد فى "مصر .. التنوير عبر ثقب إبرة" معقباً عن دور الرافعى فى نقابة المحامين فى فصله "عبد الرحمن الرافعى .. محاميا. جناية السياسى على المهنى": "لسنا نريد هنا أن نلوم الرافعى. فقط نلوم السياسى الذى كان دوما ضمن حزب صغير جدا، محدود القوة لا يستطيع أن يلبى طموحات قادته، فيدفعون ثمن تحقيق طموحات لم يكونوا مؤهلين لها بسبب انتمائهم الحزبى، ويكون الثمن باهظا.

"إنها ذات المسيرة التي خاضها كل البرجوازيين الصغار من السياسيين مستندين إلى كفاءات شخصية، ومناورات مجدبة، وغير

مجدية لسبب بسيط هو أنهم نابعون من فئة اجتماعية ضعيفة اقتصاديا، ومن ثم اجتماعيا وسياسيا .. وتدور بهم المناورات رغم كل نواياهم الحسنة لتوقعهم فى الخطأ، وأحيانا فى الخطيئة.

"مرة أخرى، وليست أخيرة، أنه ثقب الإبرة الضيق، والذى قد ينفرج أحيانا أو يضيق فى أحيان أخرى لكنه يبقى دوما ومهما اتسع مجرد ثقب إبرة.

"ويصبح المثقف / السياسى / الليبرالى منصاعا له حتى ولو كان فى قامة عبد الرحمن الرافعي، فأما أن يبذل محاولات الانفلات عبر ثقب الإبرة متخليا عن الكثير من القيم والمبادئ والحق والعدل .. وإما أن يتباعد بعيدا عن الضوء.

"ويمكن القول أن طريقا ثالثا كان موجودا ومفترضا .. وهو الرفض للإبرة وثقبها معا، وتحدى هذا الوضع برمته .. والتأكيد على الحق فى ليبرالية متكاملة، أو شبه متكاملة.

"هذا الطريق كان موجودا دائما .. وخاض البعض غماره، ساروا فوق شوكه بأقدام قادتهم دوما نحو .. السجن. وما كان للكثيرين وخاصة من مثقفى البرجوازية الصغيرة أن يحتملوا هذا الشوك ولا ما يفضى طريقه إليه.

"وما كان للرافعي مثلا .. (كنموذج نموذجى) أن يحتمله.

"فكان ما كان".

(ط١ ص ص ١٠٧، ١٠٨)

كلمات لعبد الرحمن الرافعى

- إن العاطفة الوطنية ليست بمنيلة أمة الاستقلال ما لم تبلغ فى النفوس مكانة تلهم صاحبها - الاستقلال - وإيثاره الموت على حياة فى استعباد.

- الجمعيات أول مظهر عملى للشعور الوطنى الصحيح وأجل طريقة نخدمه بها وتحميه من العبث والتبدد.

- رأس المال الاحتلال فى قلوبنا، إن شئنا استبقيناه وإن شئنا نزعناه من بين جوانحنا فلا يعود له مقام بين ظهرانينا. فصرح الاحتلال قائم على عمادين: حسن الظن به من جهة والوهم من جهة أخرى. فبحسن الظن ترضى الملايين من البشر بتحكم الأجنبى فيهم فيثبتون سلطانه. وبالوهم يعطون له قوة لم يكن يحلم بها فيخافون من شىء هم خالقوه".

"تبدد الشعور الوطنى وتجمعه"

اللواء ٩ مارس ١٩٠٨

- الرسميات فى نفسها لا تؤيد حقا ما، لأنها لا تحكم الواقع ولكن الواقع يحكمها، مثلها فى ذلك كمثل القوانين بين الأفراد إذا لم تلائم الظروف والأخلاق اضطر واضعوها إلى تبديلها أو يهمل تطبيقها بالفعل. فنحن أمامنا أحد طريقتين (أولا) إما أن نجارى أولئك اليائسين الذين يمالئون الواقع فيكسبونه صبغة شرعية لم يكن يحلم بها. (ثانيا) وإما أن نتمسك بحقوقنا فيجب علينا أن نسرع فى تغيير الواقع حتى يلتئم معها.

"آمالنا فى الدستور / ١ - اللواء ٤ أكتوبر ١٩٠٨"

- إن الوسائل التى يتبعها أى احتلال أجنبى تتبدل بتبدل حالة الأمة، التى يريد إذلالها، لأن هناك مبدأ استعماريا جعلته الدول الاستعمارية رائدا لها فى سياستها مع الأمم التى وقعت فى قبضتها، وهو أن القوة المسلحة لا تصلح لأن تكون دعامة ثابتة لإرضاخ الشعوب وأن أقوى أساس للحكم الأجنبى ما يشيد على عيوب الأمة والحكومة.

- فإذا أردنا أن نعرف أين صرح الاحتلال الذى شيده فى بلادنا وعلام أقامه فلننظر إلى صميم قلوبنا. هناك ترى رأس ماله الذى عليه يعتمد ومنه يستمد قوته.

"آمالنا فى الدستور / ٢" - اللواء ١١ أكتوبر ١٩٠٨

- إن المصائب والآلام خير أستاذ للإنسان وخير سائق له في طريق الكمال.

- إن حب المال إذا تسلط على فكر الإنسان واستحوذ على وجدانه صرفه عن الآمال الكبيرة وأورثه أخلاقا دنيئة تدعو إليها ضرورة الاستزادة منه.

"آمالنا في الدستور / ٤" - اللواء ١٧ أكتوبر ١٩٠٨

- إن قلوبنا قد أصبحت علقا لا تحركها صيحات الدعاة المرشدين، والنفوس لا تتحرك إلا إذا أحست فما دام الإحساس ينقصنا فقل على كتابة كتابنا ألف سلام.

- أصبحنا نرى الكاتب يظهر بمظهر الجندي المستبسل في خدمة بلاده وإذا أطل الإنسان على داخل قلبه راه مأوى لأسوأ النيات وميدانا لأفظع الجرائم والمنكرات.

"آمالنا في الدستور / ٥" - اللواء ٢١ أكتوبر ١٩٠٨

- إن الطريقة المثلى في الكلام على عيوب الأمة هي إشعار الناس بها وحملهم على اتباع طريق عملي للتخلص منها. فعلى الذين يريدون مداواة عيوب أنفسهم أن يرجعوها إلى عيب أخلاقي رئيسي (كضعف العزيمة أو الجبن مثلا) ليسهل عليهم مداواة ذلك العيب الرئيسي. فإذا ما تخلصوا منه رسخ في قلوبهم مبدأ التخلص من عيوبهم فداووها بعد ذلك واحدا بعد واحد.

"رجال الغد" - اللواء ٢٠ يونيو ١٩٠٩

- فلنأخذ بأسباب القوة تقو حجتنا أمام خصومنا وننل حقوقنا التى نجاهد فى سبيلها.

"حقوق الشعب" ص ٦٥ ط ١

- الحكومة التى تغتصب من الأفراد حريتهم وتسلبها منهم حتى لا تدع لهم حرية أو سلطة ما، ثم تستبد فى استعمال تلك السلطة المسلوبة من الأمة .. مثل هذه الحكومة حكومة ظالمة غير شرعية يحل للأفراد أن لا يسلموا لها فى سلطتهم التى تحاربهم بها وأن يستردوها منها لتكون سلطتهم بيد مجموعهم.

"حقوق الشعب" ط١ ص ٢٨

- الحق والقوة توءمان أو كائنان متلازمان خلقا معا وعاشا معا فلم يفترقا فى خلال القرون الماضية لحظة واحدة، وسيظلان متلازمين إلى ما شاء الله.

"حقوق الشعب" ط ١ ص ب

- فالناس منذ خلق الله العالم لم يحافظوا على حقوقهم ولن يحافظوا عليها إلا بمقدار ما لديهم من شدة وبأس وقوة. وكذلك الأمم تتصارع وتتنازع فى معترك الحياة العامة ولا يسود فى تنازعها الأبدى مبدأ أيدته الحوادث قديما

وحديثا مثلما يسود بينها مبدأ القوة. فكم ديست للأمم حقوق لأن القوة تنقصها. وكم انتهكت لها حرمات لضعفها وقلة حولها.

"حقوق الشعب" ط ١ ص ١

- ذهب أولئك الشهداء العظماء - فى الثورة الفرنسية - ضحية ظلم مواطنيهم. ولم يعرف الشعب خطأه إلا بعد أن أنفذ فيهم سهمه. فأدرك أنه أساء إلى من أحسنوا إليه وقابل بالجحود جميل من وقفوا حياتهم على خدمته وإعلاء كلمته فسمع فيهم أقوال الوشاة والكذابين. وأخذهم بسعايات الدساسين والمرجفين وهكذا.

يقضى على المرء فى أيام محنته

حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

"الجمعيات الوطنية" ط ١ ص٦٤

- فإن خير الحقائق وأبلغ العظات ما تنطق به حوادث التاريخ. وجدير بنا ونحن أمة تجاهد فى سبيل حريتنا واستقلالنا أن نتتبع خطوات الأمم التى سبقتنا إلى تحقيق أمالها الوطنية.

"الجمعيات الوطنية" ط١ ص ب

- إن استبداد حكومة أهلية فى بلاد يحتلها الأجنبى بجنوده وتغلغل فيها نفوذه هو إضعاف للحركة الوطنية التى ترمى إلى تحرير البلاد وفل لأسلحة الجهاد القومى وخدمة للنفوذ الأجنبى فى البلاد.

"رسائل وخطب ومقالات" ج١ ط١ ص٣

- أصبحت حركتنا المصرية فى حكم التاريخ أنموذجا صالحا لنهضة الشعوب التى تجاهد فى سبيل حريتها جهادا سلميا. ولا يجمل بنا بعد أن نالت بلادنا تلك المنزلة أن نقف فى منتصف الطريق ونقبل الهوادة فى حقوقنا ونرضى بالنكوص على الأعقاب والرجوع إلى الوراء. بل يجدر بنا كلما تضاعفت العقبات وتعددت الصعاب أن نروض أنفسنا على مقاومتها وتذليلها والمضى فى سبيلنا، لأننا عندما أخذنا على أنفسنا تبعة الجهاد القومى لم نكن نعتقد أن نجد السبيل أمامنا مذللة والغاية سهلة المنال بل وطنا النفس على استمرار الكفاح والنضال والتذرع بالثبات والمثابرة.

"رسائل وخطب ومقالات" ج١ ط١ ص١١٠

- نحن لا نكره المعاهدات التى تصون حقوقنا، ولكن إذا كانت الظروف والمشاهدات تدلنا على أن هذه المعاهدة المعروضة علينا مضيعة لتلك الحقوق، فأولى بنا أن نترك باب المسألة المصرية مفتوحاً لو اضطررنا إلى تأجيل البت

فيها إلى الجيل القادم. فهنالك تبقى حقوق الوطن سليمة من العبث والضياع ولا نكون قد جنينا على ذلك الجيل أو قيدناه بقيود بسلاسل ينوء بها ويئن من ثقلها.

"رسائل وخطب ومقالات" ج١ ط١ ص٩٥

- إن من حق كل دائرة انتخابية أن تطلب من نائبها أن يقدم لها حسابا عن أعماله فهأنذا أؤدى واجب الأمانة وأقدم حسابا عن أعمالى فى دار النيابة.

"أعمالى فى مجلس النواب" ط١ ص ب

- لكل أمة صفحة من الحياة القومية تحتوى تاريخ الجهود التى بذلتها والآلام التى عانتها فى سبيل حريتها واستقلالها. تلك الصفحة أول ما تعنى كل أمة بتدوينه، ففيها ذكريات بجهاد الماضى، وعبر لجهاد الحاضر، وعظات لجهاد المستقبل، فيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة فى أداء الأمانة القومية، تلك الأمانة المقدسة، وديعة السلف للخلف، ووصية الآباء للأبناء.

"تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر"
ج١ ط٣ ص٧

- فإلى عهد إسماعيل ترجع إذن مقدمات الثورة العرابية، وهى تطور للحركة الوطنية التى ظهرت فى ذلك العهد، وعندى أن هذه الحركة كانت أسلم عاقبة وأدعى إلى الإعجاب والتقدير من الثورة العرابية. ذلك أن الحركة الأولى كان قوامها نهضة الأفكار والآراء، ونضج العقول والقرائح، وتبادل الرأى والمشورة، على حين جاءت الثورة العرابية وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسب، فتضاءل العامل الفكرى والمعنوى، فى طورها الأخير. وخفت صوت الحكمة والتعقل، إلى جانب صوت السيف والمدفع، ومن ثم تنكبت الحركة سبيل الرشاد، وركبت متن الشطط، وانفسح المجال للدسائس الأجنبية تنصب أشراكها، والمطامع الاستعمارية تدبر مكايدها، حتى انتهت الثورة بالاحتلال الإنجليزى الذى مازلنا نعانيه إلى اليوم (سنة ١٩٣٢).

"عصر إسماعيل" ج١ ط١ ص٧

- إن العرابيين والخديو كلاهما لم يقدر مضار الانقسام ولم يتبين عواقبه، وكلاهما يتحمل تبعته ومسئوليته، ففى الحق أن تبعاتهما من هذه الناحية تكاد تكون متعادلة متكافئة.

"الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى" ط١ ص٨

- على أن الذى يؤخذ على العرابيين فى مدة الحرب أنهم لم يبذلوا من المدافعة والاستبسال فيها ما يثير فى الأمة روح الإقدام والتضحية، مما هو أخص واجبات زعماء الثورة فى ساعة الخطر. كما أنهم بعد وقوع الهزيمة، وفى خلال محاكمتهم، لم يقفوا الموقف اللائق بمن جعلوا أنفسهم قدوة للأمة، بل استحبوا الحياة وآثروها على الواجب الوطنى. فتضاءلت فى صفحة الثورة روح البطولة والتضحية، تلك الروح التى هى غذاء الحركات القومية، ومادة الحياة فيها، وسبيل الأمم إلى المجد والعظمة.

"الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى" ط١ ص٨

- إن دراسة الثورة العرابية تقتضى أن نستجلى حسناتها وأخطاءها، ونوفيها ما لها وما عليها، وبذلك نستطيع أن نتفهمها على حقيقتها، ونؤدى الواجب نحوها.

"الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى" ط١ ص٨

- فشخصية عرابى لم تساعد على إنجاح الثورة، بل كان بها من نواحى الضعف والنقص ما جعلها من أهم العوامل فى إخفاقها.

"الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى" ط١ ص٥٢٠

- لم تقدر الأمة بعد "محمد فريد" حق قدره، ولا عرفت له عظيم منزلته، ولقد غمرت الحوادث تاريخه وفضله على الحركة الوطنية، فمن الحق على الذين ساهموا فى الجهاد تحت لوائه، أن ينشروا للملأ هذه الصفحة المجيدة من تاريخنا القومى، صفحة محمد فريد وعصره.

"محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية" ط١ ص٣

- عمت الثورة -١٩١٩- أرجاء البلاد، دون أى تدبير أو تنظيم، لم تكن ثمة هيئة أو جماعة تدعو إليها أو توجهها، بل شملت البلاد فجأة، وعلى غير انتظار. وكان ذلك من مظاهر جلالها وروعتها، ظهر فيها فضل الشعب، إذ أدرك بفطرته السليمة أن الحركة الوطنية إنما قامت ضد الاحتلال الأجنبى، وكان مقصودا منها بداهة جلاء الاحتلال عن البلاد، وإن الاستقلال الصحيح لا يتحقق إلا بالجلاء، على هذا الأساس قامت الثورة. فبرنامج الثورة كان أوسع مدى من برنامج الوفد .. ولم تكن الثورة وليدة الوفد، ولا وليدة سعد، بل كلاهما وليد الثورة. هذه حقيقة يقتضينا الإنصاف أن نذكرها، تقريرا للواقع، وإبرازا لفضل الشعب فى ثورة سنة ١٩١٩.

"ثورة سنة ١٩١٩" ج١ ط١ ص٥

- كان أهم ما شغلنى أنى تساءلت هل يؤمن المؤرخ أن لا ينحرف عن جادة الإنصاف والاعتدال إذا هو أرخ فترة عاصرها وساهم فى حوادثها، وهلا يكون متأثرا إلى حد ما بشعوره الشخصى فى هذه الحوادث. وبعد أن فكرت فى هذه الناحية، وجدت أنه ما دام الحق رائد الإنسان ووجهته، فلا يصح أن يتأخر عن تأريخ الحوادث التى عاصرها، ولا تصرفه عن هذه المهمة خشية التأثر بشعوره الشخصى. فإن هذا الشعور قد يكون أدعى لتجربة الصدق والحق، لكى يطمئن ضميره إلى أن شعوره لم يكن له دخل فى عرض الحوادث وإيرادها وتفسيرها بعيدا عن التحيز أو التحامل. ومن ثم اعتزمت أن أؤرخ هذه الفترة، وأخذت نفسى بأن ألتزم الصدق والإنصاف فى تدوينها وشرحها وتفسيرها، ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

"فى أعقاب الثورة المصرية" ج١ ط١ ص٣

- وفكرت ثم قدرت، وانتهى بى البحث إلى أنه لا يجوز لمن يتصدى لكتابة التاريخ أن يدخل عنصر المجاملة فيما يكتب، وكل ما يملك إذا أراد أن يجامل أن يدع الفترة المحرجة، ويرجئ تأريخها حتى حين، ولكن إلى أى أجل يرجئها؟ ولماذا يرجئها؟ وإذا كان فى مقدوره أن يؤرخها كما أرخ المراحل التى سبقتها، ففيم إذن يتنحى عن تأريخها؟ لقد فكرت فى هذا الأمر مليا، ولم أكتم عن نفسى دقة الموقف وما يلابسه من حرج، وانتهيت إلى أنه

ليس من حقى أن أقف بالكتابة فى تاريخنا القومى عند حد قديم أو حديث، وما دمت قد حملت نفسى مهمة وضع هذا التأريخ، فعلى أن أؤدى الرسالة كاملة، قدر ما وسعنى الجهد.

"فى أعقاب الثورة المصرية" ج١ ط١ ص٤

- وهنا أرى واجبا على أن أوجه النصح إلى الشباب المثقف أن لا يتورطوا فى اعتناق الأفكار والنظريات الشيوعية الهدامة، تحت تأثير الوهم بأنها السبيل إلى النهوض بالبلاد اقتصاديا واجتماعيا. فإن هذه النظريات إنما ينشرها دعاة مغرضون يرمون إلى هدم النظم الاقتصادية والاجتماعية كافة، وإثارة الحرب بين طبقات المجتمع. وليس هذا الهدم هو السبيل إلى زيادة ثروة البلاد الاقتصادية، ولا إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، فإن ثروة البلاد الحالية إذا هى وزعت بالتساوى على جميع السكان، كما ترمى إلى ذلك النظريات الهدامة، لما خص كل مواطن شىء يذكر، ولبقيت مشكلة الفقر مضروبة على البلاد. والعلاج الناجح لهذه المشكلة هو أولا فى زيادة موارد الثروة العامة للبلاد، لأن هذه الزيادة تعود حتما بالنفع على جميع المواطنين مباشرة أو بطريقة غير مباشرة. ويجب إلى جانب ذلك تنظيم هذه الموارد وتطبيق النظم التى تقلل الفوارق بقدر المستطاع بين الطبقات، وتفرض على الأغنياء الالتزامات التى تقتضيها العدالة الاجتماعية.

فالنظريات الشيوعية تسىء إلى حياة البلاد القومية، وخاصة لأن لها طابعا خطرا، إذ تقوم عليها هيئات تتسم بالدولية. وتعمل على إضعاف روح الوطنية فى نفوس الشعوب، وإحلال النزعات الدولية محلها، بحجة أن التعصب للوطنية Chauvinism هو من أسباب انتشار الحروب، وبالتالى من عوائق استتباب السلام فى العالم، وهى دعوى باطلة، يدخلها الشىء الكثير من التضليل والمغالطة، ويراد منها تفكيك الروابط الوطنية بين أبناء الأمة الواحدة، وبالتالى إضعاف روح المناعة فيها تمهيدا للسيطرة الأجنبية عليها.

إن التعصب للوطنية الذى كان فى بعض المواطن من أسباب الحروب، هو المرادف لسياسة الطغيان والفتح والتوسع، تلك السياسة التى انفردت بها الدول الاستعمارية. أما نحن الضعفاء، الفقراء فى الوطنية - لأننا لا نزال مع الأسف نشكو انخفاض مستوى الوطنية فى نفوسنا - فمن الخطر على كياننا وعلى نهضتنا أن نغلب عليها الدولية. وإذا نحن قوضنا عوامل الوطنية فى نفوسنا، فماذا يبقى لنا من عدة نناضل بها عن كياننا فى هذا الخضم من المعترك العالمى الذى لا تسود فيه إلا القوة، ولا يحترم فيه للضعيف حق ولا كيان.

ومن عجب أن تصدر الدعوة إلى طرح العقائد الوطنية عن بلاد (روسيا) عرفت فى تاريخها القديم والحديث بنزعة

التوسع فى الفتح والسلطان، والدأب على السيطرة على الدول المجاورة وغير المجاورة. وهى لا تقل فى الطغيان والعدوان عن أعرق الدول فى التوسع والاستعمار، ولا تختلف روسيا الشيوعية عن روسيا القيصرية فى هذه الناحية. ولكن دعاتها يروجون مبادئهم الهدامة تحت ستار براق، يستهوون به البسطاء، لكى تتحلل عقائدهم الوطنية، فيجد أولئك الدعاة منفذا إلى التسلط على بلادهم.

فهذه الدعاية إذا تسربت إلى صفوفنا، كان فيها القضاء على الروح الوطنية التى نحن أحوج ما نكون إليها. هذا إلى أنها ترمى إلى القضاء على الملكيات الزراعية المتوسطة والصغيرة، فضلا على الكبيرة. لأن الشيوعية ترى فى صغار الملاك الزراعيين طبقة من الرأسماليين تجب محاربتهم وتجريدهم من أملاكهم. وهو أساس يناقض على خط مستقيم الأساس السليم الذى يجب أن نسعى إليه، وهو الإكثار من الملكيات الصغيرة والمتوسطة لكى يرتفع المستوى الاجتماعى فى بلاده.

فليحذر الشباب المثقف هذه الدعايات الضارة بنا وطنيا واجتماعيا، الهادمة لأقدس شعور فى الإنسان، وليحرصوا على روح الوطنية، وليعملوا على إذكائها وإرساخها فى نفوسهم ونفوس مواطنيهم. ولا يكونوا عمال هدم لهذه الروح العظيمة التى هى الأساس الوطيد لنهضة البلاد، وهى الحصن الأول والأخير لكيانها وحياتها، ولا يعملوا بقصد أو

بغير قصد على تحويل الجهاد القومى، من جهاد فى سبيل الوطن والمجموع، إلى نضال بين الطبقات، فإن هذا النضال يضعف ولا ريب جبهة مصر فى جهادها القومى العام.

"فى أعقاب الثورة المصرية" ج٢ ط١ ص٢٧٨

- يجب على الشباب أن ينتظموا جماعات تعمل على الرقى الاجتماعى ويؤسسوا هذه المنظمات إن لم تكن موجودة.

وعلى الشيوخ أن يرعوا هذه المنظمات ويمدوها بالعون والمساعدة، لقد رعى المرحوم الدكتور على إبراهيم باشا جهود الشباب فى مشروع القرش، فكان لرئاسته للجنة هذا المشروع فضل كبير فى حسن توجيهها وما نالته من مكانة فى المجتمع، وكذلك يجب أن يفعل الشيوخ بالنسبة لمنظمات الشباب.

على هذه المنظمات واجب كبير وهو أن يساهموا قدر ما يستطيعون فى إصلاح حالة المجتمع من الوجهة الاجتماعية والأخلاقية والصحية والرياضية.

ولعل فى وجود هذه المنظمات ما يصون أخلاق الجيل الجديد من التبذل ويجنبه الخروج على أوضاع الفضيلة والآداب، إنى أرى ظواهر وبوادر يؤسف لها تدل على هذا الخروج. وتبدو هذه الظواهر فى تفكير بعض الشباب

ومسلكهم وآدابهم فى المجتمعات، وفى حياتهم الخاصة والعامة. فلو وجدت هذه المنظمات فقد تكون وسيلة تصرفهم عن النظريات الهدامة الشيوعية التى تهدف إلى تقويض دعائم القومية والأخلاق فى نفوس المواطنين.

إن جهود الشباب فى المنظمات الاجتماعية والاقتصادية هى بلا مراء أجدى على البلاد من المنظمات والأعمال الإرهابية التى اجتذبت فى فترات متقطعة بعض الشباب وغرست فيهم نزعة الإجرام والاغتيال. تلك النزعة التى تتملك النفوس الضعيفة الخالية من العلم والأخلاق والإيمان والوطنية.

على كل شاب أن يساهم فى بيئته أو قريته فى الحركة التعاونية، وفى مكافحة الأمراض والوقاية منها فى محاربة الأمية، ونشر التعليم والثقافة. وعلى الشباب أن يتعمقوا فى الدرس والبحث والاستقصاء، إذا تكونت فئة من الشباب المزودين بالعلم والأخلاق وتوافروا على المساهمة فى النهضة الاجتماعية وجدت منهم البلاد مواطنين صادقين مخلصين وجندا مجاهدين فى سبيل تقدم المجتمع وتحريره مما ينتابه من العلل والآفات.

"فى أعقاب الثورة المصرية" ج٢ ط١ ص٣٦٩

- والحركة القومية كما قصدتها وعنيتها فى كتبى السابقة هى الجهود التى بذلها الشعب المصرى بمختلف طبقاته فى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة والذود عن كيانها والدفاع عن استقلالها والثورة على كل من يتعدى على هذا الاستقلال، ومقاومته بكل ما أوتيت من حول وقوة.

"مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى" ط١ ص١١

- إننا أحوج الأمم إلى تعزيز جيشنا، لأننا فى الواقع تأخرنا كثيرا عن الأمم الأخرى فى تكوين الجيش نحو خمسين سنة. ولا أقول إننا مسئولون عن هذا الإهمال الذى امتد خمسين سنة. بل أقول إننا منعنا من تعزيز الجيش طوال هذه السنين. فإذا كنا منعنا عن أن نكون جيشنا. فيجب أن نعوض هذا التأخير بأن نعزز الجيش بكل ما استطعنا من حول وقوة ومال.

فإذا ما طلب منا إقرار اعتمادات إضافية، فمن العدل أن ينفرد بتحملها طبقة الأغنياء، متوسط اليسار. فالطبقات الغنية والمتوسطة اليسار هى التى يجب أن تتحمل هذه الاعتمادات الإضافية، ويكفى ما تتحمله الطبقات الفقيرة من أعباء.

"أربعة عشر عاما فى البرلمان" ط١ ص١٥١

- إن مـن يـهوى التـاريخ لا تفارقـه هـذه الهوايـة. بـل تلازمـه علـى تعـاقب السـنين.

"أربعة عشر عاما فى البرلمان" ط١ ص٣

- والـرأى عنـدى أن مقدمـات ثـورة ٢٣ يوليـة سـنة ١٩٥٢ ترجـع إلـى سيرة الملـك السـابق فـاروق فـى الحكـم، فـإن حكمـه كـان هـو التمـهيد للثـورة. أمـا أسـباب الثـورة وبواعثـها فـترجع إلـى أبعـد مـن ذلـك وأعمـق، إذ هـى تمتـد إلـى بـدء الاحتـلال البريطـانى لمصـر سـنة ١٨٨٢، لأن ثـورة ٢٣ يوليـة هـى قبـل كـل شـىء ثـورة علـى الاحتـلال والاسـتعمار.

"مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢" ط١ ص٣

- ولا غـرو فالسـيد جمـال الديـن هـو قبـس مـن نـور العـترة الحسـينية العلويـة، فكـأن روح الإمـام علـى تمثلـت فيـه، وتجلـى أثرهـا فيمـا يكتبـه أو يمليـه.

"جمال الدين الأفغانى باعث نهضة الشرق" ط١ ص٤٩

- تضـاءلت الـروح الوطنيـة فـى النفـوس، وصـار عـدم الاكـتراث للوطنيـة شـعار هـذا الجيـل، والجيـل الـذى تـلاه، وأصبـح سـبيل النجـاح سـواء فـى مناصـب الحكـم أم فـى الحيـاة الاجتماعيـة عامـة، وهـو الـولاء للاحتـلال الأجنبـى، والزرايـة

بالمبادئ الوطنية، وقلة الإخلاص للبلاد. ودرج الناس على هذه الحالة وألفوها، حتى عدوها كأنها حالة عادية، وكأن الخروج عليها ضرب من السخف أو الجنون. وهكذا يمسخ الحكم الأجنبى نفسية الأمة ويفقدها روح القومية والكرامة، وينشئ نفوسا مريضة، يروضها على التفريط فى حقوق الوطن، وتضحية مصالحه، فى سبيل التهافت على موائد المناصب.

"مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال" ط٢ ص١٧٥

- .. فتاقت نفسى عندما تخرجت من مدرسة الحقوق وانتظمت فى سلك الحياة العملية أن أنشد المثالية فى حياتى الشخصية والعائلية والاجتماعية، وأن أنشدها فى الحياة السياسية أيضا. ولم أكن أخفى على نفسى أن الحياة المثالية ليست من اليسر ولا من السهولة بحيث تغرى شابا مثلى فى مقتبل العمر أن يسلك سبيلها، ولكن هكذا شاءت الأقدار أن أنشدها لنفسى. ولست أدرى مبلغ ما حققت منها، وإلى أى مدى كنت مثاليا أو غير مثالى، وهل الحياة المثالية ممكنة أم لا، نافعة أم ضارة، وهل هى - بوجه خاص - ممكنة فى الحياة السياسية أم لا، وهل أخطأت أم أصبت فى نشدانى لها؟

كل هذه أمور لست أستطيع بعد طول السنين أن أجيب عنها، وما فائدة البحث فيها الآن؟ لكن الذى يمكننى الإفضاء به أنى اجتهدت أن آخذ من الحياة المثالية أقصى

ما أستطيع، ويمكنني أن أقول إن نصيب الإنسان منها يتبع مبدئيا الوسط والبيئة التي يعيش فيها .. على أن الإرادة الشخصية لها دخل في توجيه المواطن إليها، وهي على أي حال تحتاج إلى ذخيرة من الصبر، ومن الصوفية الوطنية، تجعل المرء غير مكترث لما يلقاه من العقبات والمتاعب .. كل هذا لم يصرفني عن التمسك برأيي، وقد يكون تمسكي بهذا الرأي أمرا غير إرادي، ولكن هكذا اتجهت نفسي هذه الوجهة، ولقد كان لها أثرها في مختلف مراحل حياتي.

"مذكراتي" ط١ ص١٩

- إن في قيثارة الشعر سلوى للقلب، وغذاء للروح، وإنها لتوحي إلى النفوس أسمى معاني الإنسانية، وما أجمل هذه القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية.

"شعراء الوطنية" ط١ ص١

- أمامنا مشكلة خطيرة يجب أن نجد لها حلا وهي مشكلة زيادة عدد السكان، فإن مصر من أكثر البلاد ازدحاما بالسكان بل إن الإحصائيات الأخيرة تدل على أنها تفوق كل البلاد في الازدحام.

"أربعة عشر عاما في البرلمان" ط١ ص١٤٦
(جلسة ٢٦ مارس سنة ١٩٤٠)

- ولكن أليس لى - بعد أن ترجمت لمئات من الشخصيات فى تلك الحقبة من الزمن التى أرختها والتى تزيد على مائة وخمسين عاما من تأريخ مصر الحديث - أن أترجم لنفسى؟

حقا إن من أشق الأمور على الإنسان أن يترجم لنفسه، فقد يحمل هذا على محمل المباهاة والأنانية، ولكنى ما قصدت إلى شىء من هذا قط، وإنما أقصد إلى أن مثل هذه المذكرات فيها من الحقائق والخواطر ما لا تتسع له كتب التاريخ. وهى مع ذلك قد تفيد لمن يريد أن يتفهم العصر الذى عشت فيه وشاهدت حوادثه وحقائقه. ثم إنى أرى أن نشرها قد يكون مساهمة منى فى تكوين المواطن الصالح، ربما أكون مصيبا فى هذا الظن أو مخطئا، ولكن هذا هو الغرض الذى أنشده.

"مذكراتى" ط١ ص٣

الفهرس

للمؤلف

عبد الرحمن الرافعى		
مؤرخ مصر الحديثة	ط١. أعلام العرب رقم ١٢٧	١٩٨٧
سياحة تاريخية	دار سنابل	١٩٩٥
الماضى فى الحاضر	دار سنابل	١٩٩٦
عبد العزيز الشناوى مؤرخاً	دار سنابل	١٩٩٩

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٢٦٢٦

الترقيم الدولى .I.S.B.N

977 - 402 - 000 - 6

دار سنابل للنشر والتوزيع

المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمة

فكرة!

قرات كتاب « عبدالرحمن الرافعي مؤرخ مصر الحديثة » من تاليف الاستاذ بهاء الدين محمد علوان ، وهو من سلسلة اعلام العرب ، التي تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وعبدالرحمن الرافعي كان احد الشخصيات التي عرفتها واحببتها واعجبت بها واحتفظت بكل مؤلفاتها . وكان والدي شريكا له في مكتب للمحاماة في المنصورة ودمياط ، وهو الذي اعطانا اسم جريدة « الأخبار » لنصدرها وكان يملكها شقيقه الاستاذ امين الرافعي .

وكان ابي يؤكد لنا انه لو لم يستاذن عبدالرحمن الرافعي اللجنة الادارية للحزب الوطني في قبول عرض سعد زغلول ان يكون الرافعي عضوا في الوفد لاصبح عبدالرحمن الرافعي رئيسا للوفد في يوم من الأيام .

وكان سعد يحب الرافعي ولكنه يختلف معه في رايه بان احمد عرابي خائن . وكان عبدالرحمن الرافعي متاثرا براي الزعيم مصطفى كامل ان الزعيم احمد عرابي خائن . وفي كتابه عن الثورة العرابية هاجم بقسوة عرابي . لان الحزب الوطني يعتبره سبة في وجه مصر لانه بتهوره جلب اليها الاحتلال الانجليزي !! وكتب عنه يقول « وقد يرجع نزوع عرابي إلى الثورة إلى اصله البدوي . فانه ذكر عن نسبه انه ينحدر من سلالة بدوية عراقية . ومعلوم ان اكثر البدو يميلون الى التمرد والثورة . على انهم سرعان ما ينقلبون خاضعين اذا انسوا القوة من جانب خصومهم . وهذا مع الأسف ما انتهى اليه عرابي . فقد اذعن للقوة واستسلم لها في واقعة التل الكبير . ولم يبذل خلال المعركة او بعدها من قوة المقاومة والنضال والتضحية ما يسمو به إلى مصاف الابطال . وكان ذكاؤه محدودا . على انه كان على جانب كبير من الغرور . والاعتداد بالنفس . وكان يعول كثيرا على اقوال المنجمين والعرافين . وهذه جوانب ضعف كبيرة في شخصه » .

صدر هذا الكتاب في سنة ١٩٣٧ واثار غضب الراى العام . فقد اعتبرت ثورة ١٩١٩ احمد عرابي بطلا من ابطال مصر العظماء واشاد به سعد زغلول . وبعد ١٥ سنة اصدر عبدالرحمن الرافعي كتابا بعنوان الزعيم الثائر احمد عرابي . وكان صورة مركزة لما نشره الرافعي في كتابه السابق . ولكن الجديد في هذا الكتاب انه رفع كافة الفقرات الحادة التي كتبها وهو في الثانية والاربعين . والتي تدين عرابي بالخيانة والهروب من ميدان المعارك حتى بدا كانه اعتذار عما سلف .. وبعد ان قوبل رايه السابق بالاتكار . وكما يقول المؤلف بهاء الدين محمد علوان « كتابات الرافعي الجديدة وهو في سن الثالثة والستين عن عرابي خير دليل لتعديله لموقفه على مر الايام فرفعه من الحضيض إلى السماء » .

وهذا يدل على روح العدالة في عبدالرحمن الرافعي . فقد حكم باعدام عرابي بناء على ما سمعه من الزعيم مصطفى كامل وزعماء الحزب الوطني الذي قدم لهم الخديو عباس مستندات ووثائق ملفقة تدين احمد عرابي بالخيانة والجبن لانه اعلن الثورة على والده الخديو توفيق . وعندما ظهرت بعد ذلك الحقائق التاريخية والوثائق الرسمية التي تثبت ان عرابي كان بطلا وطنيا وزعيما قوميا ورجلا شجاعا ذكيا لم يتردد عبدالرحمن الرافعي ان يحذف اتهاماته من كتابه الجديد . الرجل الكبير وحده هو الذى يعترف بخطئه على رءوس الاشهاد .

وكان عبدالرحمن الرافعي رجلا كبيرا .

مصطفى أمين

● الأخبار ● ١٩٨٧/٥/٣ ●

دار للنشر والتوزيع
المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمة

